

دار التكوين بين المذاهب الإسلامية

الموسم كتاب الفرائض كتاب الفرائض

المجلد الخامس

إعداد

جمعة شرق الدين

تقديم

د. هبة العزلي بن عثمان التويجري



مرکز تحقیقات کتاب و اسناد اسلامی

الموسوعة القرآنية
خصائص السور



مرکز تحقیقات کلام و فقه اسلامی

دار التقريب بين المذاهب الإسلامية

الموسوعة الفقهية

خصائص الشريعة

المجلد الخامس

مركز تحقيق كامبوتر علوم إسلامي
إعداد

جعفر شرف الدين

تقديم

د. عبد العزيز بن عثمان التويجري

مراجعة

د. محمد توفيق أبو علي

الأستاذ أحمد حاطوم

دار التقريب بين المذاهب الإسلامية

شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان
تلفون ٢ / ٣٥٠٧٢١ (٠١)

تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ (٩٦١١)

e-mail: allprint@cyberia.net.lb

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

الإخراج الفني: زاهدة عاصي

سورة النحل



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی





مرکز تحقیقات کلام و فقه اسلامی

أهداف سورة «التحل» (*)

الرسول، وسنة الله في المكذبين لهم، وتلّم بموضوع التحليل والتحريم، وأوهام الوثنية حول هذا الموضوع، وتلم بالهجرة في سبيل الله، وفتنة المسلمين في دينهم، والكفر بعد الإيمان، وجزاء هذا كله عند الله، ثم تضيف إلى موضوعات العقيدة موضوعات المعاملة: العدل والإحسان، والإنفاق والوفاء بالعهد، وغيرها من موضوعات السلوك القائم على العقيدة، وهكذا هي مليئة حافلة من ناحية الموضوعات التي تعالجها.

فأما الإطار الذي تعرض فيه هذه الموضوعات، والمجال الذي تجري فيه الأحداث، فهو فسيح شامل: هو السماوات والأرض، والماء الهاطل،

عرض إجمالي للسورة

سورة التحل سورة مكية، وعدد آياتها ١٢٨ آية، وهي سورة هادئة الإيقاع والجرس، ولكنها مليئة حافلة، بموضوعاتها الرئيسة كثيرة متنوعة، والإطار الذي تعرض فيه واسع شامل.

وهي، كسائر السور المكية، تعالج موضوعات العقيدة الكبرى: الألوهية، والوحي والبحث، ولكنها تلم بموضوعات جانبية أخرى تتعلق بتلك الموضوعات الرئيسة، تلم بحقيقة الوجدانية الكبرى التي تصل بين رسالة إبراهيم (ع)، ورسالة محمد (ص)، وتلم بحقيقة الإرادة الإلهية والإرادة البشرية في ما يختص بالإيمان والكفر والهدى والضلال، وتلم بوظيفة

(*) أثنى هذا الفصل من كتاب «أهداف كل سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شعكة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ - ١٩٨٤.

القلب الميت والعقل المتكوس،
والحسن المظموس.

هذه الإيقاعات، تتناول التوجيه إلى
آيات الله في الكون، وآلانه على
الناس، كما تتناول مشاهد القيامة،
وصور الاحتضار ومصارع الغابرين،
تصاحبها اللمسات الوجدانية، التي
تتسرب إلى أسرار الأنفس، وأحوال
البشر، وهم أجنة في البطون، وهم في
الشباب والهرم والشيخوخة، وهم في
حالات الضعف والقوة، وهم في
أحوال النعمة والنعمة، كذلك تتخذ
السورة الأمثال، والمشاهد، والحوار،
والقصص الخفيف، أدوات للمرض
والإيضاح.

فأما الظلال العميقة التي تلون جو
السورة كله، فهي الآيات الكونية تجعل
فيها عظمة المخلوق، وعظمة النعمة
وعظمة العلم والتبشير. كلها متداخلة،
فهذا الخلق الهائل العظيم المنبر عن
علم وتقدير، ملحوظ فيه أن يكون
نعمة على البشر، لا تليي ضروراتهم
وحدها، ولكن تليي أشواقهم كذلك،
فتعد الضرورة، وتتخذ للزينة، وترتاح
بها أبدانهم، وتستريح لها نفوسهم،
لعلهم يشكرون. ومن ثم تتراءى في

والشجر النامي، والليل والنهار
والشمس والقمر والنجوم، والبحار
والجبال والمعالم والسبل والأنهار، هو
الدنيا بأحداثها ومصائرهما، والآخرة
بأقنارها ومشاهدتها، هو الغيب بألوانه
وأعماقه في الأنفس والآفاق.

في هذا المجال الفسيح يبدو سياق
السورة وكأنه حملة ضخمة للتوجيه
والتأثير واستجاشة العقل والضمير،
حملة هادئة الإيقاع، ولكنها متعددة
الأوتار، ليست في جمللة سورة
الأنعام وسورة الرعد، ولكنها في
هدونها تغاطب كل حاسة وكل جملة
في الكيان البشري، وتتجه إلى العقل
الواسع كما تتجه إلى الوجدان
الحساس. إنها تغاطب العين لترى،
والأذن لتسمع، واللمس ليستشعر،
والوجدان ليتأثر والعقل ليتنبأ، وتحشد
الكون كله: سماؤه وأرضه، شمس
وقمره، ليله ونهاره، جباله وبحاره،
فجائه وأنهاره، ظلاله وأكثانه، نبتة
وثماره، حيوانه وطيوره، كما تحشد
دنياء وآخرته، وأسراره وغيوبه. . كلها
أدوات توقع بها على أوتار الحواس
والجوارح والعقول والقلوب، مختلف
الإيقاعات التي لا يتغلق أمامها إلا

ليؤمنوا له ويستسلموا، ولم يدركوا
حكمة الله في إيهالهم، ورحمته في
إنظارهم، ولم يحاولوا تدبُّر آياته في
الكون، وآياته في القرآن.

يَعْمُ الله

تسترجع الآيات في سورة النحل،
تستعرض يَعْْمُ الله سبحانه على
الإنسان، فتذكر خلق السماوات
والأرض والإنسان، والأنعام والنبات،
والليل والنهار، والجبال والبحار،
والشمس والقمر والنجوم، وهي ظواهر
طبيعية ملموسة، ولكننا إذا قرأنا الآيات
[٣ + ١٨] في سورة النحل نجد أننا
أمام لوحة كونية معروضة، تنتقل
بالإنسان من مشهد إلى آخر، وكل
مشهد يدل على وحدانية الخالق،
ووحدة المنعم. وتعرض الآيات هذه
النعم فوجاً فوجاً، ومجموعة
مجموعة.

في الفرج الأول، تحدثت الآيات
عن خَلْق السماوات والأرض، فيقول
سبحانه:

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْعَلَى﴾
(الآية ٣).

فالحق قوام خلقهما والحق قوام
تدبيرهما والحق عنصر أصيل في

السورة ظلال النعمة، وظلال الشكر،
والتوجيهات إليها، والتعقيب بها، في
مقاطع السورة، وتضرب عليها
الأمثال، وتعرض لها النماذج،
وأظهرها نموذج إبراهيم:

﴿شَاحِكًا لِآثِمِهِ آمَنَ تَتَنَزَّلُ إِلَيْهِ
فِي سَكَنٍ مِّنْ رَّبِّهِ﴾ ﴿١٧٧﴾ كل أولئك في
تناسق ملحوظ بين الصور والأفكار،
والعبارات والإيقاعات، والقضايا
والموضوعات نرجو أن نشاهده في
أثناء استعراضنا لأجزاء السورة.

التوحيد في السورة

تبدأ سورة النحل بآية مشهورة، يقال
كثيراً عندما يحين الأجل، ويوقف
الإنسان عاجزاً أمام حوادث القدر،
يقول سبحانه:

﴿إِنَّ أَثَرَ اللَّهِ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ
فَتَنَّا عَنْ أَثَرِ اللَّهِ فَلَا يَتَذَكَّرُ أَلَّا هُوَ﴾

ومن أسباب نزول هذه الآية، أن
أهل مكة كانوا يستعجلون الرسول (ص)
أن يأتيهم بعذاب الدنيا أو عذاب
الآخرة. وكلما امتد بهم الأجل، ولم
ينزل العذاب، زادوا استعجالاً، وزادوا
استهزاء واستهتاراً، وخببوا أن محمداً
يخونهم بما لا وجود له ولا حقيقة،

تصريفهما، وتصريف من فيهما وما فيهما، فما من شيء من ذلك كله عيث ولا جُزافه، بل كل شيء قائم على الحق، وملتبس به، وسائر في النهاية إليه.

ثم تستعرض الآيات نعمة خلق الأنعام، والأنعام المتعارف عليها في الجزيرة العربية كانت الإبل والبقرة والضأن والمعز، وقد أباح الله أكلها، أما الخيل والبغال والحمير فلمركوب والزينة، ولا تؤكل، ثم يجيء التعقيب على هذه النعمة، بقوله سبحانه:

﴿وَمَا خَلَقَ مَا لَا فَتَلَمُّونَ﴾ ١٥

ليظل المجال مفتوحاً في التصور البشري لتقبل أعماط جديدة من أدوات الحمل والنقل والركوب والزينة. إن الإسلام عقيدة مفتوحة مرنة، قابلة لاستقبال طاقات الحياة كلها، ومفردات الحياة كافة، ومن ثم يهيئ القرآن الأذهان لاستقبال كل ما تمخض عنه القدرة والعلم والمستقبل، استقباله بالوجدان الديني المفتوح المستعد لتلقي كل جديد، في عجائب الخلق، والعلم والحياة.

ولقد وجدت وسائل للحمل والنقل والركوب والزينة لم يكن يعلمها أهل

ذلك الزمان، وتستجد وسائل أخرى لا يعلمها أهل هذا الزمان، والقرآن يهيئ القلوب والأذهان بلا جمود ولا تحجر، حينما يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَمَا خَلَقَ مَا لَا فَتَلَمُّونَ﴾ ١٥

والفوج الثاني من آيات الخلق والنعمة، إنزال الماء، وإنبات النبات والمرعى والزرع، التي يأكل منها الإنسان، مع الزيتون والتخيل والأعناب وغيرها من أشجار الثمار.

في الفوج الثالث تحدثت الآيات عن تبخير الليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم، وكلها ذات أثر جلل في حياة الإنسان، ومن شاء فليتصور نهراً بلا ليل، أو ليلاً بلا نهار، ثم يتصور مع هذا حياة الإنسان والحيوان والنبات في هذه الأرض كيف تكون، كل أولئك طرف من حكمة التدبير، وثناسق النواميس في الكون كله. يدركه أصحاب العقول التي تتدبر وتفكر:

﴿إِن فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ١٦

وفي الفوج الرابع من أفواج النعمة فيما خلق الله للإنسان:

﴿وَمَا دَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ عَيْنًا﴾

الزُّمَرَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

امتز الله سبحانه على عباده، بما خلق لهم في الأرض من ألوان المنافع. وبما أودعه فيها للبشر، من مختلف المعادن التي تقوم بها حياتهم، في بعض الجهات وفي بعض الأزمان، ولفتهم إلى هذه الذخائر المخبوءة في الأرض، المؤدعة للناس حتى يبلغوا رشدكم يوماً بعد يوم، ويستخرجوا كنوزهم في حينها، ووقت الحاجة إليها، وكلما قيل: إن كنزاً منها قد نُفِد، أعقبه كنز آخر أكثر غنى، من رزق الله المدخر للعباد؛ قال تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

ثم امتز سبحانه على عباده بالبحر المالح، وما يشتمل عليه من صنوف النعم، «فمنها اللحم الطري من السمك وغيره للطعام، وإلى جوارره الحلية من اللؤلؤ ومن المرجان، وغيرها من الأصناف والقوافع».

ومنها مرور السفن تمخر عياب البحر، وتيسر المصالح، وتبادل المنافع بين الناس، قال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَجَارِكَ بَيْنَهُ لَحَافاً طَرِيقاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ جِلَّةَ ثَلْيُوتِهَا وَتَكَبُّ الْمَلَكُ مُوَاجِرَ بِهِ وَتَسْتَمْتُوا مِنْ قَصُولِهِ وَلَهُ كُفُّكُمْ فَتُكْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

وعندما ينتهي استعراض النعم بين القرآن، أن من يخلق ليس كمن لا يخلق، وأن نعم الله على الإنسان لا تعد ولا تحصى.

﴿وَإِذْ قُلْنَا يَا سَمَءُ آتُوْنَا غُصُوراً﴾ [الأنعام: ١١٨].

وحدة الألوهية

تتعرض الآيات [٢٢ - ٥٠] لتقرير وحدة الألوهية ليقول سبحانه:

﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْوَاقِعِ وَبَدِئُ﴾ [الأنعام: ٢٢].

وكل ما سبق في السورة، من آيات الخلق وآيات النعمة وآيات العلم، يؤدي إلى هذه الحقيقة الكبيرة البارزة، وهي أن هذا الكون البديع المنظم، لا يحفظ نظامه إلا إله واحد، والذين لا يسمون بهذه الحقيقة، قلوبهم منكورة، فالجمود صفة كامة فيها، والعلة أصيلة في نفوسهم المريضة، وطياحهم المعاندة المتكبرة، عن الإقرار والإذعان والتسليم.

وتختتم هذه الآيات، بمشهد مؤثر،
مشهد الظلال في الأرض كلها ساجدة
له، ومعها ما في السموات وما في
الأرض من دابة؛ والملائكة قد برزت
نفوسهم من الاستكبار، وامتلأت
بالخوف من الله، والطاعة لأمره بلا
جدال. هذا المشهد الخاشع الطائع،
يقابل صورة المستكبرين، المتكبرة
قلوبهم، في مفتتح هذه المجموعة من
الآيات.

وبين المطلع والختام، يستعرض
السياق مقولات أولئك المستكبرين
المتكبرين للوحي والقرآن، إذ يزعمون
أنه أساطير الأولين؛ ومقولاتهم، عن
أسباب شركهم بالله، وتعرضهم ما لم
يحزّمه الله، إذ يزعمون أن الله أراد منهم
الشر، وارتضاه؛ ومقولاتهم عن البعث
والقيامة، إذ يتقسمون جهلهم، لا
يبحث الله من يموت، ويتولى سبحانه
الرد على مقولاتهم جميعاً، ويعرض
في ذلك مشاهد احتضارهم، ومشاهد
بعثهم، وفيها يتبرأون من تلك
المقولات الباطلة، كما يعرض بعض
مصارع الغابرين من المكذّبين أمثالهم،
ويخرفهم أخذ الله لهم في ساعة من

ليل أو نهار، وهم لا يشعرون، وهم
في تقلّيبهم في البلاد، أو يأخذهم وهم
على تخوف وتوقع وانتظار للعذاب.
إلى جوار هذا، يعرض صوراً من
مقولات المتبقيين المؤمنين، وما
ينتظرهم عند الاحتضار ويوم البعث من
طيب الجزاء... وينتهي هذا الدرس،
بذلك المشهد الخاشع الطائع، للظلال
والدواب والملائكة، في الأرض
والسماء. والسياق القرآني، يعبر عن
خضوع الأشياء لنواميس الله،
بالسجود، وهو أقصى مظاهر
الخضوع، ويوجه إلى حركة الظلال
المتغيّبة، أي الراجعة بعد امتداد، وهي
حركة لطيفة خفيفة ذات ديب في
المشاعر والأحماق، ويرسم
المخلوقات داخرة أي خاضعة خاشعة،
ويضم إليها ما في السموات وما في
الأرض من دابة، ويضيف إلى الحشد
الكوني، الملائكة، في مقام خضوع
وخضوع وعبادة وسجود، قال تعالى:

﴿وَقَدْ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ مِنْ ذَكَرٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٧﴾ يَتَكُونُ لَهُمْ رُكُونٌ ﴿١٨﴾ بَيْنَ يَدَيْهِ
وَيَقُولُونَ مَا يَأْمُرُهُمْ رَبُّهُمْ ۖ﴾.

أدلة الوحدانية

تستمر الآيات من ٥١ إلى ٧٦ في سورة النحل، في إثبات قضية الألوهية الواحدة التي لا تتعدد، تبدأ فتقرر وحدة الإله ووحدة الملك، ووحدة المنعم، في الآيات الثلاث الأولى متواليات، وتختتم بمثلين تضربهما لئلا يملك المالك الرازق، والعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، ولا يملك شيئاً. هل يستويان؟ فكيف يستوي الله المالك الرازق، بمن لا يقدر ولا يملك ولا يرزق؟ فيقال: هذا إله وهذا إله؟

وفي خلال هذا الدرس، تعلّمي الآيات نموذجاً بشرياً للناس، حين يصيبهم الضرر، فيجأون إلى الله وحده، وإذا كشف عنهم الضرر، راحوا يشركون به غيره.

وتعرض الآيات صوراً من أوهام الوثنية وخرافاتهم، في تخصيص بعض ما رزقهم الله لأنفسهم المذمومة، في حين أنهم لا يردون شيئاً مما يملكونه على عبدهم، ولا يقاسمونهم إياه، وفي نسبة البنات إلى الله، على حين يكرهون ولادة البنات لهم:

﴿يَا بَنِي إِدْرِيسَ أَهْلُكُمْ بِالْأُنْثَىٰ لَعَلَّ وَجْهَهُمُ سَوِيٌّ وَهُمْ كَوَلِيمٌ﴾.

وفي الوقت الذي يجعلون الله ما يكرهون، تروح أنفسهم تشدق بأن لهم الحسن، وأنهم سينالون على ما فعلوا خيراً، وهذه الأوهام التي ورثوها من المشركين قبلهم، هي التي بُعث الرسول (ص) ليبيّن لهم الحقيقة فيها، وليخرجهم من ظلمات الشرك إلى نور اليقين. ثم تأخذ الآيات في عرض نماذج من صنع الألوهية الحقّة، في تأملها عظة وعبرة، فالله وحده القادر عليها، الموجد لها. وهي هي دلائل الألوهية لا سواها: فالله أنزل من السماء ماء، فأحيا به الأرض بعد موتها، والله يسقي الناس - غير الماء - نباتاً طيباً، يخرج من بطون الأنعام، من بين فرث ودم، والله يطلع للناس ثمرات النخيل والأعناب، يتخذون منها سكراً ورزقاً حسناً، والله أوحى إلى النحل لتتخذ من الجبال بيوتاً، ومن الشجر ومما يعرشون، ثم تخرج عسلًا فيه شفاء للناس.

اسم السورة

وقد سميت هذه السورة بسورة النحل، للإشارة إلى الأمر العجيب الدقيق في شأن النحل، فهي تعمل

بولهام من الفطرة التي أودعها إناها الخالق، وهذا الإلهام لون من الوحي تعمل التحل بمقتضاء، وهي تعمل بدقة عجيبة، يمحز عن مثلاً العقل المفكر، سواء في بناء خلاياها، أو في تقسيم العمل بينها، أو في طريقة إفرازها للعمل المصنّى.

وهي تتخذ بيوتها حسب فطرتها، في
الجبال والشجر، وما يعرشون أي ما
يرفعون من الكروم وغيرها، وقد ذلّل
الله لها سبل الحياة، بما أودع في
فطرتها، وفي طبيعة الكون حولها، من
توافق، قال تعالى:

وَأَنذَرْنَاهُ إِلَىٰ أَهْلِهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُن مِّنَ الْغَائِبِينَ ﴿١٠٠﴾

وقد مثل الإمام الشافعي بم عرفته
الله؟ قال بالنحلة نصفها يُقْسَلُ، ونصفها
يلسع، وفي الحديث: المؤمن
كالنحلة. أي أنه حفيف الظل مترفع في
هدوه، لا يأكل إلا طيباً، ولا يترك إلا
أثراً حسناً، وإذا وقع على شيء لم
يكسره. وتستمر الآيات في عرض أدلة

القدرة الإلهية، فتذكر أن الله يخلق الناس، ويتوفاهم، ويؤجل بعضهم، حتى يشيخ فينسى ما تعلمه، ويرتد ساذجاً لا يعلم شيئاً، والله فضل بعضهم على بعض في الرزق، والله جعل لهم من أنفسهم أزواجاً وجعل لهم من أزواجهم بنين وخفدة، وهم بعد هذا كله، يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً في السماوات والأرض، ويجعلون له الأشباه والأمثال.

هذه اللّمسات كلها في أنفسهم وفي
بها أحولهم. يوجههم إليها، لعلهم
يستشعرون القدرة، وهي تعمل في
قوتهم، وفي طعامهم، وفي شربهم،
وفي كل شيء. حولهم. وفي كل شيء.
له آية تذكّر على أنه الواجد جلّ جلاله.

مظاهر القدرة الالهية

تحدث الآيات (٧٧ - ٨٩) في سورة النحل، عن مظاهر القدرة الإلهية، فتروصع عظمة الخالق، وفيض نعمته، وإحاطة علمه. وتركز الآيات في هذا الشوط على قصية البعث، والساعة أحد أسرار الغيب، الذي يختص الله بعلمه، فلا يُطْلَم عليه أحدًا.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ رِسْمَهُ عَلَيْكُمْ لَمَّا لَكُمْ تَفْهِيمٌ مِنْهُ﴾
تَفْهِيمٌ مِنْهُ ﴿٩٠﴾ .

ثم تفصل الآيات أمر البعث، في مشاهد يعرض فيها المشركون وشركاؤهم، والرسل شهداء عليهم، والرسول (ص) شهيد على قومه، وبذلك تكتمل هذه الجولة في جو البعث والقيامة.

الأوامر والنواهي

تعرض الآيات [٩٠ - ١١١] في سورة النحل، لشرح بعض أهداف القرآن الكريم، ويبدأ هذا الدرس بآية شهيرة، يرددها الخطباء على المنابر في نهاية خطبة الجمعة، وهي قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ
وَلِيُؤْتِيَهُم مِّنَ الْغَنَىٰ عَنْ الْفَقْرِ
وَالْعُسْرَ وَالْيُسْرَ يَكْفِيكُمْ لَمَّا لَكُمْ تَفْهِيمٌ مِنْهُ﴾
تَفْهِيمٌ مِنْهُ ﴿٩٠﴾ .

وفي هذا الدرس أمر بالوفاء بالعهد، ونهي عن نقض الأيمان بعد توكيدها، وتكلمنا من مبادئ السلوك الأساسية التي جاء بها القرآن الكريم.

وفي هذا الدرس، بيان الحرام المقرر، لنقض العهد، واتخاذ الأيمان للخلع والتضليل، وهو العذاب

وموضوعات هذا الدرس، تشمل أنواعاً من أسرار غيب الله في السماوات والأرض، وفي الأنفس والآفاق: غيب الساعة التي لا يعلمها إلا الله وهو عليها قادر، وهي عليه هيئة.

﴿وَمَا أَسْرَأْكَ أَتَىٰكَ إِلَّا تَكْجِجَ الْغَمْرُ
أَرَأَيْتَ أَفَرَأَيْتَ﴾ (الأنعام: ٩٧)،

وغيب الأرحام، والله وحده هو الذي يخرج الأجنة من هذا الغيب لا تعلم شيئاً، ثم ينعم على الناس بالسمع والأبصار والأفئدة، لتعلمهم يشكرون نعمته، وغيب أسرار الخلق، ويعرض منها تسخير الطير في جو السماء، ما يمكنها إلا الله.

يلي هذا الدرس استعراض لبعض ينعم الله المادية على الناس، وهي بجانب تلك الأسرار، وفي جوها: ينعم السكن والهدوء والاستقلال، في البيوت المبنية، والبيوت المتخذة من جلود الأنعام للظمن والإقامة، والأثاث والمستاع، من الأصواف والأوسر والأشعار.

وتذكر الآيات من ينعم الله الظلال، والأكنان، وهي ما يستتر الإنسان ويغطيه، والسرابيل وهي ما يلبسه الإنسان من قميص يقيه الحر والبرد، أو درع يقيه بأس الحرب:

المعظيم. والبشرى للذين صبروا، ومضاعفة الثواب لهم.

ثم تذكر الآيات بعض آداب تلاوة القرآن، وهي الاستعانة بالله من الشيطان الرجيم، لعلّ شبعه من مجلس القرآن الكريم، كما تذكر بعض تفوّلات المشركين من القرآن، فمنهم من يرمي الرسول (ص) بافترائه على الله، ومنهم من يقول: إن كلاماً أعجباً هو الذي يعلمه هذا القرآن.

وفي نهاية الدرس، يبيّن جزاء من يكفر بعد إيمانه، ومن يُكفره إلى الكفر، وقلبه مطمئن بالإيمان. ويبيّن جزاء من فتنوا من دينهم، ثم هاجروا، وجاهدوا، وصبروا. وكلّ أولئك، يُبَيّن ويُؤدّي ورحمة ويسرى للمسلمين.

وفي الآيات إباحة لمن أُكفره على الكفر، أن ينطق لسانه به، ما دام قلبه عامراً بالإيمان. روى ابن جرير بإسناده أن العذاب لما اشتد على حماد بن ياسر، نطق ببعض ما أُرعدوا، ثم شكّا ذلك إلى النبي (ص) فقال له النبي: «كيف نجد قلبك؟» قال: مطمئناً بالإيمان. قال النبي: «إن عادوا فعدّ»، فكانت رخصة في مثل هذه الحال.

وقد أبى بعض المسلمين أن يُظهروا الكفر بلسانهم، مؤثرين الموت على لفظه باللسان، كذلك صنعت سمية أم ياسر، وهي تُطعن بالحرّة في موضع العقّة حتى تموت، وكذلك صنع أبوها ياسر.

وقد كان بلال، رضوان الله عليه، يعذب أشدّ العذاب، حتى أُلْوَحُ الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر، ويُطلّب منه أن ينطق بكلمة الشرك، فيأبى وهو يقول: أحد أحد.

ولسأبالي حين أُنْثِلُ مُنْجِلاً
أُحلى لّي جنب كآن في الله مُضْرمي

ختم سورة النحل

يتحدث الريح الأخير من سورة النحل، عن مثل يضره الله سبحانه، لتصوير حال مكّة وقومها المشركين، الذين جحدوا نعمة الله عليهم، لينظروا المصير الذي يتهدّمهم من خلال المثل الذي يضره لهم، حين يقول سبحانه:

﴿وَصَرَفَ اللَّهُ مَثَلًا قَرِيحًا حَكَاَتَ مَآسِكَةٍ طَمَسَتْ يَافِيهَا يَدْفَعُهَا رَعْدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَحَكَّرَتْ بِأَنَّهُمْ أَلُوْا فَادَّاهَا اللَّهُ لِنَاسٍ آخَرٍ وَالْعَوْفُ بِمَا حَكَاوْا يَصْنَعُونَ﴾

أجله. وهو اختراء على الله لم تُنزل به
شريعة.

وبمناسبة ما حُرّم على المسلمين من
الخبائث، يشير إلى ما حُرّم على اليهود
من الطّيبات بسبب ظلمهم. وقد جعل
هذا التحريم عقوبة لهم على عصيانهم.
ولم يكن محرّماً على آبائهم، في عهد
إبراهيم (ع) الذي كان آمنّاً قانتاً لله
حنيفاً، ولم يك من المشركين، شاكراً
لأنعمه، اجتنبه وهذه إلى عسائر
مستقيم. فكانت حلالاً له الطّيبات،
ولبنيه من بعده، حتى حرّم الله بعضها
على اليهود، عقوبة لهم خاصة، ومن
نابله من بعد جهالته، فإن الله غفور
رحيم.

ثم جاءت رسالة محمد (ص)،
امتداداً وأثباتاً لرسالة إبراهيم (ع)،
فعادت الطّيبات كلّها حلالاً، وكذلك
السبت الذي منع فيه اليهود من الصيد،
فإنما السبت على أهله الذين اختلفوا
فيه، ففريق كف عن الصيد، وفريق
نقض عهده، فمسخه الله، واتكس عن
مستوى الإنسانية.

وتختتم السورة عند هذه المناسبة
بالأمر إلى الرسول (ص)، أن يدعو إلى
مسيل ربه، بالحكمة والموعظة

وهي حال أشبه شيء بحال مكة
جعل الله فيها البيت، وجعلها بلدأ
حراماً، من دخله فهو آمن مطمئن، لا
تمتد إليه يد، ولو كان قتلاً، ولا يجرؤ
أحد على إيذائه، وهو في جوار بيت
الله الكريم. وكان الناس يُنحطّون من
حول البيت، وأهل مكة في حراسته
وحمايته كانوا آمنين مطمئنين، كذلك
كان رزقهم يأتيهم حيناً هنئاً، من كل
مكان مع الحبيب ومع القوافل الآمة،
مع أنهم في وادٍ فقر جذب غير ذي
زرع، فكانت تجيء إليهم ثمرات كل
شيء، فيتلوّقون طعم الأمن وطعم
الرخد، منذ دعوة إبراهيم الخليل عليه
السلام، فإذا كُذّب أهل مكة بدعوة
محمد (ص)، وجحدوا رسالته،
استحقوا العقاب والعذاب ولباس
الجوع والخوف، جزاء كفرهم
وعنادهم.

ثم ينتقل السياق بهم، إلى الطّيبات
التي حرّمها أبناء القبائل المكية على
أنفسهم، أثباتاً لأوامر الوثنية، وقد
أحلّها الله لهم، وحدّه المحرّمات،
وبيتها، وليست هذه منها، وذلك لون
من الكفر، بنعمة الله، وعدم القيام
بشكرها، يتهذّم بالعذاب الأليم من

الحسنة. وأن يجادلهم بالتي هي أحسن. وأن يلتزم قاصدة العدل، في ردة الاعتداء بمثله دون تجاوز... والصبر والعفو خير، والعاقة بعد ذلك للمتقين المحسنين، لأن الله معهم ينصّرهم ويرحمهم، ويهديهم طريق الخير والفلاح.

وفي أسباب نزول القرآن، أن الآيات الأخيرة من سورة النحل، نزلت في حمزة بن عبد المطلب، حين استشهد في غزوة أحد، وفي هذه الغزوة مثل المشركون بالمسلمين، فبقروا بطونهم، وقطعوا مذاكيرهم، وما تركوا أحداً غير ممثّل به، سوى حنظلة بن الراهب، كان الراهب أبو عامر مع أبي سفيان،

فتركوا حنظلة لذلك، ثم وقف رسول الله (ص) على جثة حمزة، وقد ممثّل به، فرآه مبقور البطن فقال: «أما والذي أحلف به، إن أظفرنّي الله بهم، لأمثلن بسبعين مكانك» فنزل قوله تعالى:

﴿وَلَئِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾.

ولما نزلت هذه الآية، كُفر النبي (ص) من يمينه، وكفّ عما أراد، ومن هذا ذهبوا إلى أن خواتيم صورة النحل مدنية، ولا خلاف في تحريم المثلة، وقد وردت الأخبار بالنهي عنها، حتى بالكلب المقثور.

تباين الآيات في سورة «النحل»^(٥)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة النحل بعد سورة الكهف، وهي من السور التي نزلت بعد الإسراء وقبيل الهجرة، فيكون نزول سورة النحل في ذلك التاريخ أيضاً، وقيل إنها من السور المدنية.

وقد سُميت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَىٰ آتِلَيْهِ أَنِ الْبَلَاءَ لِيُؤَيِّدَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَمَا يَكْفُرُونَ لَهُ﴾. وتبلغ آياتها ثمانين وعشرين ومائة آية.

الغرض منها وثمرتها

الغرض من هذه السورة إنذار

المشركين بالعذاب، وإبطال شركهم، وردّ شبههم على القرآن والنبوة والبحث، وهي أمور متشابهة متلازمة وقد افتتحت بآيتين، أجملت فيهما تلك الأعراس، وقصد بهما التمهيد لتفصيل الكلام فيها، ثم خُتمت بذكر نعمة الله على أولئك المشركين، بسكنى حرمه، وأنهم كفروا بنعمته بهذا عليهم، فحُجِّروا بذلك العذاب الذي حق عليهم.

وقد جُمِعت بعد سورة الحجر، لأنه أمره، في آخرها، أن يعبد ربه حتى يأتيه اليقين. وقد افتتحت هذه السورة بأن ما وعدوا به قد أتى وقته وحق حينه.

(٥) انظر هذا البحث من كتاب «النظم الذي في القرآن»، للشيخ عبد الشمال العميدي، مكتبة الأديب بالجميزة - المطبعة النورانية بالمكتبة الجديدة، القاهرة، غير مؤرخ.

إبطال الشرك

الآيات [١ - ٢٣]

قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ صَلَاةَكَ لِتُذَكَّرَ﴾ فافتتحها بآيتين أجمل فيهما أغراضها، فأفترق بينهما بأنه أتى أمره بعدايبهم، ونزه ذاته عن شركائهم؛ وذكر أنه ينزل الملائكة بالوحي على من يشاء من عباده، لينذروا الناس بتوحيده وبأمرهم بقضائه.

ثم شرع في إبطال الشرك وإثبات التوحيد، فذكر سبحانه، أنه خلق السماوات والأرض بالحق، وأنه خلق الإنسان من نطفة. وأنه خلق الخيل والبغال والحمير لتركبها وتشتغلها بيته؛ وأنه يخلق غير هذا، مما لا يدخل في علمنا؛ وأنه يبين بهذا قصد السبيل إليه، وسها جائر يتحرف عنه؛ ولو شاء سبحانه لهداهم أجمعين. ثم ذكر أنه سبحانه هو الذي أنزل من السماء ماء، منه شراب ومث شجر، وأنه جل شأنه، ينبت الزرع والزيتون والنخيل والأعناب، ومن كل الثمرات؛ وأنه تعالى، سخر الليل والنهار والشمس والقمر، والنجوم مسخرات بأمره، وأنه

سخر البحر لتأكل منه لحماً طرياً، ونستخرج منه جلية نلبسها، وأنه ألقي في الأرض رواسي: جبالات، وأنهاراً وسبلاً لنهتدي بها؛ وأنه جعل علامات في هذه السبل، لنهتدي بها فيها، كما نهتدي بالنجم أيضاً.

ثم ذكر، أنه لا يصح أن يكون من يخلق هذا كله، كمن لا يخلق، من أصنامهم التي يتخلون بها شركاء له؛ وأنهم إن عبدوا نعمته مما سبق وغيره لا يخصوها؛ وأنه سبحانه يعلم سرهم وعلايتهم، وأن الذين يدعونهم من دونه لا يخلقون شيئاً وهم يُخلَقُونَ، ولهم أصوات غير أحياء وما يشعرون أذاناً يبعثون، ثم ذكر أنه يجب بعد هذا كله أن يكون إلههم واحداً، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة هم الذين لا يؤمنون به، لأن قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ﴿لَا يَسْرِعُ لَكَ اللَّهُ يَسْرِعَ مَا تَدْعُو وَنَا يُسْرِعُونَ لَكَ لَا يَحِثُّ لَكَ شَيْءٌ﴾.

رد شبهة لهم على القرآن

الآيات [٢٤ - ٣٤]

ثم قال تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَهُمْ مَا آتَاكُمْ وَتَكْفُرُوا أَلَيْسَ الْأَوَّلُ﴾ فذكر أنهم إذا سئلوا عن القرآن، قالوا إنه

بأن الحلائكة يتوقنونهم طيبين،
فيتلقونهم بالسلام، ويأمرونهم بدخول
الجنة، جزاء لهم بما كانوا يعملون.

ثم عُدَّ المكذِّمين بأنهم لا ينتظرون
بتكذيبهم، إلا أن تأتيهم الحلائكة، أو
يأتيهم أمرهم بهلاكهم. كما أهلك من
فعل من الأولين مثل فعلهم، وما
ظلمهم بهذا، ولكن كانوا أنفسهم
يظلمون ﴿فَأَسَافَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ﴾.

هود إلى إبطال شركهم الآيات [٣٥ - ٣٧]

ثم قال تعالى ﴿وَقَالَ الْإِسْرَافِيُّ أَتَدْعُونِي
عِبَادَةً لَّهِ تَكُونُ خَيْرًا لِّدِينِي مِنْ دِينِي
وَمِنْ دِينِي وَلَا تَأْتِيَنِي وَلَا حَرَمًا وَلَا دُونَهُ مِنْ
دُونِهِ كَذَلِكَ قَالَ الْإِسْرَافِيُّ يَنْقُلُكُمْ
عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا الْبَلْعَ الْيَسِيرَ﴾. فذكر
أنهم استدلوا على شركهم، بأنه وقع
بإرادته ومشيئته، وهو لا يشاء إلا ما
يرغاه؛ وردَّ عليهم بأن المشركين
قبلهم فعلوا مثل فعلهم، فلم يمنع ما
نزل من عذابه لهم، وليس على الرسل
إلا أن يبلغوا من أُرسلوا إليهم، فإذا
بلغوهم زال بهذا عذرهم؛ ثم ذكر أن

أساطير الأولين، وأجاب عنه
بتهديهم، بأنهم يحملون به أوزارهم،
وبعض أوزار الذين يضلُّونهم بخير
علم، ثم ذكر أن المكشَّبين من
الأولين، قد مكروا بمثل ما يمكرون به
في القرآن، فأبطل مكرهم وأهلكهم،
ثم يوم القيامة يخزيهم ويسألهم أين
شركاؤهم الذين كانوا يخاضعون
بالطعن في القرآن من أجلهم؟ فيجيب
الذين أوتوا العلم من الحلائكة، أو
المؤمنين، بأن الخزي اليوم والسوء
عليهم، فلا يمكنهم أن يجيبوا
خزيهم، ثم ذمهم بأنهم يموتون ظالمي
أنفسهم بشركهم، فلا يجدون إلا أن
يُلْقُوا السَّلَمَ، وينكروا ما عملوا من
سوء، فيرد عليهم بأنه عليهم بما كانوا
يعملون، ويأمرهم أن يدخلوا أبواب
جهنم خالدين فيها، وفسَّ ثوابها لهم.

ثم ذكر أن المؤمنين، إذا سئلوا عن
القرآن، أجابوا بأنه خير للناس، وأنه
سيجازيهم على هذه الحسنة بمثلها في
الدنيا، وبخير منها في الآخرة،
ويدخلون جنات هذي تجري من تحتها
الأنهار، لهم فيها ما يشاؤون ممَّا
تشتهيه أنفسهم. وكذلك يجزي الله
المُتَّقِينَ هذا الجزاء الحسن، ثم مدحهم

رد شبهة لهم على النبوة

الآيات [٤٣ - ٥٠]

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْنَ إِلَيْهِمْ فَاتَّبَعُوا أَمْرًا أَوْفَىٰ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ فردة على ما يزعمونه، من أن الرسول لا يكون بشراً، بأنه لم يرسل سبحانه من قبله إلا رجالاً مثله، وأمرهم أن يسألوا أهل العلم عن هذا، إن كانوا لا يعلمون؛ ثم هذبه على مكرهم بهذا، أن يخسف بهم الأرض، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون، إلى غير هذا مما هذبه به؛ ثم ذكر ما ثبت قدرته على هذا، فعلمهم على النظر فيما خلق من شيء، ويشتبهون ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله سبحانه، وهم فاعرون. وذكر جل جلاله، أنه يسجد له ما في السموات وما في الأرض، من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون: ﴿يَسْجُدُونَ لَهُ مِنْ رَبِّهِمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبَيْنَ أَسْفُلِ أَيْدِيهِمْ وَمِمَّا رَفَعَهُمْ رَبُّهُمْ يَنْزِلُونَ﴾ ﴿٤٤﴾.

هود إلى إبطال أنواع من الشرك

الآيات [٥١ - ١٠٠]

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّبِعُوا إِلَّا مَنَاسِكَ تِلْكَ رِجَالٌ لَا تَفْقَهُوا شَيْئًا كَثِيرًا مِمَّا يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ عَلِيمُونَ﴾ ﴿٥١﴾.

كل الرسل، بُعثوا بإبطال الشرك، فمن أقوامهم من هداه إلى الإيمان به، ومنهم من حقت عليه الضلالة فسادت عاقبتهم؛ ثم ذكر للنبي (ص) أن شأن قومه في هذا، مثلهم ﴿إِنْ تَقْرُبُنِي عَلَىٰ هَذِهِم مِّنْ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾ ﴿٥٢﴾.

رد شبهة لهم على البعث

الآيات [٣٨ - ٤٢]

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنصَبُوا إِلَيْنَا حُجُوجَهُمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلْ وَعَدْنَا عَبِثُوا خُفَاً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ فذكر إنكارهم للبعث، وأجاب عنه بأنه لا بد منه، ولكن أكثرهم لا يعلمون، لأنه يبين لهم به ما يختلفون فيه، ويعلم به الكافرون أنهم كانوا كاذبين، وهو إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، فلا يعجزه البعث، كما لم يعجزه الخلق.

ثم ذكر أنه سيجازي المؤمنين، في الدنيا حسنة، وأن أجرهم بعد البعث أكبر، لو كانوا يعلمون ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿٣٩﴾.

له البنات ولأنفسهم البنين، ليجب أن لهم النار، وأنهم مُفْزَطُونَ.

ثم أقسم بنفسه أنه أُرْسِلَ إلى أمم من قبله، فزَيَّنَ لهم الشيطان شركهم، فهو يزيِّنه لهؤلاء المشركين، كما زَيَّنَ لتلك الأمم؛ ثم ذكر أنه لم ينزل عليه القرآن إلا ليبيِّن لهم ما وقعوا فيه من الشرك، وليكون هَدًى ورحمة لمن يؤمن به.

ثم ذكر، عما يدل على وحدانيته جلَّ جلاله، أنه أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وأنه جعل لنا في الأنعام عبرة، يسقينا مما في بطونه من لَبَنٍ مَّزِجٍ ودم لبناً خالصاً؛ وأنه سبحانه جعلنا نتخذ من ثمرات النخيل والأعناب سُكْرًا ورزقاً حسناً، وأنه أوحى إلى النحل أن تتخذ من الجبال وغيرها بيوتاً، وأن تأكل من الثمرات كلها، ليخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه، فيه شفاء للناس؛ إلى غير هذا ممَّا ذُكِرَ من الأدلة على وحدانيته.

ثم ذكر سبحانه أنهم مع هذا يعبدون من دونه ما لا يملك لهم رزقاً من السماوات والأرض؛ ونهاهم أن يضربوا له الأمثال، بقولهم إنهم خدامه وأقرب الخلق إليه، فهم يتخذونهم

فَأَزْهَقُونَهُمْ ﴿٥٦﴾ فأعطل مذهب الشنوية، الذين يقولون ياله الخير وإله الشر؛ لأن له سبحانه، ما في السماوات والأرض من خير وشر، ونعمة وضر؛ ثم بيَّن لهم أنهم إن كفروا بما آتاهم من النِّعَمِ، وتمتّعوا، فسوف يعلمون عاقبة ذلك؛ وقد ورد الكلام بصيغة الأمر التهديدي. ثم ذكر أنهم يجعلون لأصنامهم نصيباً ممَّا رزقهم من زروعهم وأنعامهم، وهي جماد لا تحسُّ لأدبهم، وأنهم يجعلون له سبحانه البنات من الملائكة، ولأنفسهم ما يشتهون من البنين؛ ثم ذكر أنَّ من كرههم للبنات أنهم إذا بُشِّرَ أحدهم بالأنثى، ظلَّ وجهه مسوداً وهو كظيم؛ يتوازي من قومه من سوء ما يشر به، أيمسكه على قون أم يمسّه في التراب، ليتخلص من عاره بينهم؛ ثم حجب من سوء حكمهم بهذا، وحكم بأن لهم صفة السوء وهي الاحتياج إلى الولد، وله الصفة العليا وهي عدم الاحتياج إليه؛ وذكر أنه لو يؤخِّفهم بهذا الكفر ما ترك على الأرض من دابة، ولكنه يؤخِّرهم إلى أجل مُّسَمًّى، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون؛ ثم ذكر ثانياً أنهم يجعلون

وسيلة له، لأنه أجل من أن يتوجهوا إليه بأنفسهم؛ وهم في هذا، كأصاغر الناس يخدمون حاشية الحاكم، وحاشيته هي التي تخدمه؛ فهذه كلها أمثال باطلة، والله يعلم الأمثال الصحيحة، وهم لا يعلمون.

ثم ضرب لهم من أمثاله الصحيحة، مثلين له ولشركائهم: أحدهما مثل عبد مملوك، لا يقدر على شيء ورجل رزق رزقاً حسناً، ينفق منه مراً وجهراً، فلا يصح أن يكون أحدهما مساوياً للآخر. وثانيهما مثل رجلين، أحدهما أبكم لا يقدر على شيء، (وهو ثقل على مولاة أينما يوجهه لا يأت بخير، وثانيهما يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، فلا يصح أيضاً أن يكون أحدهما مساوياً للآخر.

ثم ذكر، من صفات كماله، تأكيداً لمضمون هذين المثلين، أن له غيب السموات والأرض، وأن أمر الساعة عنده كلمح البصر، أو هو أقرب، وأنه يخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً، ويجعل لنا السمع والأبصار والأفئدة، إلى غير هذا من نعمه علينا؛ ثم ذكر أنهم إن أعرضوا بعد هذا، فليس على النبي (ص) إلا أن يبلغهم؛ وذكهم

بأنهم يعرفون نعمته، ثم ينكرونها، وأكثرهم الكافرون.

ثم شرع في بيان حالهم وحال شركائهم في يوم بغثهم، ليذكر تكذيبهم لهم فيما يزعمونه من ألوهيتهم؛ فذكر أنه سبحانه، يبعث يوم القيامة مع كل أمة شهيداً منها، وهو رسولها. ثم لا يؤذن لمن كفر منها في كلام ولا استمتاب، وإذا رأوا عذابهم سيئوا إليه من غير إسهال؛ وإذا رأوا شركاءهم قالوا لربهم: ﴿هَؤُلَاءِ شُرَكَّاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ [الآية ٨٦] فيكذبونهم، فيما ينسبونه إليهم من الألوهية، وهناك يستسلمون لما يحكم به عليهم، ولا يجادلون أحداً من شركائهم يشفع لهم؛ ثم ذكر أن من كان منهم، يُقسَّم إلى كفره صد غيره عن الإيمان، يزيده عذاباً فوق عذاب كفره؛ ثم ذكر ثانياً، أنه يبعث من كل أمة شهيداً عليهم منهم، ليذكر أنه يجيء بالنبي (ص) شهيداً على أمته، وقد قطع عليهم عذرهم، بتنزيله القرآن تبلياً لكل شيء، وهدى ورحمة وبشرى، لمن يؤمن به.

ولما ضرب في المثل الثاني من يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، فصل

شركهم، وأن يشكروا نعمته عليهم
يسكنى هذه القرية، إن كانوا إياه
يعبدون. ثم ذكر أنه لم يحزم عليهم إلا
الميتة والدم ونحوهما من الخبائث،
ونهاهم أن يحملوا ويحزموا من
أنفسهم؛ ثم ذكر أنه حزم على اليهود
ما قضه عليه من قبل في سورة الأنعام،
وأنه لم يظلمهم بهذا، ولكنهم كانوا
يظلمون أنفسهم بمحملهم بخلاف
علمهم، ثم ذكر أن للذين عملوا سوء
بجهالة من العرب الأميين، ثم تابوا من
بعد ذلك، وأصلحوا، مغفرة؛ إِنَّ رَحْمَتَ
رَبِّكَ بَيْنَ يَدَيْهِ، لَفُجُورٌ رَحِيمٌ.

ثم ذكر أن إبراهيم (ع) الذي أنشأ
تلك القرية، وأقام فيها الكعبة، كان أمة
قائماً لله حنيفاً، ولم يكن من
المشركين؛ وأنه كان شاكراً لأنعمه،
فاجتبه وهداه إلى صراط مستقيم، وآتاه
في الدنيا حسنة، وأنه في الآخرة لمن
الصالحين؛ ثم ذكر أنه أوحى إلى

النبي (ص)، أن يشع ملة إبراهيم
حنيفاً، وما كان من المشركين؛ وأنه،
إنما جعل شريعة السبت على اليهود
الذين اختلفوا فيها، وأنه سيحكم بينهم
يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون؛ فلا
يصح له أن يحمل بها، لأنهم حرّفوها
حتى خرجوا بها عن أصلها، وهو ملة
إبراهيم.

ثم أمر النبي (ص)، أن يدعو إلى
هذه الملة بالحكمة والموعظة الحسنة،
وأن يجادل المشركين فيها بالتي هي
أحسن، لأن الضلال والهدى بيده
تعالى، ثم أمره وأتباعه إذا خرج الأمر
عن الجدال إلى القتال، أن يعاقبوا بمثل
ما عوقبوا به، فلا يبدأوهم بالقتال ولا
يجاوزوا ما عوقبوا به، منهم؛ ثم
رقيهم في الصبر والعفو عنهم، ونهى
النبي (ص) أن يحزن لكفرهم أو يكون
في حبيق منّا يمكرون ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ
الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾.



مرکز تحقیقات کلام و علوم اسلامی

أسرار ترتيب سورة «النحل» (*)

الاعتلاق بسورة إبراهيم، وإنما تأخرت عنها لمناسبة سورة «الحجر»، في كونها من ذوات «الر».

وذلك: أن سورة إبراهيم وقع فيها ذكر فتنة الميت، ومن هو ميت وغيره^(١)، وذلك أيضاً في هذه، بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوْفَّعْتُهُمُ التَّنْجِيكَ عَلَّامِينَ الْغُيُوبِ﴾ [الأنعام: ٢٨]. فذكر الفتنة، وما يحصل عندها من الثبات والإضلال، وذكر هنا ما يحصل عقب ذلك من النعيم والعذاب^(٢).

أقول: وجه وضعها بعد سورة الحجر: أن آخرها شديد الالتئام بأول هذه، فإن قوله تعالى في آخر تلك: ﴿وَأَعِذْ رَبَّكَ حَقٌّ بِأَنِّكَ الْبَقِيَّةُ﴾^(٣) الذي هو مفسر بالموت، ظاهر المناسبة لقوله تعالى هنا: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ [الأنعام: ٢١]. وانظر كيف جاء في المقدمة ليأتيك اليقين، وفي المتأخرة بلفظ الماضي، لأن المستقبل سابق على الماضي، كما تقرر في المعقول والعربية^(٤).

وظهر لي أن هذه السورة شديدة

(١) انظر هذا البحث من كتاب «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تطابق عبد القادر أحمد عطا، دار الانصاف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(٢) مراد المؤلف أن المصراع سابق على الماضي في الكلام والإخبار، لا في الزمان. فذلك لأن يقوم الناس لرب العالمين يوم القيامة، سابق في الخبر ولا يجوز أن يقال: قام الناس لرب العالمين يوم القيامة، إلا بعد تمام ذلك البحث.

(٣) وذلك في قوله تعالى: ﴿بِئْسَ مَا تَدْعُو لَوْلَا يُعَذِّبُهُمْ وَيُنْزِلُهُمُ مِنَ النَّارِ مِنْ ضُلَالٍ تَكُنْ، وَكَانُوا يُسْتَنَافُونَ نَارَ تَعَذِّبُهُمْ﴾ [النحل: ٢٥].

(٤) وذلك في قوله تعالى من المصاب: ﴿فَقَاتِلْهُمْ فَيَرْجِعْ غَيْرَهُمْ غَيْرَ مُتَعَدِّينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]. وفي النعيم: ﴿حَتَّى تَصْوَ قَدْ عَرِجَ أَعْرَجُ مِنْ تَحْتِ الْأَعْنَادِ﴾ [الأنعام: ٣١].

ووقع في سورة إبراهيم: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَفْرِؤْهُ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾. وقيل: إنها في الجبار الذي أراد أن يصعد السماء بالنسور^(١). ووقع هنا أيضاً في قوله تعالى: ﴿قَدْ

مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الآية [٢٦] ووقع في سورة إبراهيم ذكر النعم، وقال عقبها: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا بِسْمِ اللَّهِ لَا تُخْشَوْهُ﴾ الآية [٣٤]. ووقع هنا ذكر ذلك معقباً بمثل ذلك.

(١) يروى أنه جزع لسري، وتوكل ويحل كل منهما في تابوت، وقعد هو وآخر في التابوت، ووقع عصا عليها النعم، فطارا بدمان اللحم حتى لحيا في البحر (تفسير الطبري: ١٦٠/٣).

مكنونات سورة «الفحل» (٥)

وقد سُقَّتْ أسماء المهاجرين إلى
الخبشة في كتاب رفع شأن الخبثان،
٤ - «وَصَرَّرَ اللَّهُ مَكَارِدَ جَلِيلِينَ» الآية
[٧٦].

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس
قال: نزلت هذه الآية في زجلين،
والأبكر منهما، الكل على مولاة:
أسيد بن أبي العيص، والذي يأمر
بالعدل: عثمان بن عفان^(١).

٥ - «كَأَنِّي فَتَقْتُ خَرَلَهَا» الآية
[٩٢].

قال السدي: كانت امرأة بمكة تُسمى
خزفاه مكة. أخرجه ابن أبي حاتم^(٢).

١ - «وَتَحْمِلُ لِقَالِكُمْ إِنْ يَكُرْ»
[الآية ٧]

قال ابن عباس: يعني مكة. أخرجه
ابن أبي حاتم.

٢ - «قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِ» [الآية ٢٦]

قال ابن عباس: هو نضروء بن
كنعان، حين بنى الصرح، أخرجه ابن
أبي حاتم^(١).

٣ - «وَالَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ قَبْلِ يَوْمِ
طُوًى» [الآية ٤١].

قال قتادة: هؤلاء الذين لجقوا بأرض
الخبشة. أخرجه ابن أبي حاتم.

(٥) انتهى هذا المبحث من كتاب «مكتنات القرآن» في مكنونات القرآن للشبلي، تحقيق إمام محمد الطباع، مؤسسة
الرسالة، بيروت، غير مؤرخ

(١) وابن جرير ٧٦/١٤

(٢) وأخرج ذلك ابن جرير ١٠١/١٤ أيضاً.

(٣) والطبري ١١١/١٤

وقال السُّهَيْلِيُّ: اسمها زَيْطَةُ بنتُ سعيد^(١) بن زَيْدِ مائة بنِ تميم.

٦ - «إِنَّمَا يَعْلَمُ بَسْرُهُ» [الآية ١٠٣].

قال مجاهد: عَثَوْا عَبْدَ بنِ الحضرمي. زاد قتادة: وكان يُسَمَّى: يُحْسَنُ^(٢).

وقال السُّدِّيُّ: يقال له: أبو اليَسْرِ.

وقال عبد الله بن مسلم الحضرمي: عثوا عَبْدَيْنِ لَنَا، أحدهما يقال له يسار، والآخر: جَبَر.

وقال الضَّحَّاكُ: عَثَوْا سلمان الفارسي^(٣).

وقال ابنُ عباس: [عَثَوْا] قَيْنًا بِمَكَّةَ اسمه بلعام^(٤).

أخرج ذلك ابن أبي حاتم.

ويُحْسَنُ: ضبطه الحافظ ابن جَبَر في «الإصابة» بياء تحتية^(٥)، وحاء

وسين مهملتين، يههما نون مشددة.

٧ - «إِنَّمَا مَنُوكُمُ» [الآية ١٠٦].

قال ابن عباس: نُزِلَتْ في عَمَارِ بن ياسر. أخرجه ابنُ جرير^(٦).

وقال ابن ميثرين: نزلت في عياش بن أبي ربيعة. أخرجه ابنُ أبي حاتم.

٨ - «ثُمَّ إِنَّكَ وَبِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ

هَاجِرُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ» [الآية ١١٠].

قال ابنُ إسحاق: نزلت في عَمَارِ بن ياسر، وَعَيَّاشِ بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد^(٧).

٩ - «فَرِيحَةً كَانَتْ مَائِدَةً

مُطَهَّاتَةً» [الآية ١١٢].

قُلْتُ حَفَصَةً أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ: هي المدينة، وكذا قال ابنُ شهاب. أخرج ذلك ابنُ أبي حاتم.

وقال ابنُ عباس: هي مَكَّة. أخرجه ابنُ جرير^(٨).

(١) في «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم ٢١٥ - سمدة. وليس فيه اسم زَيْطَةَ من ولدها والمثبت موافق لـ «الإصابة» ١٤٧/٢.

(٢) في «الأنساب» ١٤٧/٢: محسَنٌ.

(٣) قال ابن كثير في «تفسيره» ٥٨٦/٢ - فوهما القول ضعيف لأن هذه الآية مكية، وسلمان إنما أسلم بالمدينة.

(٤) إنسان ضعيف، كما في «الدر المنثور» ١٣١/٤.

(٥) مضمومة؛ كما في «تاج العروس» - «احسن».

(٦) ١٧٢/١٤.

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٧٤/١٤.

(٨) ١٦٥/١٤. وقال ابن كثير في «تفسيره» ٥٨٩/٢ إلى هذا القول.

لغة التنزيل في سورة «النحل» (٥)

بين المهموز والمضاعف والتاقص المعتل، وشائع في المعنى، وهذا الفعل يذكّرنا بالمواد ذرّ وما يتأتى من الثرية، واللداري وغير ذلك، كما يذكّرنا بالذرى والنزى ونحوه، وما يوادى بفلك من الزيادة والانتشار.

٣ - وقال تعالى: ﴿وَسَمَكَ الْفَلَكَ مُوَلِّجًا مَّوْجًا﴾ [الآية ١٤].

كنا قد بسطنا القول في الآية ٢٢ من سورة يونس، وعرضنا لمسألة الالتفات من الخطاب الى الغيبة.

ونريد في هذه الآية أن نعرض لمسألة الفلك، وأنها جمع بدلالة الصفة فتواخر، ولكننا نجد أن «الفلك» قد جاء دالاً على الأفراد في سورة الشعراء بدلالة الصفة أيضاً:

١ - وقال تعالى: ﴿وَنَحْنُ بِلَنَّا كَلِمَاتٍ﴾ [الآية ٢٧].

﴿يُنْفِى الْأَنْفُسَ﴾ أكثر الفراء على كسر الشين ومعناه: إلا بجهد الأنفس.

وقرأ أبو جعفر وجماعة: إلا يَنْفِى الأنفس.

وكان الشق وهو المَشَقَّة، بكسر الشين، اسم استحدث من المصدر، وهو الشق «بفتح الشين».

٢ - ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ حَبْلًا﴾ [الآية ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ﴾ أي: ما خلق لكم في الأرض، من حيوان وشجر ونئر وغير ذلك. أقول:

(٥) انظر هذا المبحث من كتاب «معجم لغة التنزيل»، لأبراهيم الساتري، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

﴿وَجَاءَ الْقَلْبُ نَظِيرَ السَّحَابِ﴾ فِي الْقَلْبِ
الشَّعْرُ (١٤٠).

وجاء ﴿الْقَلْبُ الشَّعْرُ﴾ فِي الْآيَةِ:
٤١ من سورة يس، كما جاء فِي الْآيَةِ
١٤٠ من سورة الصافات.

وهذا نظير «السحاب» فهو تارة جمع
بدلالة الصفة «الثقال»، كما بئنا فِي
الآيَةِ ١٢ من سورة الرعد، وهو أخرى
مفرد بدلالة الصفة «سُخْر»، كما فِي
الآيَةِ: ١٦٤ من سورة البقرة.

وهذا كله شيء من خصائص لغة
القرآن، التي ترسم لنا صفحات من
تاريخ هذه اللغة.

٤ - وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي الْأَرْضِ
يَقُولُكَ أَنْ تَبْدَ بِكُمْ﴾ (الآيَةِ ١١٥).

والمعنى: كراهة أَنْ تَبْدَ بِكُمْ
وتصطرب.

وحذف المصدر المنصوب، المبين
للعلة ضرب من الإيجاز البليغ، وهو
ظاهر فِي المعنى.

٥ - وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ
شَرَكُوا لَوْلَا إِلَهِكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ عَلَيْهِمْ﴾
(الآيَةِ ٢٧).

والمعنى: الذين كُنْتُمْ تُعَادُونَ
وتحاصمون المؤمنين فِي شأنهم.

وَقَرِئَ: تُشَاقِقُونَ، بِكسر الشين،
بمعنى تشاققوني.

وكنْتَ عرِضْتَ لِلآيَةِ: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (الأخلاق/١٣).

وأشرت إِلَى أَنَّ فَكَّ الإدغام غير
كثير، والكثير فِي هذا المصاعف هو
الإدغام، إِلَّا أَنَّ فَكَّهُ فِي الْآيَةِ كَانَ
بسبب صوتي.

وفي هذه الْآيَةِ التي نعرضها من
سورة التَّحَلُّ، جاء الفعل بالإدغام،
وليس من ضرورة تستدعي فَكَّ
الإدغام.

٦ - وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَمُنْ بِهِمْ ثُمَّ
كَانُوا يُدْخِلُونَ﴾ (١١٠).

أي: أحاط بهم العذاب، الذي هو
جزاء ما كانوا يستهزلون، كما نقول:
أحاط بفلان عمله وأهلكه.

والحقيق: ما حاق بالإنسان من مكرب
أو سوء عمل يمله، فينزل ذلك به.

أقول: والحقيق إحاطة مقيدة بالمكرب
والسوء، وليست مطلقة كما نقول فِي
«أحاط» مثلاً.

٧ - وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَبُوا
الَّذِينَ قَاتَلُوا﴾ (الآيَةِ ٣٦).

جاء «الطاغوت» في ثمان آيات، من سور مختلفة، والمعنى واحد.

من غير شك أن «الطاغوت» من «الطغيان» وهو الشر، والكفر، وتجاوز الحد في البغي.

غير أن «الطاغوت»، وإن تضمن هذه الدلالات فهو بناء خاص، وهو يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، وإن قيل: طواغيت.

وهو نظير زُعْبوت، وزَعَموت، وَجَسُوت، ولاهُوت، وناسوت، وملَكوت ونحو هذا.

وهو مصدر من المصادر القديمة، التي استفرغنا منها جملة من طريق السماع.

ولا أريد أن أقول إنها مقلوبة على قَلُوت، والأصل «طغبوت» كما ذهب أهل اللغة فليس ذلك بهم.

وقالوا: الطاغوت الشيطان.

وعندي أن هذا البناء الغريب القديم، يصح أن يتخذ في وضع المصطلح الجديد، وذلك أن أهل المصطلحات من العربيين، يلتصمون الأبنية الغريبة إذا ما جدت لهم حاجة لمصطلح جديد، ليكون الوزن الغريب معيلاً له خاصاً به.

٨ - وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَن مَّا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِهِ يَتَعَبَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِهِ لَكُمُ الْكُفْرُ وَالْإِيمَانُ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى دَعْوَتِهِ﴾.

وَقَرِئَ: أَو لَمْ يَرَوْا، وَيَنْفَعُوا بِالْبَاءِ وَالنَّاءِ.

والتَّغْيِيرُ: الظَّلُّ بِالشَّيْءِ، وَتَغْيِيرُ الظَّلَالِ: رَجُوعُهَا بَعْدَ انْتِصَافِ النَّهَارِ، وَابْتِعَاثُ الْأَشْيَاءِ بِجَلَالِهَا.

أقول: عرفنا أن الغي بالشئ، والظِّلُّ بالعُدَّة. وقد اتضح الفرق في العربية المعاصرة.

وداخلون أي: متصاغرون مُتَقَادُونَ، عَلَى أَنَّ الدُّخُورَ مِنْ صِفَاتِ الْعُقَلَاءِ.

٩ - وقال تعالى: ﴿يَذَكِّرُ لِلْإِنسَانِ قِيمَةَ قَبِيحَةٍ شَقِيقَةٍ يَوْمَ يُطَوَّلُ﴾. الآية [٦٦].

فكر سببويه الأتعام في باب ما لا ينصرف من الأسماء المفردة الواردة على أفعال، كقولهم: ثوب أكباش. وثبئة أستاذ، وثوب أنواف.

وقد تصحب أن يلوح سببويه «الأتعام» مع هذه الأسماء التي جاءت مفردة في استعمالهم، وأنت تقرأ قوله تعالى:

﴿وَالْأَنْفَعُ خَفَقَهَا لَكُمْ بِهَا وَفَتْةٌ وَمَنْفَعٌ وَسَيَا تَأْكُلُونَ﴾.

وإذا كان الصمير في قوله تعالى:
﴿بَنَّا فِي بَطْنٍ﴾، في الآية قد حملهم
على جعل «الانعام» مفردة، وإدراجها
مع ثوب أكباش، وحبّة أستاذ وغيرها،
فماذا يقولون في قوله تعالى:
﴿وَلَنْ لَّكَ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ مِّمَّا كُنْتُمْ تُشِيرُ وَنَا
فِي بَطْنٍ وَلَكِنْ فِيهَا مَنَاجِزٌ كَثِيرَةٌ وَهِيَ
تَأْكُلُونَ﴾ [الموسى]

١٠ - وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ
كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْتُونَ الْإِثْرَ
كَفَرُوا وَلَا هُمْ يَسْتَعِينُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَعِينُونَ﴾ أي:
يُشْتَرِضُونَ، أي: لا يقال لهم أُرْضُوا
ربكم، لأن الآخرة ليست بدار عمل.

١١ - وقال تعالى: ﴿وَأَلْفُوا بِإِلَهِ اللَّهِ
يَوْمَهِدِ السَّيْلَ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَعْتَقُونَ﴾.

الكلام على الذين كفروا، أي: أنهم
أَلْفُوا الاستسلام لأمر الله وحكمه، بعد
الإباء والاستكبار في الدنيا.

وهذا من معاني «السلام» مقتبدا بهذه
الآية، وهو نظير «الإسلام» بمعنى
الخنوع والابغاد والاستسلام.

١٢ - وقال تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِمُوا
كَافِيَ تَقَصَّتْ حَرْلَهَا مِنْ يَدَيْ قُوَّةٍ

أَصَكَّا نَجِلُونَ أَتَنْكُرُ مَعْلًا يَسْتَكْمُ﴾
[الآية ٩٢].

أي: ولا تكونوا في نقض الإيمان،
كالمرأة التي اتّخت على غرلها، بعد أن
أحكمته وأبزمته، فجعلته أنكاثا، أي:
ما يُنكث قتلُهُ، تتحلون الإيمان ذحلا
بينكم، أي: مفسدة وذغلا.

أقول: والدخل والدخل سواء.

١٣ - وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا
نَارَهُ مَكْثًا كَابٍ﴾ [الآية ١٠١].

أقول: واستعمال «مكان» في فعل
التبدل، ما زال معروفا حتى في العانية
الدارجة.

١٤ - وقال تعالى: ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا
قَرِيَةً حَكَتْ مَائِنَهُ مَطْمِيَةً بِأَيْبِهَا
يَذُقُّهَا رَعْدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكُفِّرَتْ
بِأَسْمِ اللَّهِ فَادْفَقَهَا اللَّهُ لِيَأْسَ الْجِرْعُ
وَالْحَرْقُ﴾ [الآية ١١٢].

أقول: وغرب الأمثال في القرآن
على هذا النحو، من تصوير حالة
يعرض فيها جملة أمور، ليأخذ منها
العباد عبرة لهم.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا حِكْمَةً حُسْنَةً
كَتَحَرَّرَ حُسْنَةً﴾ [إبراهيم/ ٢٤]

﴿وَمَنْ رَبُّ اللَّهِ مِثْلًا نَدِينُ لَدَعْنَا﴾
 أَهْلَكُمْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴿الْأَنفُ﴾
 .[١٧٦]

وقوله تعالى في الآية ١١٢: ﴿وَأَنْصِرْ﴾
 أَنْتُمْ الْأَنْصِمُ جمع نعمة على ترك
 الاعتداد بالثناء كبرغ وأفرع، أو جمع
 نعم جُؤس وأبؤس.
 ١٥ - وقال تعالى:

﴿إِنْ يَنْزِلهَا كَانَتْ أَهْلُ قَبَائِلَ يَلِي﴾
 حَيْفًا ﴿الْأَنفُ﴾ [١٢٠].

قوله تعالى: ﴿كَانَتْ أَهْلُ﴾ فيه
 وجهان: أحدهما أنه كان وحده أمة من
 الأمم، لكمالها في جميع صفات
 الخير.

والثاني: أن يكون أمة بمعنى مأموم،
 أي: يؤمنه الناس ليأخذوا منه الخير، أو
 بمعنى مؤتم به كالزخلة والشخبة، وما
 أشبه ذلك مما جاء من لفظة بمعنى
 مفعول.



المعاني اللغوية في سورة «النمل» (٥)

«ماذا» بمتزلة «ما» وحدها.
وقال تعالى: ﴿أَتُورَثُ غَيْرَ أَهْلِكَ؟﴾
[النمل ٢٦] على التوكيد^(١).
وقال سبحانه: ﴿إِنْ تَحْسَبْ﴾ [النمل ١١]
[٣٢] لأنها من «حَرَضَ» «يَحْرِضُ».
وإذا وَقَفْتَ على ﴿يَنْتَقِظُوا﴾ [النمل ٤٨]
قُلْتَ «يَنْتَقِظُ»، كما تقول بالعين «تَنْتَفِعُ»
جزماً، وإن شئت أشتبتها الرفع،
ورمت، كما تفعل ذلك في هذا
خبراً.
وقال تعالى: ﴿عَنِ الْيَسِيرِ وَالْعَسِيرِ﴾
سَجْدًا لِلَّهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿١٥﴾ فذكر، وهم

قال تعالى: ﴿زُلْفَى وَالْأَمَلِ وَالْحَيْرِ
لِرَبِّكَ بَرًّا وَزِينَةً﴾ [النمل ٨] بالنصب.
أي: وَجَمَلَ اللَّهُ الْخَيْلَ وَالْبَهَائِ وَالْحَمِيرَ
زِينَةً..

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَعْلُ﴾ [النمل ١١]
[٩] أي: ومن السبل لأنها مؤنثة في لغة
العجاز^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَا دَرَأَ لَكُمْ فِي
الْأَرْضِ حَبْلًا أَوْ مِثْلَهُ﴾ [النمل ١٣] أي:
خَلَقَ لَكُمْ وَبَثَّ لَكُمْ^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِلَّذِينَ آمَنُوا مَادًّا
أَرْسَلْنَاكُمْ قَالُوا سَبْرًا﴾ [النمل ٣٠] فكانت

(٥) انتهى هذا المبحث من كتاب المعاني للقرآن للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة
العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ.

(١) أنظر المذكر والمؤنث ٨٧، وكتاب التذكير والتثنية ١٦، والمذكر والمؤنث للمبرد ١٥، وأقعة في الفرق بين
المذكر والمؤنث ٦٧، وأقحواش العربية ٥٠٢.

(٢) نقله في إعراب القرآن ٦/٢٠٦.

(٣) نقله في زاد المسير ٤/١٣٧.

غير الإنس، لأنه لما وصفهم سبحانه بالطاعة أشبهوا ما يعقل^(١)، وجعل اليمين للجماعة مثل ﴿وَرَوَّيُونَ كَثِيرًا﴾ [الفر/٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ ذَاكُنْ﴾ [الأنبياء/٢٤] يريد: من الدواب، واجتزأ بالواحد، كما تقول: «ما أثنائي من رجل» أي: ما أثنائي من الرجال مثله.

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَكْمُنُ فِي كُفْرِنِ اللَّهِ شَيْءٌ﴾ [الأنبياء/٥٣] لأن «ما» بمنزلة «قن»، فجعل الخبر بالفاء.

وقال تعالى: ﴿يَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ [الأنبياء/٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّجِيلِ وَالْأَعْنَبِ تَنَجَّدُونَ مِنْهُ سَكْرًا وَبَيِّنًا حَسًّا﴾ [الأنبياء/٦٧] ولم يقل «منها» لأن السياق أضمر «الشيء» كأنه «ومنها شيء تنجّدون منه سكرًا»^(٢).

وقال تعالى: ﴿يَلْ أَكْتَلْ أَنْ يَكْفِي﴾ [الأنبياء/٦٨] على التانيث في لغة أهل

الحجاز. وغيرهم يقول «قَوَّ السَّحْل» وكذلك كل جمع ليس بينه وبين واحد إلا الهاء، نحو «البُر» و«الشَّعِير» هو في لغتهم مؤنث^(٣).

وقال تعالى: ﴿ذُلًّا﴾ [الأنبياء/٦٩] وواحد «الذُّلُول» وجماعة «الذُّلُول» «الذُّلُّ».

وقال تعالى: ﴿بَيْنَ وَفَقْدَةٍ﴾ [الأنبياء/٧٧] وواحد «الحائِث».

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَيِّتُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ [الأنبياء/٧٦] لأن «أينما» من تحروف المجازاة.

وقال تعالى: ﴿وَيَذَايَنَ الْأَشْرَارِ﴾ [الأنبياء/٧٣] بجعل «الشيء» بدلًا من «الرزق»، وهو في معنى «لا يملكون رزقًا قليلًا ولا كثيرًا»^(٤). وقال بعضهم: «الرَّزْقُ فعل يقع بالشيء» يريد: «لا يملكون أن يرزقوا شيئًا».

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفِرًا يَهْدِي اللَّهُ﴾ [الأنبياء/٩١] تقول: «أوفيت بالعهْد»

(١) نقله في زاد المسير ٤/٤٥٣.

(٢) نقله في زاد المسير ٤/٤٦٤.

(٣) العنقر والمؤنث ٨٥، واللمعة في الفرق بين المذكر والمؤنث ٦٧، واللهجات العربية ١-٥٠.

(٤) نقله في المجموع ١٠/١٤٦.

وَوَقَّيْتُ بِالْمَعْدَةِ فَإِنَّا قُلْتُ «الْمَعْدَةُ» قُلْتُ
«أَوْقَيْتُ الْمَعْدَةَ» بِالْأَلْفِ^(١).

وقال تعالى: ﴿أَمْسِكْهُمْ﴾ [الْأَيَةُ ٩٢]
وواحدُها «الْمَكْتُ».

قوله سبحانه: ﴿فَعَلَيْهِمْ قَسَبٌ مِّنَ
أَقْوَمٍ﴾ [الْأَيَةُ ١٠٦] حبر لقوله تعالى
﴿وَلَذِكْرُ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ ثُمَّ
دخل معه قوله سبحانه ﴿مَنْ كَفَرَ
بِأَقْوَمٍ مِّنْ مَّتَدٍ لِّمَنِيهِ إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ
وَقَلِيلُهُ مَقْطُوعٌ بِالْإِسْنِ﴾ فَأَخْبَرَ عَنْهُمْ
بغير واحد، إذ كان ذلك يدل على
المعنى^(٢).

وقال تعالى: ﴿مِنْ الْجِبَالِ
أَسْمَكُكُمْ﴾ [الْأَيَةُ ٨١] وواحد:
«الْكِنْ».

وقال جبل شأنه: ﴿سَعَلَ مَوْنٌ

تَجَرَدَ عَنْ قَيْسِهِ﴾ [الْأَيَةُ ١١١] ومعنى كل
نفس: كل إنسان، وورد التأنيث لأن
النفس تُوثِّث وتذكر. يقال «ما جاءني
نفس واحدة» وما جاءني نفس واحدة.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا يُعْصَفُ
أَلَيْسَ لَكُمْ الْكَوْبُ هَذَا كَذَلِكُ﴾ [الْأَيَةُ ١١٦]
بجعل ﴿لِمَا يُعْصَفُ أَلَيْسَ لَكُمْ﴾ اسماً
للفعل، كأن السباق «وَلَا تَقُولُوا لِيُوضَفِ
أَلَيْسَ لَكُمْ الْكَوْبُ هَذَا كَذَلِكُ» [الْأَيَةُ
١١٦].

وقال تعالى: ﴿شَاحِوِكْرًا لِأَنْصِيَّةٍ﴾ [الْأَيَةُ
١٢١] وقال سبحانه ﴿فَسَكَّرْتُ بِأَلْمَمِ
لَقَوْمٍ﴾ [الْأَيَةُ ١١٢] بجمع «الْأَنْصِيَّةِ» على
«أَلْمَمٍ» كما قال جبل شأنه: ﴿حَرَّ إِنَّا
بَعْدَ أَشْتَرٍ﴾ [الأحذاف/١٥] فزعموا أنه
جَمَعَ «الْبَيْتَةَ».

(١) بقصد الهرة على عادة الأقدمين، من عدم تمييز إحداهما من الأخرى.

(٢) نقله في الجمع ١٨٠/١٠ بملحة مطبوعة ولقد في الكشف ١٣٦/٢.



مرکز تحقیقات کتب و تراث علوم اسلامی

لكل سؤال جواب في سورة «النحل» (*)

به لم تكونوا بالغيه بدونها إلا بشئ
الأنفس، فهم لا يبلغونه عليها أيضاً إلا
بشق الأنفس، فما الحكمة في ذلك؟

قلنا: معناه وتحمل أفعالكم: أي
أجسامكم وأمتنكم معكم إلى بلد بعيد
قد علمتم أنكم لا تبلغونه بدونها،
بأنفسكم من غير أمتنكم إلا بهجد
ومشقة. فكيف لو حملتم أمتنكم على
ظهوركم؟ والمراد بالمشقة: المشقة
التي تنشأ من المشي، أو من المشي مع
الحمل على الظهر لا مطلق مشقة
السفر، وهذا مخصوص بحال فقد
الإبل، فظهرت الحكمة من ذلك.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَلَّيْنَا لِبَنِي إِدْرِيسَ الْأَخْيَرِ لِرَفْعَتِهِمْ﴾ الآية ٧، إن
أريد به: لم تكونوا بالغيه عليها إلا
بشق الأنفس، فلا امتنان فيه؟ وإن أريد

إن قيل: لم قلنبت الإراحة، وهي
مؤخرة في الواقع، على السروح، وهو
مقدم في الواقع، في قوله تعالى:
﴿يَبْكُ تَرْثُونَ وَيَبْكُ تَرْثُونَ﴾.

قلنا: لأن الأنعام، في وقت
الإراحة، وهي ردها عشياً إلى المراح،
تكون أجمل وأحسن، لأنها تقبل ملأى
البطون، حاملة الضروع، متهادية في
مشيها، يتبع بعضها بعضاً، بخلاف
وقت السروح، وهو إخراجها إلى
المرعى، فإن هذه الأمور كلها تكون
على ضد ذلك.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرُوا
بِإِبْرَاهِيمَ إِذْ يَسْتَدِينُ الْأَخْيَرِ﴾ الآية ٧، إن
أريد به: لم تكونوا بالغيه عليها إلا
بشق الأنفس، فلا امتنان فيه؟ وإن أريد

(*) انتهى هذا المبحث من كتاب «أسئلة الفرق المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر البرزقي، مكتبة الثاني العلمي،
القاهرة، غير مؤرخ.

اقتضاء في البعال والحمير، من حيث أنه لم ينص على منفعة أخرى فيها، غير الركوب والزينة، ومن حيث أن التعليل بعلة يقتضي الانحصار فيها كقولك: فعلت هذا لكذا، فإنه ينافسه أن تكون فعلته لغيره، أوله مع غيره، إلا إذا كان أحدهما جهة في الآخر.

قلنا: ينتقض بالحمل عليها والحرارة بها، فإن ذلك مباح مع أنه لم ينص عليه.

فإن قيل: إنما ثبت ذلك بالقياس على الأنعام، فإنه منصوص عليه بقوله تعالى ﴿وَالْأَنْعَمَ حَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا نَفْعٌ وَذُرِّيَّاتُهَا﴾ [الأية ٥]، والمراد به كل منفعة، معهودة منها عرفاً، لا كل منفعة. فثبت مثل ذلك في الخيل والبقال والحمير.

قلنا: لو كان ثبوته فيها بالقياس على الأنعام، لثبت حل الأكل في الخيل بالقياس على ثبوته في الأنعام أيضاً، ولو ثبت حل الأكل في الخيل بالقياس، لثبت في البغال والحمير، كما ثبت الحمل والحرارة ثبوتاً شاملاً لكل بالقياس على ثبوته في الأنعام. والجواب عن الجهة الثانية في أصل السؤال، أن هذه اللام ليست لام

التعليل، بل لام التمكين، كقوله تعالى ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْإِنْسَانَ خَلْقًا بَرًّا لَكُمْ﴾ [الدوسر/ ٦٧، غافر/ ٦١] ومع هذا يجوز في الليل غير السكون.

فإن قيل: لم قال الله تعالى في وصف ماء السماء ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ﴾ [الأية ١١] ولم يسبق كل الثمرات، مع أن كل الثمرات تنبت بماء السماء؟

قلنا: كل الثمرات لا تكون إلا في الجنة، وإنما ينبت في الدنيا بعض منها أنموذجاً وتذكيراً، فالتبعية بهذا الاعتبار، فيكون المراد بالثمرات ما هو أهم من ثمرات الدنيا، ومن يجوز زيادة «من» في الإثبات يحتمل أن يجعلها زائدة هنا.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ خُلُقًا نَبَاتًا﴾ [الأية ١٧]، المراد بمن لا يخلق الأصنام، بدليل قوله تعالى بحمد: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، فكيف جيء بمن المختصة بأولي العلم والعقل؟

قلنا: خاطبهم على معتددهم، لأنهم سمعوا كلمة وعبدوها، فأجروها مجرى

أولي العلم، ونظير هذا قوله تعالى في الأصنام أيضاً: ﴿أَلَهُمْ أَزْجُلُ يَتَّبِعُونَ﴾ [الأنعام/ ١٦٥]، فأجرى عليهم ضمير أولي العلم والعقل لما قلناه، ويرد على هذا الجواب أن يقال: إذا كان معتقدتهم خطأ وباطلاً، فالحكمة تقتضي أن ينزعوا عنه ويقلموا، لا أن يبقوا عليه ويُقرَّوا في خطابهم على معتقدتهم لإيهاماً لهم أنَّ معتقدتهم حقَّ وصواب، وجوابه: أن الغرض من الخطاب الإيهام، ولو خاطبهم على خلاف معتقدتهم ومفهومهم فقال: أئمن يخلق كما لا يخلق، لاعتقدوا أنَّ المراد من الثاني غير الأصنام، من الجماد، الثاني: قال ابن التبريزي: إنما جاز ذلك، لأنها ذكرت مع الجاهل، فغلب عليها حكمه في اقتضاء «من»، كما في قول العرب: اشبه عليَّ الراكب، وَجَمَلُهُ: فما أدري من ذا، ومن ذا.

فإن قيل: هذا إلزام للذين عبدوا الأصنام، وسمَّوها آلهة تشبيهاً بالله، فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق، فظاهر الإلزام يقتضي أن يقال لهم: أئمن لا يخلق كمن يخلق؟

قلنا: لما سَوَّوا بين الأصنام وخالقها

صباحاته وتعالى، في تسميتها باسمه، وعبادتها كعبادته، فقد سَوَّوا بينها وبين خالقها قطعاً، فصَحَّ الإنكار بتقديم أيهما كان؛ وإنما قدم في الإنكار عليهم ذكر الخالق، إنما لأنه أشرف، أو لأنه هو المقصود الأصلي من هذا الكلام، تنزيهاً له وإجلالاً وتعظيماً.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى في وصف الأصنام ﴿غَيْرَ لَمِيْلُو﴾ (الآية ٢١) بعد قوله تعالى: ﴿أَنزَلَتْ﴾؟

قلنا: الحكمة فيه، إفادته أنها أموات لا يعقب موتها حياة، احترازاً عن أموات يعقب موتها حياة، كالشطف والبيض والأجساد الميتة، وذلك أبلغ في موتها، كَأَنَّ الكلام: أموات في الحال غير أحياء في المال. الثاني: أنه ليس وصفاً لها بل لعبادها، معناه: وعبادها غير أحياء القلوب. الثالث: أنه إنما قال ﴿غَيْرَ لَمِيْلُو﴾ ليعلم أنه أراد أمواتاً في الحال، لا أنها ستموت كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَهُمْ مَّيْمُونٌ﴾ [الزمر].

فإن قيل: لِمَ عاب الأصنام وعبادها بأنهم لا يعلمون وقت البعث، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ

يَعْتَبَرُونَ ﴿١٣﴾ والمؤمنون الموحدون كذلك؟

قلنا: معناه وما يشعر الأصنام متى يبعث عباده، فكيف تكون آلهة مع الجهل؟ أو معناه: وما يشعر عباده، وقت بعثهم لا مفضلًا ولا مجمالًا، لأنهم ينكرون البعث، بخلاف الموحدين فإنهم يشعرون وقت بعثهم مجمالًا، أنه يوم القيامة، وإن لم يشعروه مفضلًا..

فإن قيل: قوله تعالى ﴿وَلَمَّا قِيلَ لَهُمْ تَنَاوَلُوا آثَرَكُمْ وَارْكَبُوا الْاَوَّلِينَ﴾ كيف يعترفون بأنه من عند الله تعالى، بالسؤال الجعد ضمن الجواب، ثم يقولون هو أساطير الأولين.

قلنا: قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه في سورة الجن في قوله تعالى ﴿وَقَالُوا إِنَّمَا آثَرُ الْاَوَّلِينَ شَرُّ عَلَيْهِمْ اَلَّذِينَ اُولَئِكَ لَعْنَةُ الْجَنَّةِ﴾ [الجن].

فإن قيل: لم قيل هنا ﴿يَحْتَسِبُوا اَوْرَثَهُمْ كَالِاِثْمَةِ يَوْمِ النَّارِ﴾ ومن أوزار الذين يؤمنونهم بغير علم؟ [البقرة ٢٥] وقال في موضع آخر: ﴿وَلَا يُؤْذِرُهُمْ وَرَدُّ الْوَرْدِ﴾ [الأنعام ١٦٤]؟

قلنا: معناه ومن أوزار إضلال الذين يضلونهم، فيكون عليهم وزر كفرهم مباشرة، ووزر كفر من أصلهم نسبتًا، فبقوله تعالى: ﴿يَحْتَسِبُوا اَوْرَثَهُمْ كَالِاِثْمَةِ﴾ يعني أوزار الذنوب التي باشروها. وأما قوله تعالى ﴿وَلَا يُؤْذِرُهُمْ وَرَدُّ الْوَرْدِ﴾، فمعناه: وزر لا مدخل لها فيه، ولا تعلق له بها مباشرة، ولا تسببًا، ونظير هاتين الآيتين قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْاَوَّلِينَ صَعَرُوا بِالَّذِينَ عَاتَوْا الْاِثْمَ سَبَلَنَا وَلَتَعْلَمُنَّ عُنَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [العنكبوت ١٧] إلى قوله تعالى ﴿وَتَقَالَا مَعَ اَتْقَالِهِمْ﴾ [المكوت ١٣].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾ [البقرة ٢١٠] يدل على أن المعدوم شيء، ويدل على أن خطاب المعدوم جائز؛ والأول مُنتفب عند أكثر العلماء، والثاني منتف بالاجماع؟

قلنا: أما تسميته شيئًا، فمجاز باعتبار ما يؤول إليه، ونظيره قوله تعالى ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾ [البقرة ٢١٠] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مِثْقَلُ ذَرَّةٍ مِّنْهُم مِّنْ شَيْءٍ﴾ [الفرسان]. وأما الثاني فإن هذا الخطاب تكويني، يظهر به أثر القدرة،

فيمتنع أن يكون المخاطب به موجوداً قبل الخطاب؛ لأنه إنما يكون بالخطاب، فلا يسبقه، بخلاف خطاب الأمر والنهي.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَقَدْ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ ذَلِكُمْ﴾ [الأنعام/١٤٩] كيف لم يغلب العقلاء من الدواب على غيرهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نَارٍ نَبِيضٍ مِّنْ نَّارٍ وَمِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [التين/١-٢]؟
 [١٥].

قلنا: لأنه أراد عموم كل دابة وشمولها، فجاء بـ «ما» التي تضمن النورين وتشمّلهما، ولو جاء بـ «من» لخص العقلاء.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَقَدْ يَسْجُدُ اللَّهُ الْإِنْسَانَ بِطَائِفِهِ مَا رَفَعْنَا عَنْكَ إِنِ كُنْتَ مِنْ ذَلِكُمْ الْغَافِلِينَ﴾ [الأنعام/٦١] يقتضي أنه لو أخذ الظالمين بظلمهم لأهلك غير الظالمين من الناس، ولأهلك جميع الدواب غير الناس، ومؤاخذه البريء بسبب ظلم الظالم، لا يَحْسُنُ بالحكيم؟

قلنا: المراد بالظلم هنا الكفر، وبالذاتة الظالمة الكافر، كذا قاله ابن عباس رضي الله عنهما. وقيل معناه:

لو أهلك الآباء بكفرهم لم يكن الأبناء. الثاني: يجوز أن يهلك الجميع بشؤم ظلم الظالمين، مبالغة في إعدام الظلم ونفي وجود أثره، حتى لا يوجد بعد ذلك من بقية الناس ظلم موجب للإهلاك، كما وجد من الذين أهلكهم بظلمهم؛ ودليل جواز ذلك ما وجد في زمن نوح عليه السلام، فإنه أهلك بشؤم الظلم الواقع على قوم نوح جميع دواب الأرض، وما نجى إلا من في السفينة، ولم يبق على ظهر الأرض دابة، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَنذَرْنَا لَا نُفِيسَ الْآلِينَ عَلَيْنَا يَوْمَ كُنَّا لَا نَلْمُذُنَّ﴾ [الأنعام/٢٥] ثم إذا فعل ذلك للحكمة والمصلحة التي اقتضت فعله، مؤخر البريء في الآخرة ما هو خير وأبقى. الثالث أن كل إنسان مكلف، فهو ظالم إما لنفسه أو لغيره، لأنه لا يخلو عن ذنب صغير أو كبير، فلو أهلك الناس بذنوبهم لأهلك الدواب أيضاً، لأنه إنما خلق الدواب لمصالح الناس، وإذا غلب الناس وقع استغاثهم من الدواب كلها.

فإن قيل: لم قال تعالى ﴿وَيَنْبَغِي لِلنَّاسِ أَنْ يَعْلَمُوا﴾ [الأنعام/٦٨] ولم يقل في الجبال وفي الشجر، والاستعمال هو

قلنا ليس في «يستطيعونه» ضمير مفعول هو الرزق، بل الاستطاعة منفية عنهم مطلقاً، معناه لا يملكون أن يرزقوا، ولا استطاعة لهم أصلاً في رزق أو غيره، لأنهم جماد. الثاني: أنه لو قُدر فيه ضمير مفعول على معنى ولا يستطيعونه، كان مفيداً أيضاً، على اعتبار كون الرزق اسماً للعين، لأن الإنسان يجوز أن يملك الشيء، ولكن يستطيع أن يملكه، بخلاف هؤلاء، فإنهم لا يملكون، ولا يستطيعون أن يملكون.

فإن قيل: ما الحكمة في قول تعالى ﴿سَلُوا﴾ الآية ٧٥ بعد قوله تعالى: ﴿عَبُدُوا﴾ وما الحكمة في قوله سبحانه ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ بعد قوله تعالى ﴿سَلُوا﴾؟

قلنا: لفظ العبد يصلح للحر والمملوك، لأن الكل عبيد الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَوَيْتَ لِبَنَاتِهِ لَبَنَاتُهُنَّ بِسْمِ اللَّهِ قَدَرًا مَكِينًا﴾ [ص: ٣٠] فقال «مملوكاً» لنميزه من الحر، وقال ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ لتمييزه من المأذون والمكاتب، فإنهما يقدران على التصرف والاستقلال.

فإن قيل: المضروب به المثل اثنان،

وهما المملوك والمرزوق رزقاً حسناً، فظاهره أن يقال هل يستويان، فليَمَّ قال تعالى: ﴿يَسْتَوُونَ﴾ الآية ٧٥؟

قلنا: لأنه أراد جنس المماليك وجنس المالكيين، لا مملوكاً ولا مالكاً معيّنًا. الثاني: أنه أجرى الاثنين مجرى الجمع. الثالث: أن «مَرَّ» تقع على الجمع، ولقائل أن يقول على الوجه الثالث: يلزم منه أن يصير المعنى: ضَرَبَ الله مثلاً عبداً مملوكاً، وجماعة مالكيين هل يستويون، إنه لا يحسن مقابلة الفرد بالجمع في التمثيل.

فإن قيل: «أو» في الخبر للشك، والشك على الله تعالى محال، فما معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَنُحُوسٍ يُفَسِّرُونَ﴾ الآية ٧٧؟

قلنا: قيل «أو» هنا بمعنى «بل» كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ يَأْتِيَنَّكَ السَّاعَةُ﴾ [الأنعام: ١٥] وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ كَالْجِبَالِ تَوَالٍ أَوْ كَالْعَصَا تَنَزَّلُ﴾ [البقرة: ٧٤] وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ كَالنَّجْمِ تَنَزَّلُ﴾ [النجم: ١٥] ويرد على هذا أن «بل» للإضراب، والإضراب رجوع عن الإخبار، وهو على الله محال. وقيل هي بمعنى الواو في هذه الآيات. وقيل «أو» للشك في الكل،

لكن بالنسبة إلينا لا إلى الله تعالى، وكذا في قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ قَالَ قُوسَيْي لَأُؤْتَيْنَا﴾ يعني بالنسبة إلى نظر النبسي (ص). وقال الزجاج: ليس المراد، أن الساعة تأتي في أقرب من لمح البصر، ولكن المراد، وصف قدرة الله على سرعة الإتيان بها، متى شاء.

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿سَرَّيْلَ تَقِيْعُكُمْ الْحَرْ﴾ [الأية ٨١]، ولم يقل: والبرد؟ مع أن السرايل، هي الثياب تلبس لدفع الحر والبرد، وهي مخلوقة لهما؟

قلنا: حذف ذكر أحدهما للدلالة على الآخر، كما في قوله تعالى: ﴿يَكُونُ الْخَيْرُ﴾ [إبراهيم ٢٦] ولم يقل: والشر، وكما قال الشاعر:

وَمَا أَدْرِي إِذَا بَسَمْتُ لَزُفَاً

أريد الخير أيتها يميني
أي أريد الخير لا الشر، أو أريد
الخير وأحذر الشر.

فإن قيل: لم كان ذكر الخير والحرز أولى من ذكر الشر والبرد؟

قلنا: لأن الخير مطلوب العباد من ربهم، ومرغوبهم إليه؛ أو لأنه أكثر

وجوداً في العالم من الشر؛ وأما الحرز فلأن الخطاب بالقرآن، أول ما وقع مع أهل الحجاز، والوقاية من الحر، أهم عندهم، لأن الحر في بلادهم أشد من البرد.

فإن قيل: لم قال الله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ النَّاسِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مع أنهم كلهم كافرون؟

قلنا: قال الزمخشري: الأحسن، أن المراد بالأكثر هنا الجمع، وفي هذا نظراً لأن بعض الناس لا يجوز إطلاق اسم البعض على الكل، لأنه ليس لازماً له، بخلاف عكسه.

فإن قيل: ما فائدة قول المشركين عند رؤية الأصنام كما ورد في التنزيل: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ [الأية ١٨٦] والله تعالى عالم بذلك؟

قلنا: لما أنكروا الشرك بقولهم كما ورد في التنزيل: ﴿رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام] عاقبهم الله تعالى بإصمات ألسنتهم وأنطق جوارحهم، فكان جوابهم عند معاينة آلهتهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا﴾ [الأية ١٨٦] أي قد أقررتنا بعد الإنكار وصدقنا بعد الكذب، طلباً للرحمة وفراراً من

الغضب، فكان هذا القول على وجه الاعتراف منهم بالذنب، لا على وجه إعلام من لا يعلم. الثاني: أنهم لما عابوا عظيم غضب الله تعالى، وعقوبته قالوا كما ورد في التنزيل: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا﴾ رجاء أن يلزم الله الأصنام ذنوبهم، لأنهم كانوا يعتقدون لها العقل والتمييز، فيخف عنهم العذاب.

لإن قيل: لم قالت الأصنام للمشركين كما ورد في التنزيل: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾، وكانوا صادقين في ما قالوا؟

قلنا: إنما قالت لهم ذلك لإظهار فضيحتهم، وذلك أن الأصنام كانت جماداً لا تعرف من عبيدها، فلم تعلم أنهم عبدوها في الدنيا، فظهرت فضيحتهم حيث عبدوا من لا يعلم بعبادتهم، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً يَكُونُوا لَهُمْ عِبَادٌ﴾ ﴿كَلَّا سَبَّحُوا بُرُوجَهُمْ وَيَسْتَغِيثُونَ عَلَيْهِمْ ذُبَابٌ﴾ [مرم].

فإن قيل: قوله تعالى ﴿وَرَبَّنَا عَلَيْنَا الْكِتَابُ﴾ يعني لكل قوم، [الآية ٨٩]، فإذا كان القرآن يبيناً لكل شيء من أمور الدين، فمن أين وقع بين الأئمة

في أحكام الشريعة هذا الخلاف الطويل المريض؟

قلنا: إنما وقع الخلاف بين الأئمة، لأن كل شيء يحتاج إليه من أمور الدين ليس مبيّناً في القرآن نصاً، بل بعضه مبين وبعضه مستنبط ببيانه منه بالنظر والاستدلال، وطريق النظر والاستدلال مختلفة، فلذلك وقع الخلاف.

فإن قيل: كثير من أحكام الشريعة لم تعلم من القرآن نصاً ولا استنباطاً كعدد ركعات الصلاة، ومقادير باقي الأضحية، ومدة السفر والمسح والحيفض، ومقدار حد الشرب، ونصاب السرقة، وما أشبه ذلك مما يطول ذكره.

قلنا: القرآن تبيان لكل شيء من أمور الدين، لأنه نص على بعضها، وأحال على السنة في بعضها، في قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر/٥] وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَاقِ عَنِ الْمَوْتِ﴾ وأحال على الإجماع أيضاً بقوله تعالى: ﴿وَتَشِيعَ فِي سَبِيلِ الْغُثَيَيْنِ﴾ [النساء/١١٥]، وأحال على القياس أيضاً بقوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا بِأَقْلَابِهِمُ الْأَصْنَمَ﴾

[الحشر]، والاعتبار النظر والاستدلال. فهذه أربعة طرق لا يخرج شيء من أحكام الشريعة عنها، وكلها مذكورة في القرآن، فصَحَّ كونه تبياناً لكل شيء.

فإن قيل: لِمَ وُحِدَتِ الْقَدَمُ، وَتُكْرِتُ، في قوله تعالى ﴿فَتَرَى قَدَمًا مَّذْنُورَةً﴾ [الأنعام/٩١] ولم يقل القدم أو الأقدام، وهو أشدُّ مناسبة لجميع الأيمان؟

قلنا: وُحِدَتِ وَتُكْرِتُ في قوله تعالى، لاستعظام أن تُزِلَّ قَدَمٌ واحدة على طريق الجنة، فكيف بأقدام كثيرة؟

فإن قيل: «مَنْ» تتناول الذكر والأنثى لغة، ويؤيده قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَهُ يَسْعَى﴾ [الأنعام/١٦٠] وقوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ جَاءُوا الْبَيْتَ مِنْ كُتُوبٍ أَلَيْسَ لِيُؤْتُوا سَبِيلًا﴾ [آل عمران/٩٧] وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَسْمَلْ يُسْكَالَ ذَرُّهُ حَبْرًا بِسَرِّهِ﴾ [الزمر/٦٤] وقوله تعالى ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ أَنْتَاهُ فَلْيَشْهَدْ﴾ [البقرة/١٨٥] ونظائره كثيرة، فَلِمَ قال تعالى هنا: ﴿مَنْ عَمِلَ سَلَمًا رِجًا دَعَا إِلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنعام/٩٧]؟

قلنا: إنما صرح بذكر النوعين هنا، لسبب اقتضى ذلك؛ وهو أن النساء قلن: «ذكر الله تعالى الرجال في القرآن

بخير، ولم يذكر النساء بخير، فلو كان فينا خير لَذَكَّرْنَا بِهِ». فأمر الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هُمْ وَآلُفُّوا بِهِمْ﴾ [الأحزاب/٣٥] الآية، وأمره ﴿مَنْ عَمِلَ سَلَمًا رِجًا دَعَا إِلَى سَوَاءٍ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الأنعام/٩٧] فلعب عن النساء وَهُنَّ تحصيبنهن من العمويين.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿فَلْيَهْبِئْهُنَّ حِيَّوًا طَيِّبَةً﴾ [الأنعام/٩٧] وقد رأينا كثيراً من الصالحات والأتقياء، قطعوا أعمارهم في المصائب والمحن وأنواع البلاء، باعتبار الأمل، فالأمل، إلى الأنبياء؟

قلنا: المراد بالحياة الطيبة الحياة في الفناة. وقيل في الرزق الحلال. وقيل في كسبه يوم بيوم. وقيل التوفيق للطاعات. وقيل في حلالة الطاعات. وقيل في الرضا بالقضاء. وقيل المراد به الحياة في الغير، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْغُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْهُمْ لَنْ يَحْصِلُوا إِلَيْكَ إِنَّهُمْ لَرَجُلٌ بِأَعْيُنِنَا﴾ [آل عمران/١٥٧] الآية، وقيل المراد به الحياة في الدار الآخرة، وهي الحياة الحقيقية، لأنها حياة لا موت بعدها، دائمة في النعيم المقيم، والظاهر أن المراد به الحياة في الدنيا، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة/١٨٥] الآية.

الْأَنفِ وَالْأُذُنِ» [السجدة/ ١٣٤] كما قال تعالى: ﴿فَاتَّخَذُوا اللَّهَ لَوَاكِبًا أَتَدْرِكُونَ لَوَاكِبَ الْآيَةِ﴾ [إد عمران/ ١٤٨].

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة/ ٢٦] وكثير من الصحابة وغيرهم، كانوا كافرين فهداهم الله تعالى إلى الإيمان؟

قلنا: المراد من هذا، الكافرون، الذين علم الله تعالى أنهم يموتون على الكفر؛ ويُرَدُّ ما بعد ذلك من الآيتين.

فإن قيل: ما معنى إضافة النفس إلى النفس في قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَأْتِي سَحَابٌ مِّنْ نُفُوسٍ مُّشْتَرِكَةٍ﴾ [الأنبياء/ ١١١] والنفس ليس لها نفس أخرى؟

قلنا: النفس اسم للروح وللجوهر القائم بذاته، المتعلق بالجسم تعلق التدبير. وقيل هي اسم لجملة الإنسان، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [إد عمران/ ١٨٥] وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا عَالَمِينَ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ الْبَاطِنَةَ﴾ [المائدة/ ٤٥]. والنفس أيضاً اسم لمعين الشيء وفاته، كما يقال نفس الذهب والفضة محبوبة: أي عيها وفاتها، فالمراد بالنفس الأولى الإنسان، وبالثانية ذاته، فكانه يوم يأتي كل إنسان يجادل عن

نفسه: أي ذاته لا يهتم شأن غيره، كل يقول نفسي نفسي، فاحتلف معنى النفسين.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿فَأَذَانُهَا لَكُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [الأنبياء/ ١١٢] والإذاعة لا تناسب اللباس، وإنما تناسب الكسوة؟

قلنا: الإذاعة تناسب المستعار له وهو الجوع، من حيث أنَّ الجوع يفتضي الأكل فيفتضي الذوق؛ وإن كانت لا تناسب المستعار وهو اللباس؛ والكسوة تناسب المستعار وهو اللباس، ولا يناسب المستعار له وهو الجوع؛ وكلاهما من دقائق علم البيان، يسمى الأول تجريد الاستعارة، والثاني ترشيح الاستعارة؛ فجاء القرآن العزيز في هذه الآية بتجريد الاستعارة، وقد ذكرنا تمام هذا في كتابنا «دروس الفصاحة»، ولباس الجوع والخوف، استعارة لما يظهر على أهل القرية من أثر الجوع والخوف، من الصفرة والنحول كقوله تعالى: ﴿وَكُلُّكُمْ أَتَقْوَى﴾ [الأمراء/ ٢١] استعير اللباس لما يظهر على المتقي من أثر التقوى. وقيل إن فيه إحصاراً تقديره: فأذناها الله طعم الجوع وكساها لباس الخوف.



مرکز تحقیقات کلام و فقه اسلامی

المعاني المجازية في سورة «النحل»^(٥)

الروح التي خلقها ليحيي عباده بها، وأضافها إلى نفسه كما أضاف الأرض إلى نفسه، إذ يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضًا كَانَتْ هَيْمَةً قَهْقَرًا يُبَاطُّ﴾ [الب/٩٧].

وكان أبو الفتح عثمان بن جني رحمه الله يقول: معنى قولهم في القسم: «لَعَنَ الله ما قلت ذلك»، ولأنهم لما قالوا ذلك، إنما يريدون به القسم بحياة يخفي الله بها، لا حياة يخفي بها، تعالى عن ذلك علواً كبيراً. فكان المقسم إذا أقسم بهذه الحياة، دخل ما يخصه منها في جملة قسمه، وجرى ذلك مجرى قوله: لعمرى. فيصير مقسماً بحياته التي أحياها الله بها. والعمر هنا هو العمر. ومعناه الحياة.

قوله سبحانه: ﴿يَرْزُقُ الْمَلَكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام/٢] هذه استعارة: لأن المراد بالروح: ههنا، الوحي الذي يتضمن إحياء المخلوق، والبيان عن الحق. ومثل ذلك قوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْفَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى/٥٢] ومثله قوله سبحانه في المسيح (ع): ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْنَاهُ آفَاقَهُمَا إِنَّ مَرْيَمَ قَدْ دَخَلَ فِيهِمْ﴾ [الب/١٧١] فسماه تعالى روحاً على هذا المعنى، لأن به حياة أمته، وبقائه شريعته.

فأما قوله سبحانه: ﴿وَنَقَّحَ فِيهِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ [الشجدة/٩] فإنما أراد بذلك

(٥) الثاني هذا البحث من كتاب: «تفسير القرآن في مجازات القرآن» للشيخ الرشي، تحقيق محمد عبد القوي حسن، دار مكتبة المدينة، بيروت، طبع ١٤٠٥ هـ.

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ يَكُ مَلَكٌ لَمْ يَكُونُوا بِكَلِمَةٍ إِلَّا يَشْفِي الْأَمْثِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] استعارة على أحد التأويلين. وهو أن يكون المعنى: أنكم لا تبلغون هذا البلد إلا بأنصاف أنفسكم، من عظم المشقة، وبمعد الشقة، لأن الشق أحد قسمي الشيء. ومنه قولهم: شقيق النفس أي قسميها، فكأنه من الامتزاج بها شق منها. وعلى ذلك قول الشاعر:

مِنْ بَنِي عَابِرٍ لَهَا بَضْفٌ قَلْبِي

بِنَفْسٍ مِثْلَمَا يَشْفِي الرِّزْلَةَ
فأنا من حمل قوله تعالى: ﴿إِلَّا يَشْفِي الْأَمْثِينَ﴾ على أن معناه المشقة والنصب والكذب والدأب، فإن الكلام، على قوله، يكون حقيقة، ويخرج عن حد الاستعارة. كأنه، سبحانه، قال: إلى بلد لم تكونوا بالفيه إلا بمشقة الأنفس.

وقوله سبحانه: ﴿وَقُلْ أَفَوْ حَبْدُ التَّكْبِيلِ نَمَتَا بِكَتْرٍ﴾ [الأنبياء: ٢٩] وهذه استعارة. لأن الجائر هو الضال نفسه. يقال: جار عن الطريق. إذا ضل عن نهجه، وخرج عن سنته. ولكنهم لما قالوا: طريق قاصد، أي مقصد فيه، جاز أن يقولوا: طريق جائر أي يُجَار به.

وقوله سبحانه: ﴿يَحْتَلُوا لَوْزَانِمُمْ كَالْوَلَةِ يَوْمَ الْيَنْشَقُّ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وهذه استعارة لأن الوزر على الحقيقة هي الأثقال، واحدها وزر. والمراد بها ههنا الخطايا والآثام، لأنها تجري مجرى الأثقال التي تقطع المتون، وتنقض الظهور.

وفي معنى ذلك قولهم: فلان خفيف الظهر. وَصَفُوهُ بِقِلَّةِ الْعَدَدِ وَالْعِبَالِ، أَوْ بِقِلَّةِ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ.

وقوله سبحانه: ﴿قَالَ اللَّهُ بَيْنَهُمُ بَرَكِ الْقَوَائِدِ﴾ [الأنبياء: ٢٦] وهذه استعارة. لأن الإتيان ههنا ليس يراد به الحضور عن غيبة، والقرب بعد مسافة. وإنما ذلك كقول القائل: أتيت من جهة فلان. أي جاءني المكروه من قبله. وأني فلان من مأمته، أي ورد عليه المخوف من طريق الأمن، والضّر من مكان النفع.

وقوله سبحانه: ﴿تَأَلَّوْا لَنَكْرَ مَا حَكَا سَمَلٌ مِنْ سَوِيٍّ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. وهذه استعارة. وليس هناك شيء يلقى على الحقيقة. وإنما المراد بذلك طلب المسالمة من ذل واستكانة، والتعاس وشفاعة. لأن من كلامهم أن يقول القائل: ألقى إلي فلان بيده. أي خصص

لي، وسلم لأمري. وقد يجوز أيضاً أن يكون معنى ﴿قَالُوا أَتُتْرَكُ﴾: أي استسلموا وسلموا. فكانوا كمن طرح آلة المقارعة، ونزع شبكة المحاربة. وفي معنى ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة/ ١٩٥] أي لا تستسلموا لها، وتوقعوا نفوسكم فيها.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَكُنَّ فَيَكُونُ﴾. وهذه استعارة. لأنه ليس هناك شيء على الحقيقة يزمر، ولا قول يُسمع. وإنما هذا القول عبارة عن تحقيق الإرادة وشرعة وجود المراد، من تحرير معاناة ولا مشقة، فهو إخبار عن نفاذ قدرته تعالى. فإذا أراد أمراً كان لوقته، من غير أن يبطل إيجاده، أو يتفاحس إنفاذه. وذلك بمنزلة قول أحدنا: «كن» في خفة اللفظ به، وسرعة التعبير به، من غير كلفة تلحفه، ولا مشقة تعترضه.

وقيل إن معنى قوله سبحانه: ﴿كُنْ﴾، علامة للملائكة يدلهم بها، عند سماعهم لها، على أنه سيحدث كذا، ويفعل كذا، من محكمات التقدير، ومبرمات التدبير.

وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِهِ يَتَفَتَحُونَ﴾ [البقرة/ ٢١٨]. وهذه استعارة. لأن المراد بها وجوع الظلال من موضع إلى موضع. والظلال على الحقيقة لا تنفياً ولا تنقل، وإنما ترد الشمس عليها، ثم ترجع إلى ما كانت عليه، بعد أن تزول الشمس عنها، والشمس هي المتنقلة عليها، والظلال قائمة بحالها.

وقوله تعالى في صفة النحل العسالة: ﴿مَنْ لَكَ شَيْءٌ رُبِّيْ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ يَتَوَقَّعُ الْفَتَنَ﴾ [البقرة/ ٢١٩]. وفي هذه الآية استعارتان: إحداهما قوله تعالى: ﴿مَنْ لَكَ شَيْءٌ رُبِّيْ ذُلًّا﴾، على قول من جعل ذُلًّا حالاً للشبل، لا حالاً للنحل. والذُّلُّ جمع ذُلُول، وهي العزق الموطأة للقدم، السهلة على الحافر والمنسم، تشبهاً لها بالإبل الذل، وهي التي قد عودت الترحل، وألفب المسير.

والاستعارة الأخرى قوله سبحانه: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ والمراد بذلك العسل. والعسل عند المحققين من العلماء غير خارج من

نزل في قوم من المؤمنين، كانوا يجتمعون مع قوم من المنافقين، بأرحام تُلغهم، وحُلل^(١) تولد عنهم، فيتسقطونهم ليعرفوا سهم أخبار النبي (ص) والمؤمنين، فثُفِّروا عن مناقشتهم والاجتماع معهم. فكان المعنى: تلقون إليهم الأسرار بالمودة التي بينكم، على سبيل الأسرار والإخفاء.

وقد قيل إن المراد: تلقون إليهم المودة، فقال تعالى: بالمودة، كما قال سبحانه: ﴿وَصَبِّحْ لِلْأَكِينِ﴾ [الشعراء] للمؤمنين أي تنبت الدهن على أحد التأويلين، ونظير التأويل الأول قوله سبحانه في ذكر الشياطين: ﴿يُلْقُونَ كَسَفًا وَاصْطَرَعَتْهُمْ كَوْفُورًا﴾ [الشعراء] أي يطلبون سماع الأخبار على وجه الاستخفاء والاستسار، وهذا الوجه لا يصح في قوله تعالى: ﴿فَالْفَوْا إِلَيْهِمْ أَلْفَوْا إِلَيْكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [النمل] لأن الحال، التي أخبر سبحانه بأن هذا يجري فيها، هي حال القيامة، ونلك حال لا يجوز

بطون النحل، وإنما تنقله بأفواهها من مساقطه ومواقعه من أوراق الأشجار، وأضغاث النبات. لأنه يسقط كسقوط الندى في أماكن مخصوصة، وعلى أوصاف معلومة، والنحل مُلْهَمَةٌ تتبع تلك المساقط، وتنهّد تلك المواقع، فتنتقل العسل بأفواهها إلى كُوَارَاتِهَا^(٢)، والمواقع المَعْدَّة لها. فقال سبحانه: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾ والمراد من جهة بطونها. وجهه بطونها: أفواهها. وهذا من خواص هذا البيان، وشرائط هذا الكلام.

وقوله سبحانه: ﴿فَالْفَوْا إِلَيْهِمْ أَلْفَوْا إِلَيْكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [النمل] وهذه استعارة. والمراد بإلقاء القول - والله أعلم - إخراج الكلام مع ضرب من الخضوع والاستكانة والإسرار والخفية، كما قال سبحانه: ﴿يَأْتِيَا أَلِيمًا مَأْمُورًا لَا تَنْجِدُوا هَذَيْنِ وَهَذَا أَوْلَىٰ تَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْمَوْعِدُ﴾ [المتنبي/١] وفي هذا الكلام مفعول محذوف. فكأنه قال تعالى: تُلْقُونَ إليهم الأخبار بالمودة. وهذا القول،

(١) الكُوَارَاتُ هم الكاف وتشديد الواو جمع كَوْزَرَة، وهي بيت يتحد للنحل من اللقيان أو الطين تاري إليه. أو هي صاهة في الشمع.

(٢) المثل: جمع جَلَّة وهي الصلابة والصلابة.

فيها الاستمرار لقول، ولا الكتمان
لسر، لأن السرائر مُظهرة، والضمائر
مُضخمة^(١). وإنما المراد بهذا الكلام ما
يقوله المعبودون لمن يهدم من الأمة،
إذ يقول سبحانه: ﴿وَلَا رِمَا إِلَهِكَ
أَنْتَرَكُوا شُرَكَائِهِمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ
شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾
[الأنبياء ٢٢٦] فقال المعبودون لهم في
الجواب عن ذلك: إنكم لكاذبون، أي
في أننا دعوناكم إلى العبادة، أو في
قولكم إننا آلهة. وقد يجوز أيضاً أن
يكون الشكليب من العابدين
للمعبودين، فكأنهم قالوا لهم: كلَّهتُم
في أفعالكم، أنكم تستحقون العبادة
من دون الله تعالى. فلم يبق إذن إلا
الوجه الأول في معنى إلقاء القول،
وهو أن يكون على وجه الخضوع
والضراعة، ويكون سبب هذه الاستكانة
الخوف من الله سبحانه، لا خوف
بعض الشركاء من بعض. ومثل ذلك
قوله سبحانه، غَيَّبَ هَذِهِ آيَةَ: ﴿وَوَلَّوْنَا
إِلَى آفَاقٍ يَوْمَئِذٍ أَنْتَرَكُوا﴾ [الأنبياء ٢٢٧] أي
استسلموا له عن ضرع ذلة، وانقطاع

(١) أصغر الأمر: لظهوره وأملته في غير هذه.

حيلة. ومن ذلك قولهم: ألقى فلان يد
العاني. أي ذلُّ ذلك الأسير، وخضع
خضوع المقهور.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَنِيذِرًا أُنَبِّئُكُمْ
دَحَلًا يَتَّبِعُكُمْ قَرَلًا قَدَمٌ يَتَّبِعُ نُورَهَا﴾ [الأنبياء
٩٤] وهذه استعارة. لأن المراد بالقدم
ههنا الثبات في الدين. ولما كان أصل
الثبات في الشيء والاستقرار عليه، إنما
يكون بالقدم، حَسُنَ أن يعبر عن هذا
المعنى بلفظ القدم، وكأن العراد بقوله
تعالى: ﴿قَرَلًا قَدَمٌ يَتَّبِعُ نُورَهَا﴾ أي
يضيق دينكم، ويضطرب يقينكم،
فيكون كالقدم الزائلة، والقائمة المائلة.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ مَرَلَهُ رُوحُ
الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء ١٠٢].
وهذه استعارة. لأن المراد بذلك
جبريل عليه السلام، والتقديس:
الطهارة، وإنما سُمِّيَ رُوح القدس،
لأن حياة النين وطهارة المؤمنين، إنما
تكون بما يحمله إلى الأنبياء عليهم
السلام من الأحكام والشرائع، والآداب
والمصالح.

وقوله سبحانه: ﴿لَمَسَاتِ أَيْدِي

ووخامة الطعام الكريمة. وإنما قال
سبحانه: ﴿يَأْسَ الْجُوعُ﴾ ولم يقل:
طعم الجوع والخوف، لأنَّ المراد
بذلك - والله أعلم - وصف تلك الحال
بالشمول لهم، والاشتغال عليهم،

كاشتغال الملابس على الجلود، لأنَّ ما
يظهر منهم عن مضيض الجوع، وأليم
الخوف، من سوء الأحوال، وشحوب
الألوان، وضوالة الأجسام، كاللحم
الشامل لهم، والظاهر عليهم.



مرکز تحقیقات کتب و تواتر علوم اسلامی

سورة الإسراء



١٧



مرکز تحقیقات و پژوهش علوم اسلامی

أهداف سورة «الإسراء» (*)

السورة المدنية، لأنها من أواخر ما نزل في مكة فهي معقّدة للعهد المدني، أو هي متأثرة بالمدني، وهو مكّي.

الإسراء

بدأت سورة الإسراء بقوله تعالى:

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ الَّذِي أُسْرِيَ بِهِ رَسُولُكَ إِلَىٰ السَّمَاءِ الْعَزَّازِ الْأَلْفَاظِ الَّذِي يُرْسِلُ رَحْمَتَهُ فِي زَيْفَةٍ مِنْ تَلَوْنَهَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١).

وخلاصة الإسراء: أن الله تعالى، أكرم رسوله محمداً (ص)، بمعجزة إلهية، هي الانتقال به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بالشام، ثم صعد إلى السماوات العلّاء، ورأى من كل سماء مقرّبيها، ورأى بيوت

سورة الإسراء سورة مكّية، نزلت في السنة الحادية عشرة للبعثة قبل الهجرة بسنة وشهرين. وتسمّى سورة «الإسراء»، نظراً لذكر الإسراء في صدرها، كما تسمّى سورة «إسرايل»؛ لأنها تحدّثت عنهم، وعن إفسادهم في الأرض، وعن عقوبة الله لهم على هذا الفساد.

وعند آياتها ١١١ آية، وهي من أواخر ما نزل من السور في مكة، وقد تميّزت آياتها بالطول النسيبي، وبسط الفكرة، والدعوة إلى التحلي بالأداب ومكارم الأخلاق.

فسورة الإسراء اشتملت على خصائص السورة المكّية، ومن ناحية أخرى ظهرت فيها صفات من خصائص

(*) تنقّل هذا البحث من كتاب أهداف كلّ سورة ومفادها، لعبد الله محمود شعاع، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ - ١٩٨٤.

عجيبة في هذا الوجود، وتكشف عن نعم الله على الجنس البشري، الذي كرمه الله وقضله على كثير من خلقه، واصطفى من بينهم رسلاً وأنبياء، يوحى إليهم ويخصهم بالبزوة والهدية، والمعجزات الباهرة.

هذا الإسراء آية من آيات الله. وهو نقلة عجيبة بالقياس إلى مأثور البشر، والمسجد الأقصى، هو طرف الرحلة، وهو قلب الأرض المقدسة التي بارك الله حولها، بركات مادية ومعنوية، تحولها الأشجار والثمار، وإليها يتحرك الحجاج، وقد زارها الأنبياء والمرسلون.

واتفق جمهور العلماء على أن الإسراء كان بالروح والجسد، يقظة لا مناماً؛ وذهب بعض العلماء إلى أن الإسراء كان بالروح فقط، وكان في النوم لا في اليقظة، لقوله تعالى في سورة الإسراء:

﴿وَمَا جَعَلْنَا آلِيكَ لَزْمَةً إِلَّا فِتْنَةً فَتْنًا﴾ [١٦٠].

وقد رد جمهور العلماء بأن هذه الآية، تشير إلى رؤيا رآها النبي (ص) ليلة غزوة بدر الكبرى، قال تعالى:

المنتهى، وجنة المأوى، وآيات ربه الكبرى، ثم فرض الله سبحانه عليه الصلاة، لتكون صلة بين المخلوق والخالق، ورباطاً بين الإنسان وربه، وعاد (ص) إلى مكة قبل طلوع الفجر.

والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، رحلة مختلطة من لُذُن اللطيف الخبير، تربط بين عقائد التوحيد والكبرى، من إبراهيم وإسماعيل (ع) إلى محمد خاتم النبيين (ص)، وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً. وكأنما أريد بهذه الرحلة المتجنية، إعلان وراثة الرسول الأخير لمقامات الرسل قبله، واشتمال رسالته على هذه المقدسات، وارتباط رسالته بها جميعاً؛ فهي رحلة ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان، وتتضمن أكبر من المعاني الغريبة، التي تنكشف عنها للنظرة الأولى.

والإسراء آية صاخبها آيات:

﴿يُؤَيِّدُ مِنْ كَيْدَاتِهِ﴾.

والنقلة العجيبة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى، في الوقت القصير، آية من آيات الله، تفتح القلب على آفاق

﴿إِنَّا يُرِيدُكُمُ اللَّهُ فِي تَحَالُفٍ عَالِيَةٍ﴾
[الأعداء/ ٤٣].

أو تشير إلى رؤيا رآها النبي (ص)
بمدخول المسجد الحرام حاجاً معتمراً
قل صلح الحديبية، قال تعالى:

﴿لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْإِنشَاءَ بِالْحَقِّ
لَنَنصُرَنَّ النَّبِيَّ وَلَنَكْذِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
وَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [التوبة/ ٢٥]
فَتَمَّامًا قَرِيبًا ﴿٢٥﴾ [فتح].

واستدل الجمهور، بأن الله جعل
الإسراء آية كبرى، وقال ﴿أَشْرَفَ
بِمَدِينَةٍ وَالْعَبْدُ مَجْمُوعُ الرُّوحِ
وَالْجَسَدِ، وَلَوْ شَاءَ لَقَالَ: «أَسْرَى بِرُوحِ
عَبْدِي».

ثم إن كفار مكة أنكروا الإسراء،
وارتد بعض ضعاف الإيمان بسبب
الإسراء، ولو كان الإسراء مناماً، لما
أنكروه كفار مكة، ولما ارتد بسببه
ضعاف الإيمان، ولما تميز أبو بكر
الصديق رضي الله عنه، بتصديقه من
بين سائر الناس.

وقد ركب الرسول (ص) البراق،
وركوب البراق من خصائص الأجساد،
والإسراء في حقيقته معجزة إلهية،

خاصة بالرسول الأمين؛ ولا حرج على
فضل الله، ولا حدود لقدرته، فهو
سبحانه على كل شيء قدير، قال
شوقي:

يتسالمون وأنث أظهُرُ هيكَلِ
بالزَّوجِ أم باللهِ كِلِ الإسراءِ
بهما سموتُ مُطَهَّرُ وكلامها
نورٌ وروحانيَّةٌ وبها

وعد الله لبني إسرائيل

بدأت سورة الإسراء بالحديث عن
الإسراء بالنبي الأمين؛ والسورة في
تجملها تتحدث عن النبي (ص) وعن
القرآن الذي نزل عليه، وموقف
المشركين من هذا القرآن؛ وفي خلال
هذا الحديث، تستطرد إلى ذكر بني
إسرائيل، والحديث عن ماضيهم
وفسادهم في الأرض؛ وعقوبة الله
لهم، كأنها تنوِّد كل مَكْذِبٍ ومُفسدٍ
بالعقاب العادل؛ وفي هذا تهديد لكفار
مكة، ولكل خارج على نطاق الإيمان
وشريعة العدل، والنظام الإلهي.

ويلاحظ أن وعيد الله لبني إسرائيل،
على إفسادهم في الأرض مرتين، لم
يُذَكَّرْ في القرآن إلا في صدر سورة
الإسراء.

وقد تعددت أقوال المفسرين في بيان القوم الذين سَلَطَهم الله على اليهود، وزعم جمهور المفسرين إلى أن المسلط عليهم في المرة الأولى هو بختنصر البابلي، وقد فزاهم سنة ٦٠٦ قبل الميلاد، ثم ساعدتهم قورش ملك الفرس سنة ٥٢٦ قبل الميلاد، فعادوا لبلادهم وأعادوا بناء هيكلهم.

والمسلط عليهم في المرة الثانية هم الرومان بقيادة تيطس سنة ٧٠م، وقد كان إذلالهم في المرة الثانية أشد وأكبر، وقد تفرق اليهود في البلاد بعد هزيمتهم الثانية، وأصبح تاريخهم ملحفاً بتاريخ الممالك التي نزلوا فيها، ولم يرجع اليهود إلى فلسطين إلا في العصر الحديث.

وينبغي أن ندرك أن آيات سورة الإسراء لا تحدد تاريخاً معيناً لفساد اليهود، ولا قوماً بأعيانهم سَلَطَهم الله عليهم، فإذا أردنا معرفة ذلك فنلجج إلى التاريخ، لا لنحكمه في فهم القرآن، ولكن لنستأنس به فقط.

وخلاصة الآيات التي تحدثت عن فساد اليهود ما يأتي:

١ - أخبر الله تعالى أن بني إسرائيل سيفسدون في الأرض مرتين، وهذا

الفساد معناه طغيان وعدوان منهم على عباد الله، وخروجهم على الطريق القويم.

٢ - أخبر الله تعالى عنهم أنهم لما طَغَوْا وَتَوَّأ، سَلَطَ الله عليهم من يتقم منهم.

٣ - بعد الانتقام الأول، عادوا إلى الطريق الجافة فاتصروا على أعدائهم، لكنهم لم يثبوا أن عادوا للفساد، فحق عليهم وعيد الله تعالى.

٤ - سَلَطَ الله سبحانه، عليهم في المرة الثانية، من أذلهم وهدم هيكلهم، وقضى عليهم وعلى ملكهم.

فذكر الله تعالى، أنه يشملهم برحمته إذا تابوا إليه، فإن عادوا للفساد عاد عليهم بالمعقاب.

وقد عنت سورة الإسراء، بالحديث عن مكارم الأخلاق.

فدعت إلى توحيد الله جلّ جلاله، وأمرت بالإحسان إلى الوالدين، وصلة الرحم، والعطف على الفقير والمسكين وابن السبيل، ونهت عن التبذير، والقتل، والزنا، وتطفيف الكيل، وأكل مال اليتيم، والكثير، والبَطَر. وإذا قرأت الآيات ٢٣ - ٣٩، رأيت دستوراً أخلاقياً كريماً، يأمر بالفضائل، ويحث

على القيم، وينهى عن الرذائل، ويحلر من المعاصي والموبقات.

وترى أن القرآن أعظم كتاب في الشريعة الأخلاقية والسلوكية، وهذه الشريعة هي التي صاغت المجتمع الإسلامي المحدث صياغة جديدة مهتدة؛ وصر القرآن روحاً جديدة يسري في أوصال المجتمع العربي والإسلامي، فيهدم حطام الجاهلية وأوثانها، ويقيم على أشلائها دولة جيدة، تؤمن بالله ورسوله، وتهتدي بكتابه الذي أنزله الله نوراً وهدى. ترى المسلم إما غائباً في مسجده، أو ساعياً إلى رزقه، أو مجاهداً في سبيل إعلاء كلمة الله. وجميع المسلمين راية جديدة، شعارها الإخلاص؛ وهداها الحب لله ورسوله، وقوتها في تماسك المسلمين، وأخوتهم وتربطهم وتساندهم، حتى أصبحوا يداً واحدة كالبنين المرصوص، يشد بعضهم بعضاً.

أوهام المشركين، وحجج القرآن الكريم

في الآيات ٣٩ - ٥٨ : من سورة الإسراء، حديث عن أوهام الوثنية

الجاهلية، حول نسة البات والشركاء إلى الله.

وخلاصة ذلك، أنهم جعلوا الملائكة إنثاء، ثم ادعوا، كذباً وبهتاناً، أنهم بنات الله ثم عبدهن، فأخطأوا في الأمور الثلاثة خطأ عظيماً.

ثم تحدثت السورة عن البعث، واستبعاد الكافرين لوقوعه، وعن استقبالهم للقرآن، وتقولاتهم على الرسول (ص)، وأمرت المؤمنين أن يقولوا قولاً آخر، ويتكلموا بالتي هي أحسن.

وفي الآيات ٥٩ - ٧٧ : بينت السورة، لماذا كانت معجزة محمد (ص)، معجزة عقلية خالدة، ولم تكن معجزة مادية محدودة؛ فقد كذب الأولون بالخوارق فحق عليهم الهلاك اتباعاً لسنة الله؛ كما تناولت الحديث عن الإسراء وحكته، وأن الله جعله فتنه وامتحاناً للناس، ليمتيز المؤمنون، ويكشف المنافقون؛ ويجيء في هذا السياق طرف من قصة إيليس اللعين، وإعلانه أنه سيكون حرباً على ذرية آدم.

يجيء هذا الطرف من القصة، كأنه كشف لموامل الضلال، الذي يبدو من

المشركين، ويعقب عليه بتحريف البشر من عذاب الله، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم، في تكريم الإنسان، وتمييزه من المخلوقات جميعها، وتسخير الكون جميعه له، حتى يفكر بعقله، ويؤمن بقلبه، فمن اعتدى، أخذ كتابه بيمينه يوم القيامة؛ ومن عمي عن الحق في الدنيا، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً.

وفي الآيات ٧٣ - ٨٨: تستعرض سورة الإسراء كيد المشركين للرسول (ص) ومحاولتهم فتنته عن بعض ما أنزل إليه، ومحاولة إخراجهم من مكة؛ ثم تأمر النبي (ص)، بأن يحضي في طريقه، يقرأ القرآن، ويؤدي الصلاة، ويدعو الله أن يحسن مدخله ومخرجه؛ وتذكر رسالة القرآن بأنها شفاء لأعراض الجاهلية، ورحمة بالجماعة الإسلامية.

وفي الآيات ٨٨ - ١١١: نجد القسم الأخير من السورة، ويستمر الحديث في هذه الآيات عن نزول القرآن وإعجازه، بينما يطلب كفار مكة حوارق مادية، يطلبون نزول الملائكة، ويقترحون أن يكون للرسول (ص) بيت

من زخرف، أو جنة من نخيل وعنب، تتفجر الأنهار خلالها تجميلاً؛ أو أن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً من الماء، أو أن يرقى هو في السماء، ثم يأتيهم بكتاب ملموس محسوس، فيه شهادة بأنه مرسل من عند الله... إلى آخر هذه المقترحات، التي يُمليها العنت والمكابرة، لا طلب الهدى والاقتناع. ويرد الله سبحانه على هذا كله، بأن ذلك خارج عن وظيفة الرسول، وطبيعة الرسالة.

فالرسول بشر يوحى إليه، وليس إلهاً يتحكم أي مظاهر الكون؛ وقد سبق أن أعطى الله تعالى موسى (ع) معجزات مادية، فكذب بها فرعون، وجحد نبوة موسى؛ فكانت العاقبة، أن أغرق الله فرعون ومن معه من المكذبين.

إن طريقة القرآن الكريم، هي طريقة الدعوة الهادفة المتأنية، وقد نزل مفرقاً ليقراه الرسول على قومه في هدوء وثؤدة، وليجيب عن أسئلة السائلين، وليكون كتاب الحياة، يحياها مع المؤمنين، يملهم دينهم، ويرد عنهم دعاوى أعدائهم، ويلفتهم إلى الكون وما فيه، حتى يعبدوا الله ويسجدوا له

عن خشوع وميقين. وتُختتم سورة
الإسراء بحمد الله وتنزيهه عن الولد
والشريك في الملك، كما بدت بتنزيه
الله وتسميحه؛ ففي آوّل السورة:

﴿مُبَاحٌ لِّذِي أُسْرَىٰ بِصَبِيرِهِ ۖ تِلْكَ﴾.

وفي آخر السورة .

﴿وَقُلْ لِمَن دُونِيَ إِلَهٌ أَلَيْسَ لَهُ عِشْقٌ وَإِلَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفَأَنذَرْتُ بِهِ نَارَ الْمَنَافِعِ وَالْمَكْرِهَةِ وَأَنذَرْتُ بِهِ قَوْمًا لِّلِ الْعَذَابِ أَلَيْسَ لِي عِشْقٌ وَفَأَنذَرْتُ بِهِ قَوْمًا لِّلِ الْعَذَابِ أَلَيْسَ لِي عِشْقٌ وَفَأَنذَرْتُ بِهِ قَوْمًا لِّلِ الْعَذَابِ أَلَيْسَ لِي عِشْقٌ﴾

من أسرار الإعجاز

في سورة الإسراء

يقول الله تعالى في سورة الإسراء:

﴿ثُمَّ لِي أَتَمَّتْ آيَاتُ الْإِسْحَاقَ وَالْيَسْقَ لَ
يَأْتُوا بِبَنِي إِسْحَاقَ هَذَا الْفَرَكُ لَا يَأْتُونَ بِبَنِي إِسْحَاقَ
لَا يَأْتُونَ بِبَنِي إِسْحَاقَ﴾

لقد كانت هناك معركة فكرية
ونفسية، بين القرآن والمشركين، ألحق
المشركون فيها التُّهم بالرسول (ص)
فَرَمَوْهُ بِالْحِجْرِ والجَنُونَ، واقتراء القرآن
من عند نفسه، وقد نُزلت سورة
الإسراء في ذروة هذه المعركة
واحتدامها، بعد أن مات أبو طالب عم
الرسول، وماتت زوجته خديجة، فكان
الإسراء تسرية للرسول الأمين، وكانت

سورة الإسراء قلعة من حصون البيان
والجدال بالحجة الدامغة والدليل
الواضح.

إنك تحسن عند قراءة السورة نبضات
حية، تصور هتف المشرّكين وضلال
حقيدتهم، وتبرز أسلوب الدعوة
الجديد، الذي يملك الحقّة على قضية
الالوهيّة، ويسوق الأدلّة على قضيّته من
سجلات التاريخ ومن واقع الكون
ومشاهدته، ومن التحدي بالقرآن،
وتأكيد عجزهم عن الإتيان بمثله.

والقرآن في سياق حديثه، ينتقل من
فيل إلى فن، ومن وصف للإسراء إلى
حديث عن تاريخ اليهود، إلى رذ على
ويؤك المشركين، إلى ذكر قصص
لأدم وإبليس، وفرعون، وموسى.

ويربط القرآن بين هذه الأفكار المتناثرة في الظاهر، برامح قوي متين، يؤكد أنه كتاب الله.

وقد ترمّضت علوم السابقين للنفس
والتعديل، ولم يبقَ كتابٌ مَرَّةً عن
النفس والعيب، إلا هذا الكتاب.

وفي ختام هذا الحديث، يمكننا أن نرجع أهداف سورة الإسراء إلى الأمور الآتية:

١ - معجزة الإسراء من مكة إلى بيت المقدس.

٢ - تاريخ بني إسرائيل، وإفسادهم في الأرض، وعقوبة الله لهم.

٣ - جملة من الأدب، يجب على المسلمين أن يتحلوا بها، حتى تغل رباطهم قوية متمسكة.

٤ - بيان أن كل ما في السماوات والأرض، مُسَبَّح لله.

٥ - الكلام على البعث، مع إقامة الأدلة على إمكانه.

٦ - الرد على المشركين، واللذين اتحلوا مع الله آلهة، من الأوثان والأصنام.

٧ - الحكمة في عدم إنزال المعجزات التي اقترحوها، على محمد (ص).

٨ - قصص سجود الملائكة لآدم، وامتناع إبليس عن السجود.

٩ - تعداد بعض نعم الله سبحانه.

١٠ - طلب المشركين من الرسول (ص) أن يوافقهم في بعض معتقداتهم، وإلحاحهم في ذلك.

١١ - أمر النبي (ص) بإقامة الصلاة والتهجد في الليل.

١٢ - بيان إعجاز القرآن، وأن البشر يستحيل عليهم أن يأتوا بمثله.

١٣ - قصص موسى مع فرعون.

١٤ - الحكمة في إنزال القرآن متنجساً.

١٥ - تنزيه الله سبحانه، عن الولد والشريك والناصر والمعين.

ترابط الآيات في سورة «الإسراء» (*)

المسجد الأقصى، فاستدعى هذا بيان فضل هذا المسجد، وذكر بعض من أخبار أهله. وثانيها: الموازنة بين كتابي المسجلين، القرآن والتوراة؛ وقد استدعى هذا، ذكر بعض ما أتى به القرآن من الحكم والمواعظ. وثالثها: بيان حكمة الإسراء من اختيار الناس به، سوقهم إلى السبيل، بعد هذا، إلى بيان فضل القرآن، فانتهى به الكلام في هذه السورة.

وقد ذكرت سورة الإسراء بعد سورة النحل، لأن الإسراء كان رمزاً للهجرة إلى المدينة، وكان في الهجرة إليها تحقيق ما أنذروا به، من قرب عذابهم في أول سورة النحل.

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة الإسراء بعد سورة القصص، وقد كانت حادثة الإسراء في السنة الحادية عشرة للبعثة، فيكون نزول سورة الإسراء في هذه السنة.

وقد سُميت هذه السورة بهذا الاسم، لابتدائها بقوله تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ أَشْرَقَ يُشَبِّهُهُ لَوْلَا يُرَىٰ فَالسَّجْدُ الْمَكْرُوبُ إِلَى السَّجْدِ الْأَقْصَى﴾. وتبلغ آياتها إحدى عشرة ومائة آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة ثلاثة أمور: أولها: إثبات حادثة الإسراء، وقد كان الإسراء من المسجد الحرام إلى

(*) انظر هذا المبحث من كتاب «الظم الثاني في القرآن»، للشيخ عبد المصطفى الصدي، مكتبة الآداب بالحمير - المطبعة السردجية بالمكتبة الجديدة، القاهرة، غير مؤرخ.

إثبات الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الآيات (١ - ٨)

قال الله تعالى: ﴿سَبَّحْتَ لِلَّهِ أَنْتَ
مَعْبُودُهُ كُلًّا رُبَّكَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِلَى
الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِنُذِيقَ
بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنَّهُ هُوَ السَّبَّاحُ الْهَمِيدُ ﴿١﴾
فذكر تعالى أنه أسرى بالنبي (ص) من
المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى،
ليريه ما فيه من آياته؛ ثم ذكر أنه أنزل
التوراة على موسى شريعة لأهله من
بني إسرائيل، وأنه قضى إليهم فيها،
أنهم سيفسدون في أرضهم سرلين،
ويخرجون على شريعتهم بعبادة الأوثان
والأصنام، وأنه إذا جاءت المرة
الأولى، بعث عليهم قوماً قوي بأس
شديد، ليخربوا ديارهم ويهدموا
مسجدهم، وهم قوم يحتنصر ملك
بابل، ثم يخذلهم منهم وينصرهم عليهم
ويجعلهم أحسن حالاً مما كانوا عليه
قبل غزوهم؛ فإذا جاءت المرة الثانية
بعث عليهم قوماً آخرين يخربون
ديارهم ويهدمون مسجدهم كما هدم
في المرة الأولى، وهم الروم الذين
غزوهم وأخرجوهم من ديارهم، ثم
التفت السياق إلى اليهود المعاصرين

للنبي (ص) بقوله تعالى ﴿عَسَىٰ وَرَدُّكَ أَن
يَرْجِعَكَ وَرَفْعُ عُدَّتِكَ عَنَّا وَبَسَّطَ جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ
حَوِيلًا ﴿٢﴾﴾.

الموازنة بين كتابي المسجدين الآيات (٩ - ٥٩)

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ
يَهْدِي لِلَّذِينَ يَرْتَبِعُونَهُ وَيُنِيرُ الْغُيُوبَ الَّذِينَ
يَقُولُونَ كُنَّا يَسْلَفُونَ لَأَنَّ لَكُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٣﴾
فذكر أن القرآن يهدي إلى شريعة أقوم
من التوراة، وأنه يشر المؤمنين بأن لهم
أجرًا كبيراً، وينذر الكافرين بأن لهم
عذاباً أليماً؛ ثم ذكر سبحانه أنهم
يستعجلون هذا العذاب، الذي ينزلهم
بعد استعجالهم للخير، وكان الإنسان
عجولاً؛ واستند على قدرته عليه، بأنه
جعل الليل والنهار آيتين، فمضى آية
الليل وجعل آية النهار مبصرة، ليبتغوا
أرزاقهم فيها، وليعلموا عدد السنين
والساعات ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَوْمَهُ
فَتَنَّا﴾ ثم ذكر أن كل إنسان
تحصى عليه أعماله في دنياه، ليحاسب
عليها يوم القيامة، وأن من اعتدى فإنما
يهتدي لنفسه، ومن ضل فإسما يضل
عليها، ولا تزدد وزراً أخرى ﴿ثُمَّ
اقتنعت فلكاً يمتدحى لِقَائِهِ وَنَسَىٰ مَا كَانُوا

يَعْلَمُ خَلْقَهَا وَلَا يَزِدُّ وَكَيْدَهُ وَيَزِدُّ أَخْرَجَ وَمَا
كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَمُوتَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ .

ثم ذكر أنه تعالى إذا أراد أن يهلك
قرية بذلك العذاب الذي يستعملونه،
أَمَرَ مَرفِئَهَا ففسقوا فيها، فَحَقَّ عَلَيْهَا
العذاب فَدَمَّرَهَا تدميراً؛ وأنه كم أهلك
من القرون، بهذا الشكل من بعد
نوح (ع)، وأنه أعلم بذنوب عباده،
فيقدر لهم وقت عذابهم كما يريد ﴿وَكَيْفَ
يُرْسِلُ الْغَوَّاثِينَ يَخِشَوْنَ غَايَةً﴾ .

ثم ذكر أن من يريد العاجلة عجل له
فيها، ما يشاء من خير أو شر، لمن
يريد. وليس لأحد أن يتعجله في
شيء، وأن من يريد الآخرة ويسمى
لها، شُكِّرَ له سعيه، وأنه يَمَكِّنُ كَلَامًا
منهما في الدنيا بعطائه، ولا يحظره عن
أحد من عباده، وأنه يَفْضِلُ بعضهم
على بعض في هذا العطاء، وستكون
الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً.

ثم بين بعضاً من شريعة القرآن، في
الأصول والفروع والأخلاق، فنهى عن
الشرك به، وأمر بالإحسان إلى
إخوانه، وإيثاره في القريب حقه
والمسكين وابن السبيل، ونهى عن
التبذير في المال، وأمر بالاعتدال
الحسن عند العجز عن الإحسان، إلى

غير هذا من الأحكام التي ختمها بقوله
تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رُسُلًا مِنْ
أَلَيْكُنَّ وَلَا جَمَلٍ مَعَ لَقْوِ الْإِلَهِ مَكْرَ مَقْلَقٍ فِي
جَهَنَّمَ مَكُودًا مَدْحُورًا﴾ . فحتمها بالنهاي
عن الشرك كما ابتدأها به، وأتبعه
بتوبيخهم على نوع حاص من شركهم،
وهو زعمهم أن الملائكة بنات الله،
فذكر أنه لا يصح أن يؤثروهم بالبنين،
وَيَتَّخِذُوا مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ
بَعِيدٍ﴾ .

ثم ذكر تعالى أنه صرّف في القرآن
هذا التصريف من الكلام في الأصول
والفروع والأخلاق، ليكون فيه موعظة
للناس، ولكنه لا يريدهم إلا نفوراً،
وأمر النبي (ص)، أن يذكر لهم دليلاً
على بطلان الشرك لا يمكنهم أن يماروا
فيه، وهو أنه لو كان معه سبحانه آلهة
لاَبْتَغَوْا سَبِيلًا إِلَىٰ مَنَازَعَتِهِ، ثم نزه
سبحانه نفسه عما يزعمونه من أن له
شركاء في ملكه، وذكر أنه هو الذي
تسبح له السماوات السبع والأرض
ومن فيهن، وأنه ما من شيء إلا يسبح
بعلمه، ولكنهم لا يفقهون تسبيحهم.

ثم ذكر أنه إذا قرأ القرآن جعل بينه
وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً
مستوراً، وجعل على قلوبهم أكنة أن

أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا غَنَةً لِّلنَّاسِ وَالتَّجَرَّةَ الْكُبْرَىٰ فِي الْقُرْآنِ وَنُوحِيهِمْ مَّا يَشَاءُونَ إِلَّا طَلَفًا كَذِبًا ﴿١٠١﴾ فذَكَرَ سَبْحَانَهُ أَنَّهُ وَعَدَهُ بِالنَّصْرِ عَلَيْهِمْ، حِينَمَا أَخْبَرَهُم بِالْإِسْرَاءِ فَكَذَّبُوهُ، وَارْتَدَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ رُؤْيَا الْإِسْرَاءِ إِلَّا فِتْنَةً لَهُمْ؛ فَقَدْ افْتَنُوا بِهَا، كَمَا افْتَنُوا بِشَجَرَةِ الزَّقُّومِ الْمَلْعُونَةِ فِي الْقُرْآنِ، فَقَالُوا: زَعَمَ مُحَمَّدٌ أَن نَّارَ جَهَنَّمَ تَحْرَقُ فِي الْحَجَرِ، ثُمَّ زَعَمَ أَن فِي النَّارِ شَجَرَةً وَهِيَ تَأْكُلُ الشَّجَرِ، فَكَيْفَ يَنْبَغُ فِيهَا الشَّجَرُ؟ ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ يَخْفِوْنَهُمْ بِذَلِكَ، فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا.

ثُمَّ ذَكَرَ لَهُمْ قِصَّةَ آدَمَ مَعَ الْمَلَكَةِ وَإِبْلِيسَ، لِأَنَّهُمَا كَانَتَا لِلْإِخْتِبَارِ أَيْضًا، لِيَتَعَبَّوْا فِي إِخْتِبَارِهِم بِالْإِسْرَاءِ بِمَا حَصَلَ لِإِبْلِيسَ حِينَمَا عَصَى أَمْرَ رَبِّهِ مِنَ الطَّرْدِ وَاللَعْنِ، وَلَا يَقْعُوا فِي مِثْلِ مَا وَقَعَ فِيهِ بِتَكْذِيبِهَا؛ وَقَدْ خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ لِإِبْلِيسَ ﴿إِنَّ يَكِيدُ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ وَكَفَرَ بِرَبِّكَ وَصَحَّيَكَ﴾.

ثُمَّ شَرَعَ السِّيَاقَ فِي أَخْبَارِهِم بِالتَّرْغِيبِ بَعْدَ التَّرْهِيبِ، فَذَكَرَ سَبْحَانَهُ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَسُوقُ السَّفْنَ فِي الْبَحْرِ، لِيَتَفَرَّغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَأَنَّهُمْ إِذَا مَسَّهُمُ الضَّرُّ فِي الْحَرِّ وَخَافُوا الْغَرَقَ لَا يُلْجَأُونَ إِلَّا إِلَيْهِ

فِي كَشْفِهِ عَنْهُمْ، فَإِذَا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ يَعْزُضُونَ عَنْهُ وَيَكْفُرُونَ بِعَمَلِهِمْ؛ وَلَا يَأْمَنُونَ أَن يَخْصِفَ بِهِمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يَرْسِلَ عَلَيْهِمْ رِيحًا حَاصِبًا، أَوْ يَعْبُدُهُمْ فِي الْبَحْرِ مَرَّةً أُخْرَىٰ فَيُفَرِّقَهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ؛ ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ كَرَّمَ بَنِي آدَمَ بِنِعْمَةِ الْعَقْلِ، وَحَمَلَهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَرَزَقَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَفَضَّلَهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَأَنَّهُ سَيَبْعَثُهُمْ وَيَحْصِيهِمْ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ، فَمَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِمِيزَانِهِ، وَهُمْ الَّذِينَ قَامُوا بِحَقِّ هَذِهِ النِّعَمِ، فَإِنَّهُمْ يَكْفُرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَا يُطْلَمُونَ فِتْنًا؛ وَمَنْ لَمْ يَقُمْ بِحَقِّ هَذِهِ النِّعَمِ، وَلَمْ يَنْظُرْ بِعَقْلِهِ فِي دُنْيَاهُ حَتَّى صَارَ فِيهَا كَالْأَعْمَى، فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا.

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَن فِتْنَةَ الْإِسْرَاءِ، بَلَغَ مِنْ شِدَّتِهَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْتَنُونَ النَّبِيَّ (ص) هُنَا أَوْحَى إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِهِ، لِيَفْتَرِيَ لَهُمْ غَيْرَهُ؛ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتَهُ سَبْحَانَهُ فِيهَا، لَعَدَّ كَادَ يَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا؛ ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَحْمِلُونَهُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ، لَشِدَّةِ اسْتِهْزَانِهِمْ بِهِ، وَلَوْ أَنَّهُمْ أَخْرَجُوهُ مِنْهَا لَأَهْلَكَهُمْ كَمَا أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِمْ مَنْ أَخْرَجُوا أَنْبِيََاءَهُمْ مِنْ بَيْتِهِمْ؛ ثُمَّ أَمَرَ بِأَن يَعْزُضَ عَنْهُمْ وَيُقْبَلَ عَلَى

عبادته، وإقامة الصلاة له في أوقاتها من فروض ونوافل، لينصره عليهم، ويحسه مقاماً محموداً يظهر فيه أمره عليهم؛ وقد كان ذلك بالهجرة إلى المدينة، وكان الإسراء قبلها بسنة واحدة، ثم أمره أن يلجأ إليه في تهية ذلك المقام المحمود حتى يخرج من مكة مُخْرَجَ صدق، ويدخله ذلك المقام المحمود مُدْخِلَ صدق، وأن ينبتهم بقرب ذلك اليوم الذي يظهر فيه حقّه على باطلهم ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَّقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوًّا﴾.

عود إلى بيان فضل القرآن الآيات (٨٢ - ١١١)

ثم قال تعالى: ﴿وَيَرْفَعُ رَحْمَةً لِّلْمُتَّقِينَ وَلَا يَرْفَعُ الْفَاسِقِينَ إِلَّا حَسْرَةً﴾، فعاد السياق إلى الكلام على فضل القرآن، وذكر أنه سبحانه يرزق منه ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، ويزداد به الكافرون خساراً إلى خسارهم؛ ثم يبين سبب ذلك فيهم، وهو استكبارهم واغترارهم بأموالهم التي أنعم الله بها عليهم؛ فذكر سبحانه أن شأن الكافر إذا أنعم عليه استكبر، وإذا منه الفقر بلغ به اليأس

كل مبلغ؛ ثم ذكر أن كلاً من المؤمنين والكافرين، يعمل من ذلك على شاكلته، وأنه سبحانه أغلّم بمن هو أهدي سبيلاً منهم؛ ثم ذكر تعالى أنهم يسألون النبي (ص) عن الروح، وهو القرآن، ما دليله على أنه من عند الله؟ وأمره أن يجيبهم بأنه من أمره، وأن ما جاءهم به من العلم قليل بالنسبة إلى واسع علمه؛ وأنه سبحانه لو شاء أن يأخذ هذا القليل وذبح بما أوحى إليه من القرآن لفعل، لأنه لا يريد به شيئاً لنفسه، وإنما يريد مصلحتهم؛ ثم بين لهم الدليل على أنه من عنده، وهو حُجْرُ الإنس والجن أن أتوا بمثله؛ وذكر أنه تحذاهم بذلك على وجوه كثيرة، فمن عشر سور إلى سورة واحدة، إلى التحدي به كله؛ ولكنهم يابون إلا كفوراً، ويطلبون معجزات أخرى، كأن يفجّر لهم ينبوعاً من الأرض، أو يكون له في واديهم جنة من تخيل وغب تجري فيها الأنهار، إلى غير هذا مما اقترحوه على وجه التعتت والتخكّم، وقد أمره تعالى بأن يجيبهم بأنه ليس إلا بشراً رسولاً؛ ثم ذكر أنهم لم يمنعهم من الإيمان بالقرآن، إلا استبعادهم أن يكون رسوله من البشر، وأمره أن يجيبهم بأنه لو



مرکز تحقیقات و پژوهش‌های اسلامی

أصول ترتيب سورة «الأنعام» (*)

كلها في خمس عشرة آية من سورة بني إسرائيل^(١). وذكر عصيانهم وفسادهم، وتخريب مسجدهم؛ ثم ذكر استفزازهم للنبي (ص) وروغبتهم في إخراجهم من المدينة، ثم ذكر سؤالهم إياه عن الروح^(٢)، ثم ختم السورة بآيات موسى التسع، وخطابه مع فرعون، وأخبر أن استفزازهم للنبي (ص) ليخرجوه من المدينة هو وأصحابه، نظير ما وقع لهم مع فرعون لما استفزهم، ووقع ذلك أيضاً.

ولما كانت هذه السورة مصدرة بقصة تخريب المسجد الأقصى، فقد أسري بالمصطفى إليه، تشريفاً له بحلول ركابه الشريف.

إعلم أن هذه السورة، والسور الأربع التي بعدها، هي من قديم ما أنزل. أخرج البخاري عن ابن مسعود أنه قال، في بني إسرائيل، والكهف ومريم وطه والأنبياء: «من العتاق الأول، وهر من تلادي»^(٣) وهذا وجه في ترتيبها وهو اشتراكها في قدم النزول، وكونها مكية، وكونها مشتملة على الفصح.

وقد ظهر لي في وجه اتصالها بسورة النحل: أنه سبحانه، لما قال: ﴿إِنَّا جَوَدْنَا لَكُم بِالْآيَاتِ لَنُتَلَقُوا فِيهَا﴾ في آخر النحل^(٤) فسر في هذه شريعة أهل السبت وشأنهم؛ فذكر فيها جميع ما شرع لهم في التوراة، كما أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: «التوراة

(١) انظر هذا البحث في كتاب «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد الله أحمد عطا، دار الإحياء، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٤هـ/١٩٧٨م.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، ١٨٩/٦ من ابن مسعود؛ و«تلاد» التلهم.

(٣) الآية ١٢٤.

(٤) تفسير ابن جرير، ٢٤٣/١٧.



مرکز تحقیقات کتب و تراث اسلامی

مكتونات سورة الإسراء (*)

وقيل : العاقلة .

وقيل : قَوْمٌ مُؤْمِنُونَ ، بدليل إضافتهم إليه تعالى .

٢ - ﴿مَكَانًا جَاءَ وَنَحْنُ الْأَرْضِ﴾ (١١٧)

٧-

١ - ﴿بَيْنَا عَلَيْكُمْ مِيثَاقًا﴾ (١١٧) .

قال ابن عباس وقشاعة : بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِم جالوت . أخرجه ابن أبي حاتم .

وفي «المعاني» للكثير ماسي ، قيل : هم سَحَابِيْبُ^(١) وجنوده^(٢) .

(١) انكبي هذا المبحث من كتاب منقولات الأثران في منقولات القرآن للسيرافي ، تحقيق إمام خالد الطخار ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، غير مؤرخ .

(٢) كلها في السيرافي كثيرة .

(٣) عراء الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢٥/٣ إلى سعيد بن جبير ، ثم قال الحافظ بعد ذلك : «وقد ذكر ابن أبي حاتم - أي في «تفسير» له - أي سحلاب ملك الموصل - قصة عبيدة ، في كيفية تركه من حال إلى حال ، في أنه ملك البلاد ، وأنه كان غيراً مقعداً ، ضعيفاً يستعطي الناس ويستسلمهم ، ثم كان به الحال إلى ما كان ، وأنه سار إلى بلاد بيت المقدس ، فقتل بها خلقاً كثيراً من بني إسرائيل ! وقد روى ابن جرير إلى هذا المكان حديثاً ، أسنده عن حليمة مرموعة مَظْلُومٌ وهو موضوع لا محالة ، لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث ، والمعجب كل العجب ، كيف راج عليه ، مع جلالة قدره وإيمانه ، وقد صرح الحافظ العلامة أبو المصباح الورقي رحمه الله بأنه موضوع مَكْذُوبٌ ، وكذب ذلك على حاشية الكتاب . وقد وردت في هذا أثر كثيرة إسرائيلية ، ثم أر تطويل الكتاب بذكرها ، لأن منها ملغى موضوع من وضع بعض وثائقهم ! وسها ماقد يحتمل أن يكون صحيحاً ، وسن في ضية عنها وفي الحمدة . ثم ذكر ابن كثير رواية ابن جرير عن سعيد بن المسيب ، وهي قول سعيد بن المسيب : «ظهر بُشْتَرٌ على الشام ، فقتل بيت المقدس ، وقتلهم ! ثم أتى دمشق فوجد بها ثماً ينفي على كذا ، فسألهم ما هذا الدم ؟ فقالوا : أبركا أيماننا على هذا ، كلما ظهر عليه الكفا ظهر ، قال : فقتل على ذلك الدم سبعين ألفاً من المسلمين ، وغيرهم فسكر » قال ابن كثير : «وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب » وقال أيضاً : «وهذا هو المشهور» .

قال عطية ومجاهد. يثت عليهم في
الآخرة يُخَشَّصُوا. أخرجه ابن أبي
حاتم.

٣ - ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾
[الآية ٥٦].

قال ابن عباس: عيسى وأمه،
وعزير. أخرجه ابن أبي حاتم^(١).

٤ - ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَوْتَى فِي الْقَرْيَةِ﴾
[الآية ٦٠].

قال ابن عباس: هي شجرة الزقوم
أخرجه ابن أبي حاتم^(٢).

٥ - ﴿وَلَا كَذِبًا يُفْسِدُونَ﴾ [الآية
٧٧]

نزلت في رجال من قريش، منهم:
أمية بن خلف، وأبو جهل. أخرجه ابن
أبي حاتم، عن ابن عباس^(٣).

٦ - ﴿لَا كَذِبًا يُفْسِدُونَ﴾ [الآية
٧٧].

نزلت في اليهود كما أخرجه البيهقي
في «الدلائل»، من مرسلي عبد الرحمن
ابن عثم^(٤).

٧ - ﴿مَدَحًا صِدْقًا﴾ [الآية ٨٠].

قال مكر الوزاق^(٥) المدينة؛

قال: و: ﴿مَدَحًا صِدْقًا﴾ [الآية ٨٠]:
مكة. أخرجه ابن أبي حاتم^(٦).

٨ - ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الآية ٨٥].

أخرج الشيخان^(٧) وغيرهما عن ابن
مسعود: أن السائلين اليهود.

وأخرج الترمذي^(٨) عن ابن عباس:
أنهم قريش.

(١) وفي التفسير الطبري ١٥/٧٢ من طريق المولى، عن ابن عباس، قوله تعالى: ﴿وَلَا كَذِبًا يُفْسِدُونَ﴾ في ذلك
بَيِّنَاتٌ لِّكُلِّ أَهْلٍ مِنْكُمْ لَا تَمِيلُوا عَلَيْهَا. قال: كان أهل الشرك يقولون لعبد الملائكة وعزير، وهم الذين
يُدْعَوْنَ يسي الملائكة والمسيح وعزير.

(٢) والبحاري في صحيحه، برقم (٤٧١٦) في التصوير، والترمذي برقم (٣١٣٣) في التفسير، والرازي في أسباب
البروك، ٢١٨.

(٣) في التفسير الطبري ١٥/٨٨ ح. أنهم من قريش.

(٤) حقه الحافظ ابن كثير في «تفسيره» ٣/٥٣، غير كونه مرسلاً، فأنظر.

(٥) مكر بن عثم، الوزاق، أبو رجاء، القسبي مولاهم، الحراني، سكن الحيرة، كان صدوقاً في حديث، كثير
الخطأ، مات سنة ١٢٥.

(٦) وأخرج ترمذ، الترمذي (٣١٣٨) وأحمد عن ابن عباس. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٧) البخاري (٤٧١٦) في التصوير، وسلم في حقه القليلة (١١٢).

(٨) برقم (٣١٣٩) في التصوير في «سننه» وقال هذا حديث حسن صحيح، غريب من هذا الوجه.

٩ - ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ يَا مُحَمَّدٌ فَقَجَّرَ
لَهُ﴾ [آية ٩٠].

سَمِعَ ابْنُ عَبَّاسٍ، مِنْ قَائِلِي ذَلِكَ
عَبْدَ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ. أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي
حَاتِمٍ ^(١).

١٠ - ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ جُنَاحٌ﴾ [الآية
١٠١].

قال ابنُ عباس: هي الطُوفان،
والجَزَاد، والقُمَّل، والضَّفَادع، والدم،
والغَصَاء، واليَد، والسنون ^(٢)، ونقص
من الثمرات. أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ^(٣)
وَأَخْرَجَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: كَانَ
بَيْنَ كُلِّ أَمْنَيْنِ مِنْ هَذِهِ التَّسْعِ، ثَلَاثُونَ
يَوْماً. وَأَخْرَجَ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ، قَالَ:
كَانَتْ فِي تِسْعِ مَنِينٍ، فِي كُلِّ سَنَةِ آيَةٌ.

(١) انظر «تصريح ابن كثير» ٦٢/٣.

(٢) السنون الجندب.

(٣) قال ابن كثير: «وعندما تقول ظلم جلي»، حسن قوي.



سازمان اسناد و کتابخانه ملی
جمهوری اسلامی ایران

لغة التنزيل في سورة «الإسراء» (١)

١ - قال تعالى: ﴿فَبَاثِلُوا كُفْلًا﴾ [الأنعام ٥]

قُرئ: فحاشوا بالحاء المهملة، وليس هذا من باب الإبدال الذي يعرض لقرب مخارج الأصوات، كالعين والهمزة، والحاء، والهاء، والثاء، والشاء، والسين، والشين، وقد يكون لقرب صفة الصوت من صفة أخرى.

وعلى هذا، فإن «جاسوا» كلمة برأسها، و«حاسوا» كلمة أخرى، وإن اتفق المعنى.

٢ - وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِهَا مَا عَلَوَا نَبِيًّا﴾ [التين ١٠].

أي لهلكوا كل شيء غلبوه واستولوا

عليه (١).

٣ - وقال تعالى:

﴿رَبُّكَ أَتَىٰ بِمَا فِي مَوْبِعِ الْكُفْرِ حَبْلِينَ﴾ [التين ١٠] يريد بـ «الأوابين» «التولين».

وعن سعيد بن جبير: هي في البادرة تكون من الرجل إلى أبيه، لا يريد بذلك إلا الخير.

وعن سعيد بن المسيب، الأواب: الرجل كلما أذنب بادر بالتوبة. ويجوز أن يكون هذا عاماً لكل من فُرِطَتْ منه جناية ثم تاب منها، ويندرج فيه الجاني على أبويه، الثالث من جنايته لوروده على أثره.

(١) انظر هذا المبحث من كتاب من دمع لغة التنزيل، لإبراهيم السخري، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(٢) انظر الآية ١٣٩ من سورة الأعراف.

أقول: وفي هذه الدلالات كلها على التفانيها، نلمح الفعل «آب» بمعنى رَجَعَ.

٤ - وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَنْتُمْ لِيَوْمٍ تُرْجَعُونَ إِلَيْهِمْ وَأَنْتُمْ عَنْ قَتْلِهِمْ كَانُوا مُجْتَنِبِينَ﴾.

الخطأ: هو الإثم، وقُرئ الخطأ مثل المَعْدَر، وخطأه بالفتح والكسر مع المد، والخطأ بالفتح وحذف الهمزة.

أقول: والخطأ: هو الاسم كالمخطأ والخطيء.

٥ - وقال تعالى: ﴿وَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّينَ أَكْثَرُ أَنْ يُفْقَهُوا﴾ [الآية ٤٦].

في هذه الآية، معنى المنع من الفقه، فكأنه قيل: ومنعناهم أن يفقهوه، والتقدير كراهة أن يفقهوه. وقوله تعالى: ﴿وَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّينَ أَكْثَرُ﴾، فيه معنى المنع.

٦ - وقال تعالى: ﴿فَيَسْأَلُونَكَ عَنْهُمْ قُلْ إِنَّهُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ﴾ [الآية ٥١] أي يحركون نحوك رؤوسهم تعجباً واستهزاء.

ونعص الشئ: ينفض نفضاً، ومُعرضاً، ونمضاتاً، ونمض، والنمض، بمعنى تحرك واضطرب. ونمضت أسناني، أي: قلیفت

وتحرکت. ونمض فلان رأسه بتعدي، ولا بتعدي.

٧ - وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْأَلُكُمْ﴾.

وزُور والزُور: الكتاب، وهو بمعنى مفعول، أي المزبور، والجمع زُبر، وزُبرت الكتاب كتبه.

٨ - وقال تعالى: ﴿فَالْأَنْفُسُ كَذِبٌ﴾. قال ابن عباس: هذا الذي كذبت على لسانهم، أي كذبته، لم تكلمهم، لأنهم كذبوا أنفسهم، ولا يكذبون.

والمعنى: أخبرني عن هذا الذي كرمته علي، أي فضلت، لم تكلمه علي، وأما خير منه؟

ثم قال تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾، أي لا تشأصلنهم بالإغواء. وهذا من قولهم: احتشك الجراد الأرض، إذا جرد ما عليها أكلاً، وهو من الحشك.

٩ - وقال تعالى: ﴿وَلْيَبْشِرُوا بَلَدَهُمْ﴾ [الآية ٦٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَبْشِرُوا﴾ من الجلبة، وهي الصياح.

والمراد بـ «الخيل» الخبالة، أي الفرسان، ومنه قول النبي (ص): «يا خيل الله اركبي».

والرَّجُل: اسم جمع للرجال كالركب والصَّحْب، وقرئ: ورجلك.

على أن قَبلاً بمعنى قاعل، نحو: نَجَتْ وتاعب.

ومعناه: وجمعك الرَّجُل، وتَضَمَّ جيمه أيضاً، فيكون مثل حديث وَحَلْتُ، وتَلَسَّ، وتَلَسَّ، وفطِن وفطِن.

١٠ - وقال تعالى: ﴿أَمْ أَلْبَسْتُمْ أَنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ فِيهِ نَارًا أَمْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ كَيْفًا مِنْ الْأَرْجِ فَيُتَرَقِّقَكُمْ بِهَا كَثُرَتْ ثُمَّ لَا يُحْذَرُوا لَكُمْ عَلَيْهَا يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾.

أقول: والتبعية: المتطالب.

ومنه قوله تعالى: ﴿عَلَيْنَا بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة/ ١٧٨) أي مُطَالِبَةٌ، قال الشَّافِعِيُّ (من بحر الوافر):

يَلْسُوهُ تَعَالَى الشَّرْقَيْنِ مِنْهَا
كما لا ذ العريم من التسبيح
ويقال: فلان على فلان تبعية،
أي ميطر عليه، مُطَالِبٌ له بعبقه.

١١ - وقال تعالى: ﴿وَلَنْ يَصْكَادُوا يُشْتَرَوْكَ مِنَ الْأَرْضِ لِتُخْرِجَكَ مِنْهَا﴾ (آية ٧٦). وقوله تعالى ﴿يُشْتَرَوْكَ﴾،

أي: لَيُزْعَجَنَّكَ بِعَدَاوَتِهِمْ وَمَكْرِهِمْ.

أقول: قَرَّ فلاناً عن موضعه قَرّاً: أَرْغَبَهُ.

واشْتَفَرَّه: اسْتَحْفَه وأحزجه من داره^(١) وأزغجه، وأفرزته: أَرْغَبَهُ.

وللاستفزاز في الحرمة المعاصرة خصوصية دلالية، فهو التحريش والإيذاء، بقصد إثارة الخصم، ليقول شيئاً أو يفعل، يقال استَفَرَّ القوي الضعيف، بمعنى ظلمه واعتدى عليه من غير سبب، ليحملة على أن يفعل شيئاً، فيحل عليه ظلمه واضطهاده.

٢ - وقال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْكُفْلُ إِنَّ الْكُفْلَ كَانَ زُحُوتًا﴾. وقوله تعالى: ﴿وَزَهَقَ الْكُفْلُ﴾ أي: كان مُضْمَجلاً.

أقول: والفعل «زهق» في الآية من قولهم، كما أشرنا: «زَهَقَتْ نَفْسُهُ» إذا خَرَجَتْ.

و «الزُّهْقُ» بمعنى خروج النفس، قد بقي شيء منه في الدارجة العراقية، يقال في هذه اللهجة العامية: فلان زهق (بإبدال القاف كافاً ثقيلاً) يريدون

(١) وإلى هذا المعنى، أشارت الآية العرسية ﴿فَلَا تَدْرِي لَنْ يَشْتَرِيَنَّكَ مِنْ الْأَرْضِ فَأَكْرِهَنَّ﴾ [١٠٣].

١٤ - وقال تعالى: ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ
يَتَّى يَسْ رُحْرِي﴾... [الآية ١٣]. المراد
بـ «الرُحْرِي» الذهب.

أقول: كأن البيت مزخرف بالذهب.
١٥ - وقال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسُ
قَتُورًا﴾.

أي ضيقاً بخيلاً.
أقول: في اللغة المعاصرة الأصل
المزيد فقُتِرَ وهو مُقْتَرٌ أي بخيل
ضيق.

عُضِبَ غضباً شديداً، حتى خرج عن
الحَدّ وتجاوز في السلوك. وهذا
الاستعمال الدارج ذو صلة أكيدة
بالكلمة الفصيحة القديمة التي لم يبق
لها أثر في المعصية الحديثة، اللهم إلا
ما كان قد أخذ من لغة القرآن،
واستعمل على غرار الآية.

١٣ - وقال تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُ
أَلَسْمَاءَ كَمَا رَضَتْ عَلَيْنَا كُنُفًا أَوْ تَأْتِي
بِأَفْوٍ وَتَكْذِبُنَا فَبِلَا﴾. والقبيل:
الكفيل بما تقول، شامداً بصنعه.

المعاني اللغوية في سورة «الإسراء» (*)

وقال تعالى: ﴿ذُنُوبُهُمْ وَيُكْفِّرُهُمُ﴾ (الأنعام ١١) ينصب «الدعاء» على الفعل، كما تقول «إِنَّكَ مُتَعَلِّقٌ بِالطَّلَاقِ»^(١).

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْهَرُهَا﴾ (الأنعام ٢٣) ويقال: «نهزه» و «انتهزه» «يتنهزه».

قال تعالى ﴿إِنْ فَتَنَّاكَ فَتَمَنَّاهُ فَسَدَّ خَطَاكَ﴾ (الأنعام ٣١) من «خطئ» «بخطأ» تفسيره: «الذنب» وليس في معنى: «أخطأ» لأن ما أخطأت فيه ما صنعتته خطأ «خَطِئْتَ» فيه ما صنعتته عمداً، وهو الذنب. وقد يقول ناس من العرب: «خَطِئْتُ» في معنى «أَخْطَأْتُ»^(٢) قال امرؤ القيس [من الرجز وهو الشاهد التاسع والثلاثون بعد المئين]:

قال تعالى: ﴿مُبَحَّنَ الْآيَةِ نَسِينٌ﴾ (الأنعام ١١) يقال «أَسْرَنْتُ» و «سَرَنْتُ».

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ هُمُ السَّيِّئُ﴾ (البقرة ١٠٠) أي، والله أعلم، قُلُوبُهَا مُعْتَدِ «مُبَحَّنَ الْآيَةِ نَسِينٌ» يسويهم. وقل: ﴿إِنَّهُمْ هُمُ السَّيِّئُ الْبَهِيمُ﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿فَمَا جَاءَ وَقَدْ كُنْتُمْ﴾ (الأنعام ٥) و «الأولى» مثل «الكبرى» يُتَكَلَّمُ بها بالالف واللام، ولا يقال «هذه أولى».

والإضافة تحاقب الألف واللام، فلذلك قال سبحانه ﴿كُنْتُمْ﴾، كما تقول «هذه كُتُبُنا» و «كُتُبُنا» و «كُتُبُنا».

(*) انظر علماء المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأسمش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة الهدف العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ.

(١) نقله في إعراب القرآن ٥٧٨/٢.

(٢) نقله في زاد المسير ٣١/٥.

يَا لَهْفَ نَفْسِي^(١) بِذِ خَطِيئَتِي كَابِلَا
الْفَالِيزِ السَّمْلِكِ الْحَلَا جَلَا
تَايْ لَا يَلْقَبُ شَيْخِي بِاجَلَا
وقال آخر^(٢) من الكامل وهو الشاهد
الأربعون بعد المشتين:

وَالسَّاسُ يَلْحَوُونَ الْأَيْسَرَ إِذَا هُمْ
حَبِطُوا الصُّوَابَ وَلَا يَلَامُ الْمُرْتَدُ^(٣)
وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقَفْ مَا تَسْ لَكَ
بِهِ، وَلَمْ يَنْ أَتَمَّعْ وَالْمَرْ وَالْمَرْادُ كُلُّ
أَوَّلِيكَ كَانَ مَعَهُ مَسْوَلًا^(٤)﴾ ﴿أَوَّلِيكَ﴾
هذا، وأشباهه مذكراً كان أو مؤنثاً،
تقول فيه «أولئك». قال الشاعر^(٥) [من
الكامل وهو الشاهد الحادي
والسبعون]:

دُفِئِي الْمَنَازِلَ بِمَعْدَ شَرْكَ لَوْئِي
وَالْمَعِيشَ بِغَدَ أَوْلِيكَ الْأَيَّامِ^(٦)
وهذا كثير.

وقال تعالى: ﴿جِبَابًا مَسْتُورًا^(٧)﴾
فالقاعل قد يكون في لفظ المفعول كما
تقول: «إِنَّكَ مَسْزُومٌ عَلَيْنَا» و«ميمون»
وإنما هو «شائم» و«يأس»، لأنه من
«شائمهم» و«يَمْتَنُهُم» و«الحجاب» ههنا
هو الساتر؛ وقال سبحانه ﴿وَلَهَا فَرَاتٌ
الْفَرَمَانُ جَمَلًا يَبْكُ وَيَنْ أَلَيْسَ لَا يُؤْمِنُ
بِالْآخِرَةِ جِبَابًا مَسْتُورًا^(٨)﴾
(مسئوراً)^(٩).

وقال تعالى: ﴿سُبْحَنَكَ وَقَتْلَ مَا
يَقُولُونَ عُلُوًّا كَيْدًا^(١٠)﴾ فقال «علوًّا» ولم
يقبل «تعالياً» كما قال ﴿وَقَتْلَ إِيَّاهُ
تَجَنُّبًا^(١١)﴾ (فترتل). قال الشاعر [من
الكامل وهو الشاهد الحادي والأربعون
بعد المشتين]:

أَنْتَ الْفِدَاءُ لِحُكْمَةٍ هَدُنُفْهَا
وَنَفَرْتُهَا بِبَيْتِكَ كُلُّ مُنْفَرٍ

(١) ورد هذا الترجع، في ديوان امرئ القيس ص ١٣٤، بلفظ «هتبه بدلاً من لفظ «نفس» ومع تقديم المصراع الثالث، ولفظ «تواه»، وتلحق المصراع الثاني، وجاء بلفظ «هتبه» في اللسان، ملحق «خطاه أيضاً» فيذ أن اللسان لم يذكر إلا المصراع الأول.

(٢) هو عبيد بن الأبرص، ديوانه ٤٢.

(٣) قيلت في الديوان: إذا غوى حطب الصواب، ولا شاهد فيه؛ وورد في اللسان، ملحق «أمر» كما روى الأحمش.

(٤) هو جرير بن عطية الأبرص، التميمي (ت ١١٠ هـ/٧٢٨ م).

(٥) ديوان جرير ص ٩٩٠. وفيه «هتْم» مكان «دُفِئِي»، و«الأيام» مكان «الأيام».

(٦) نقله في إعراب القرآن ٥٨٥/٦، والبحر ٤٢/٦.

سَخَّ الْحَمَامُ مَقِيلَهُ مِنْ سَفْهِهَا
وَمِنْ السَّطِيمِ فَطَلَّ كُلُّ مُطِيرٍ^(١)

وقال الآخر [من الرجز وهو الشاهد الثاني والأربعون بعد الميتين]:

يَجْرِي عَلَيْهَا أَيْمًا بِجَرَاهِ

وقال الآخر^(٢) [من الوافر وهو الشاهد الثالث والأربعون بعد الميتين]:

وَحَبِيرُ الْأَمْرِ مَا اسْتَطْبَلَتْ مِنْهُ
وَلَيْسَ بِأَلْ نَسْفَةُ أَتْبَاعِهَا

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْ جُرُوكَ﴾ [الآية ١٧] «الْجُرُوكُ» فَعْلَمَهُمْ كما تقول: «مَنْ قَوْمٌ رَضَى» وإنما «الرَضَى» فَعْلَمَهُمْ.

وقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِيَسْأَدِي يَقُولُوا أَلَيْ هَذَا أَحْسَنُ﴾ [الآية ٥٣] بجعله جواباً للامر^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَوَيْلًا لِمُؤَيَّدَاتٍ تَلْقَى مِثْرًا

فَطَلَمُوا بِهَا﴾ [الآية ٥٩] يقول فيها كَأَنَّ طَلَمَهُمْ^(٤) وَالْمُبْصِرَةُ الْمُبْنَةُ، كما تقول: «الْمَوْضِعَةُ» وَالْمِثْنَةُ.

وقال تعالى: ﴿سِنَّةٌ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا فَنَلَقَ﴾ [الآية ٧٧] أَي: سَنَّاها سَنَةً^(٥). كما قال: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّحْمَتِكَ﴾ [الآية ٨٧].

وقال تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ [الآية ٧٨] أَي: والله أعلم، وَعَلَيْكَ قِرْآنُ الفجر^(٦).

وقال تعالى: ﴿يُؤَسِّرُونَ﴾ [٢٠] بِمَنْ «يُسِّر».

وقال جل شأنه: ﴿أَيُّهَا تَذْفُوا﴾ [الآية ١١٠] أَي: والله أعلم - أَيُّهَا تَذْفُوا.

وقال سبحانه: ﴿وَلْيَلْبِثْ عَلَيْهِمْ﴾ [الآية ٦٤] من «أَجْلَبْتُ» وهو في معنى «جَلَبْتُ»، والموصولة من «جَلَبْتُ» «يَجْلِبْتُ».

(١) ورد في السحب ٥١/١ و ٩٤ و ٣٠١، و ٦/٢ و ٦١. لبيت الأزل وحده مروياً عن الأخت غير معزو

(٢) هو القسامي ديوانه ٣٥، والكتاب وتصحيح عين الذهب ٢٤٤/٢، والمعجم في المصطلح ٣٠٩/٢ وفي البيان ١٧٣/٢ بدو حراً الأمر.

(٣) نقله في البحر ٢٩/٦.

(٤) نقله في راد المسير ٥٢/٥.

(٥) نقله في راد المسير ٧١/٥.

(٦) نقله في إعراب القرآن ٩٢/٢ والبحر ٧٠/٦، ونقله في المصطلح ٣٠٥/١٠ نسباً إليه إلى قرطاج

وقال تعالى ﴿إِنِّي أَنَا مَعَكُمْ فَلَا تَتُخَوِّعُوا عَلَيَّ فَتَكُونَ مِنَ الْمَرْغُوبِينَ﴾ [الأنعام: ١١٠] يقول: «أي الدعائين تَتَخَوَّعُوا عَلَيَّ الْأَنْمَاءُ الْمُحْسَنُ»^(١).

وَقَالَ مِسْحَانُهُ ﴿عَيْنِي أَلَمْ يَكُنْ مَعَكُمْ﴾ [الأنعام: ٧٩] و﴿عَيْنِي أَلَمْ يَكُنْ مَعَكُمْ﴾ [الأنعام: ٨] يقال «عَيْنِي» من الله واجبة.



(١) نقله في إعراب القرآن ٥٩٨/٢، والظاهر في الكشف ٧٠٠/٢.

لكل سؤال جواب في سورة «الإسراء» (*)

قصر الزمان الذي كان فيه الإسراء والرجوع، مع أنه كان من مكة إلى بيت المقدس مسيرة أربعين ليلة، وذلك لأن التذكير يدل على البعوضة، ويؤيده قراءة هبة الله وحذيفة، «الليل»: أي بعض الليل كقوله تعالى ﴿وَوَدَّ الْآيِلُ فَتَهَجَّدَ بِهِ بَلْدَةً مُعَذَّبَةً﴾ [الآية 79] فإنه أمر بالقيام في بعضه.

فإن قيل: أي حكمة في نقله (ص)، من مكة إلى بيت المقدس، ثم العروج به من بيت المقدس إلى السماء؟ ولم لم يُعْرَجْ به من مكة إلى السماء دفعة واحدة؟

قلنا لأن بيت المقدس مُحَرَّرُ الخلائق، فأراد الله تعالى أن يطأها الرسول (ص)، ليسهل على أمته يوم

إن قيل: لِمَ قال الله تعالى ﴿يَسْجُدُوا﴾ [الآية 1] ولم يقل «بنية»، أو «برسوله»، أو «بحبيبه»، أو «بصفته»، ونحو ذلك؟ مع أن المقصود من ذلك الإسراء، تعظيمه وتبجيله؟

قلنا: إنما سَمَّاهُ عبداً في أرفع مقاماته، وأجلها، وهو هذا؛ وقوله تعالى: ﴿فَلْيَرْجِعْ إِلَىٰ أَبِيهِ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ [النجم 21] لا تغفل فيه أنته، وتضل به كما ضلت أمة المسيح (ع) به، فدعته إلهاً. وقيل كي لا ينطرق إليه العجب والكبر.

فإن قيل: الإسراء لا يكون إلا بالليل، فما فائدة ذكر الليل؟

قلنا: فائدته أنه ذِكْرٌ مُّتَكَرراً يدل على

(*) انتهى هذا المبحث من كتاب «الشفقة القرآن المجيد وأجوده»، لمحمد بن أبي بكر الرافعي، مكتبة الباني للنسخ، القاهرة، طبع مؤرخ

القيامة وقضهم عليها، ببركة أثر قدسه (ص).

الثاني: أن بيت المقدس مجمع أرواح الأنبياء (ع)، فأراد الله تعالى أن يشرفهم بزيارته (ص). الثالث: أنه أسرى به إلى بيت المقدس، ليشاهد من أحواله وصفاته، ما يخبر به كفار مكة صبيحة تلك الليلة، فيدلهم إخباره بذلك، مطابقاً لما رأوا وشاهدوا، على صدقه في حديث الإسراء.

فإن قيل: لم قال الله تعالى ﴿بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الأية ٢١] ولم يقل باركاً عليه أو باركنا فيه، مع أن البركة في المسجد تكون أكثر من خارج المسجد، وحوله؟ خصوصاً المسجد الأقصى؟

قلنا: أراد سبحانه البركة الدنيوية، بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة، وذلك حوله لا فيه. وقيل أراد البركة الدنيوية، فإنه مقر الأنبياء (ع)، ومعتبدهم ومهبط الوحي والملائكة، وإنما قال جبل وعلا: ﴿بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ لتكون بركته أهم وأشمل، فإنه أراد بها حوله ما أحاط به من أرض بلاد الشام، وما قاربه منها، وذلك أوسع من مقدار بيت المقدس؛ ولأنه إذا كان هو الأصل، وقد بارك في لواحقه وتوابعه

من البقاع، كان هو مباركاً فيه بالطريق الأولي، بخلاف العكس. وقيل المراد البركة الدنيوية والدنيوية، ووجهها ما مر. وقيل المراد باركاً حوله، من بركة نشأت منه، فعنت جميع الأرض، فإن مياه الأرض كلها، أصل انفجارها من تحت الصخرة التي في بيت المقدس.

فإن قيل، ماوجه ارتباط قوله تعالى ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ عِندَنَا شُكُورًا﴾ ﴿١٠١﴾ بما قبله، ومناسبه له؟

قلنا: معناه لا تتخذوا من دوني رباً فتكونوا كافرين، ونوح كان عبداً شكوراً، وأنتم فريضة من آمن به، وحمل معه، فتناسوا به في الشكر، كما تناسى به آباؤكم.

فإن قيل لم قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الأية ١٧] ولم يقل: فعلها، كما قال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلَنَنصُرَهُ وَنَمُنَّ لَهُ نُصْرَةً مِّمَّا ضَلَّهَا﴾ [نمل/٤٦]؟

قلنا: اللام هنا بمعنى على، كما في قوله تعالى ﴿وَنُفِثَ لَنَبِيِّنَا﴾ [الصافات] وقوله تعالى ﴿يُجِزُّنَ لِأَدْنَاهُ﴾ [الأية ١٠٧] وقيل معناه، فلها رجاء بالرحمة، أو فلها خلاص بالتوبة والاستغفار، والصحيح، أن اللام هنا على بابها، لأنها للاختصاص؛ وكل عامل مختص

بجزاء عمله، حسناً كان أو سيئاً؛ وقد سبق مثل هذا مستوفى في آخر سورة البقرة، في قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ﴾ (الآية ١٢) وقال في قصة مريم وعيسى (ع) ﴿وَجَعَلْنَاهَا نَافِثَةً لِّالْمُكَذِّبِينَ﴾ (النساء) ﴿وَجَعَلْنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَبْدَيْنَا وَهُمَا مُتَّبِعَيْنِ﴾ (البقرة) مع أن عيسى (ع) كان وحده آيات شتى، حيث كلّم الناس في المهد، وكان مخفي الموتى بإذن الله، ويورث الأكمة والأبرص، ويخلق الطير وغير ذلك؛ وأنه وحدها، كانت آية، بحيث حملت من غير فعل؟

قلنا: إنما أراد به الآية التي كانت مشتركة بينهما ولم تنم إلا بهما، وهي ولادة ولد من غير فعل، بخلاف الليل والنهار والشمس والقمر. والثاني: أن فيه آية محذوفة، إيجازاً واختصاراً تقديره: وجعلناها آية وابنها آية، أي وجعلنا ابن مريم آية، وأنه آية

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا آيَةً الْبَهِارِ مُبِيرَةً﴾ (الآية ١٢) والإبصار من صفات ما له حياة؛ والمراد بآية النهار، إما الشمس وإما النهار نفسه؛

وكلاهما غير مبصر؟

قلنا: المبصرة في اللغة بمعنى المضئية، نقله الجوهري، وقال غيره معناه بيّنة واضحة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُنَّ آيَاتٌ تَمُودُ الْآفَاقَ مُبِيرَةٌ﴾ (الأنبياء ٥٩) أي آية واضحة مضئية، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبِيرَةٌ﴾ (النمل ١٣) الثاني، معناه: مُبَصِّرٌ بها إن كانت الشمس، أو فيها، إن كانت النهار، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارُ مُبِيرٌ﴾ (يس ٦٧) أي مُبَصِّرٌ فيه؛ ونظيره قولهم، ليل نائم ونهار صائم: أي ينام ويصام فيه. والثالث، أنه فعل رباعي منقول بالهمزة عن الثلاثي الذي هو بَصَرَ بالشئ: أي علم به فهو مبصر، أي عالم؛ معناه: أنه يجعلهم بصراء، فيكون أبصره بمعنى بصره، وعلى هذا حمل الأحفش قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبِيرَةٌ﴾ (النمل ١٣) أي تُبَصِّرُهُمْ، فتجعلهم مُبَصَّرًا. الرابع، أن بعض الناس زعم أن الشمس حيوان له حياة وبصر وقدر، وهو متحرك بإرادته امتثالاً أمر الله تعالى، كما يتحرك الإنسان.

فإن قيل: ما الحكمة في ذكر عدد السنين، مع أنه لو اقتصر على القول

لتتعلموا الحساب، دخل فيه عدد
السنين، إذ هو من جملة الحساب؟

قلنا: العدد كله موضوع الحساب،
كبدن الإنسان فإنه موضوع الطب،
وأفعال المكلفين موضوع الفقه،
وموضوع كل علم مغاير له، وليس
جزءاً منه. كبدن الإنسان ليس جزءاً من
الطب، ولا أفعال المكلفين جزءاً من
الفقه؛ فكذا العدد، ليس جزءاً من
الحساب؛ وإنما دُكرَ عددُ السنين وقُدِّمَ
على الحساب، لأن المقصود الأصلي
من محو الليل وجعل آية النهار
مبصرة، علم عدد الشهور والسنين، ثم
يتفرع من ذلك علم حساب التاريخ،
وضرب العدد والأجال.

فإن قيل: لم قال الله تعالى ﴿كَفَىٰ
بِتَقْوِكَ الْيَوْمَ مَكَّةَ حَبِيبًا﴾ وقال في
موضع آخر ﴿كَفَىٰ بِنَا حَبِيبًا﴾؟
(الأنبياء ٩٢)

قلنا: مواقف القيامة مختلفة، ففي
موقف يَكْفِيُ الله، سبحانه، حسابهم إلى
أنفسهم، وعلمه محيط به؛ وفي موقف
يحاسبهم، هو جل جلاله. وقيل إنه
سبحانه هو الذي يحاسبهم لا غيره،
وقوله تعالى ﴿كَفَىٰ بِتَقْوِكَ الْيَوْمَ مَكَّةَ
حَبِيبًا﴾، أي يكفيك أنك شاهد

على نفسك بتقويعها، عالم بذلك؛ فهو
توبيخ وتقرع، لا أنه تفويض لحساب
العبد إلى نفسه. وقيل من يريد مناقشته
في الحساب يحاسبه بنفسه، ومن يريد
مسامحته فيه يكل حسابه إليه.

فإن قيل: قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ
وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام/١٦٤) ويرد ما جاء في
الأخبار، أن في يوم القيامة يؤخذ من
حسنات المغتاب والمديون، ويزاد في
حسنات رب الثمن والشخص الذي
أعْتَبِب، فإن لم تكن لهما حسنات
يوضع عليهما من سيئات خصميتهما،
وكذلك جاء هذا في سائر المظالم؟

قلنا المراد من الآية، أنها لا تحمله
اختياراً كذاً على الكافرين؛ حيث قالوا
لنلبن آمنوا، كما ورد في التنزيل
﴿الْيَوْمَ سَوِّمْنَا وَنَحْوِلَ عَلَيْكُمْ﴾
(المنكوت/١٢)، والمراد من الخبر، أنها
تحمله كرهاً، فلا ثنائي؛ وقد سبق هذا
مرة في آخر سورة الأنعام.

فإن قيل: لم قال الله تعالى ﴿أَمَّا
مَنْ مَرَّهَا فَفَسَّحُوا فِيهَا﴾ (الأنبياء ١٦) وقال في
آية أخرى ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ
بِالْفَحْشَاءِ﴾ (الأمر/٢٨).

قلنا: فيه إضمار تقديره أمرناهم
بالطاعة ففسحوا. وقال الزجاج، ومثله

قولهم أمرته فعصاني، وأمرته فخالفتني، لا يفهم الأمر بالمعصية ولا الأمر بالمخالفة. الثاني: أن معناه كثرنا مترقيها، يقال أمرته وأمرته بالمد والقصر يعني كثرته وقد قرئ بهما، ومنه الحديث «حير المال مهرة مأمورة وسكة مأمورة»، أي كسيرة السراح والنسل. والثالث أن معناه أترنا مترقيها بالتشديد، يقال أترت فلاناً بمعنى أمرته: أي جعلته أميراً، فمعنى الآية سلطانهم بالإمارة، ويُعزّز هذا الوجه قراءة من قرأ (أمرنا) بالتشديد. وقال الزمخشري رحمه الله: لا يجوز أن يكون معناه أمرناهم بالطاعة فليست قوله لأن حذف ما لا دليل عليه في اللفظ غير جائز، فكيف يقدّر حذف ساكن الدليل في اللفظ على نقيضه، وذلك لأن قوله تعالى ﴿فَقَرَأْ﴾ يدل على أن المأمور به المحذوف، هو العسق، وهو كلام مستفيض، يقال أمرته فقام، وأمرته فقعده، وأمرته فقرأ، لا يفهم منه، إلا أن المأمور به القيام والقعود والقراءة؛ بخلاف قولهم أمرته فعصاني، وأمرته فخالفتني؛ حيث لا يكون المأمور به المحذوف المعصية والمخالفة؛ لأن ذلك منافٍ للأمر، مناقض له؛ ولا يكون ما يناقض الأمر

وينافيه مأموراً به، فيكون المأمور به في هذا الكلام غير مدلول عليه، ولا منوي؛ والمتكلم بمثل هذا، لا ينوي لأمره مأموراً به؛ بل كأنه قال: كان مني أمر، فلم تكن منه طاعة، أو كانت منه مخالفة؛ كما تقول: من زيدا يطلعك، وكما تقول: فلان يأمر وينهى، ويعطي ويمنع، ويصل ويقطع، ويضرب ويضغ؛ فذلك لا تنوي مفعولاً.

فإن قيل: على هذا، حقيقة أمرهم بالفسق، أن يقول لهم اسقوا؛ وهذا لا يكون من الله، فلا يقال يقدّر الفسق محذوفاً، ولا مأموراً به.

قلنا: الفسق المحذوف المحذور، مجاز عن إترافهم؛ وصب النعم عليهم صَبّاً، أقضى بهم إلى جعلها ذريعة إلى المعاصي، وسيلة إلى اتباع الشهوات؛ فكانهم أمروا بذلك، لما كان السبب في وجوده الإتراف، وفتح باب النعم.

فإن قيل: لم لا يكون ثبوت العلم، بأن الله لا يأمر بالفحشاء، وإنما يأمر بالطاعة والمدل والخير، دليلاً على المراد أمرناهم بالطاعة ففسقوا.

قلنا: لو جاز مثل هذا الإضمار والتقدير، لكان المتكلم مريداً من مخاطبه علم الغيب؛ لأنه أصمر ما لا

دلالة عليه في اللفظ، بل أبلغ، لأنه أضمر في اللفظ ما يناقضه وينافيه؛ وهو قوله تعالى ﴿فَتَسَوَّى﴾ فكأنه أظهر شيئا، وادعى إسماعيل نقيضه، فكان صرف الأمر إلى ما ذكرنا من المجاز، هو الوجه؛ هذا كله كلام الزمخشري، ولا أعلم أحدا من أئمة التفسير صار إليه غيره؛ ثم إنه أيّد فقال: ونظيره أمر «شاء»، في أن مفعوله استفاض فيه الحذف، للدلالة ما بعده تقول: لو شاء فلان لأحسن إليك، ولو شاء لأساء إليك، تريد لو شاء الإحسان لأحسن؛ ولو شاء الإساءة إليك لأساء، بالو ذهب تفسر خلاف ما أظهرت فتعني، ولو شاء الإساءة لأحسن إليك؛ ولو شاء الإحسان لأساء إليك؛ وتقول قد دلت حال من أسدت إليه المشيئة، أنه من أهل الإحسان دائما، ومن أهل الإساءة دائما: فيترك الظاهر المنطوق به، ويضمر ما دلت عليه حال صاحب المشيئة، لم تكن على سداد.

فإن قيل: على الوجه الأول، لو كان المضمر المحذوف الأمر بالطاعة كان مخصوصا بالمترفين، لأن أمر الله تعالى بالطاعة، عام للمترفين وغيرهم.

قلنا: أمر الله بالطاعة وإن كان عاما،

ولكن لما كان صلاح الأمراء والرؤساء وفسادهم، مستلزما لصلاح الرعية وفسادها غالبا، خصهم بالذكر. ويؤيد هذا ما جاء في الخبر «صلاح الوالي صلاح الرعية، وفساد الوالي فساد الرعية».

فإن قيل: قوله تعالى ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْإِسْلَامَ﴾ [١٨] يدل على أن من لم يزهد في الدنيا ولم يتركها، كان من أهل النار، والأمر بخلافه.

قلنا: المراد من كان يريد بإسلامه طاعته وعبادته الدنيا لا غير، ومثل هذا لا يكون إلا كافرا أو منافقا؛ ولهذا قال ابن جرير: هذه الآية لمن لا يؤمن بالمعاد، وأما من أراد من الدنيا قدر ما يتزود به إلى الآخرة، فكيف يكون مضموما؛ مع أن الاستغناء عن الدنيا بالكلفة وعن جميع ما فيها، لا يتصور في حق البشر، ولو كانوا أنبياء، فعلم أن المراد ما قلنا.

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عِقَابُ رَبِّكَ مَهْزُولاً﴾ أي مضموعا، ونحن نرى ونشاهد في الواقع، أن واحدا أعطاه قناطير مقطرة، وآخر منعه العطاء حتى المحية؟

قلنا: المراد بالعطاء هنا الرزق، والله

تعالى ساوى في ضمان الرزق وإيصاله، بين البز والفاجر والمطيع والمعاصي، ولم يمنع الرزق عن المعاصي بسبب عصيانه، فلا تفاوت بين العباد في أصل الرزق، وإنما التفاوت بينهم في مقادير الإهلاك.

فإن قيل: لم يمنع الله تعالى الكفار التوفيق والهداية، ولم يمنعهم الرزق؟

قلنا: لأنه لو منعهم الرزق لهلكوا، وصار ذلك حجة لهم يوم القيامة، بأن يقولوا لو أمهلتنا ورزقتنا، لبقينا أحياء فأما الثاني: أنه لو أهلكهم بمنع الرزق، لكان قد عاجلهم بالعقوبة، فيتعطل معنى اسمه العليم من معناه لأن الحليم، هو الذي لا يحجل بالعقوبة على من عصاه. الثالث: أن منع الطعام والشراب من صفات البخلاء الأخساء، والله تعالى منزّه عن ذلك. وقيل إعطاء الرزق لجميع الميّد عدل، وعدل الله عام، وهبته التوفيق والهداية فضل، وإن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى ﴿عِنْدَكَ﴾ من قوله سبحانه: ﴿إِنَّا يَلْقَاهُ عِنْدَكَ الْمَكِيدَ لَمُدَّهَا أَوْ كَلَّهَا﴾ [الأنعام: ٢٣]؟

قلنا: الحكمة أنهما يكبران في بيته وكنته، ويكونان كلاً عليه لا كافل لهما غيره، وربما تولى منهما من المشاق، ما كانا يتوليان منه في حال الطفولة.

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُؤْ﴾ [الأنعام: ٢٢] ولم يقل ولا تترنوا؟

قلنا: لو قال «ولا تترنوا» كان نهياً عن الزنى، لا عن مقدماته كاللمس والمعانقة والقبلة، ونحو ذلك، ولما قال ﴿وَلَا تَقْرُؤْ﴾ كان نهياً عنه وعن مقدماته، لأن فعل المقدمات قربان للزنى.

فإن قيل: الإشارة بقوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرُؤْ﴾ [الأنعام: ٢٢] على ما إذا تعود؟

قلنا: الإشارة إلى كل ما هو منهي عنه، من جميع ما ذكر من قوله تعالى ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ أَلَّا يَشْكُرَ﴾ [الأنعام: ٢٣] إلى هذه الآية؛ لا إلى جميع ما ذكر، فإن فيه حسناً وسيئاً، وقال أبو علي هو إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرُؤْ﴾ [الأنعام: ٢٦] وما بعده، لأنه لا حسن فيه.

فإن قيل: لم قال تعالى ﴿شَيْءٌ لَهُ أَكْتَرُ النَّاسِ الشَّيْءَ وَالْأَرْضَ وَمِنْ هُنَّ﴾ [الأنعام: ٤٤]؟

فَقَوْلُهُ جَلُّ شَأْنِهِ ﴿وَرَيْنَ مِنْهُ﴾ يَتَنَاوَلُ أَهْلَ الْأَرْضِينَ كُلَّهُمْ، وَالْمُرَادُ بِهِ الْعُمُومُ كَمَا هُوَ مُقْتَضَى الصِّفَةِ، بِدَلِيلِ تَأْكِيدِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى بَعْدَهُ: ﴿وَلَا يَنْفَعُ إِلَّا بِسُحْرِ يَهُودٍ﴾ [الْآيَةُ ٤٤]، وَالتَّسْبِيحُ هُوَ التَّنْزِيهِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِصِفَاتِ جَلَالِهِ وَكَمَالِهِ، وَالْكَفَّارُ يَضِيقُونَ إِلَيْهِ الزَّوْجَ وَالرَّوْلَدَ وَالشَّرِيكَ وَغَيْرَ ذَلِكَ، فَأَيُّنَ تَسْبِيحُهُمْ؟

قُلْنَا: الصَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَرَيْنَ مِنْهُ﴾ رَاجِعٌ إِلَى السَّمَاوَاتِ فَقَطْ. الثَّانِي: أَنَّهُ رَاجِعٌ إِلَى السَّمَكِ وَالْأَرْضِ، وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَرَيْنَ مِنْهُ﴾ بِمَعْنَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَيَكُونُ حَامِئاً أُرِيدَ بِهِ الْخَاصُّ، وَعَلَى هَذِهِ يَكُونُ الْمُرَادُ بِالتَّسْبِيحِ الْمُسْتَدُّ إِلَى مَنْ فِيهِ، التَّسْبِيحُ بِلِسَانِ الْحَقِّالِ. الثَّالِثُ: أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ التَّسْبِيحُ بِلِسَانِ الْحَالِ، حَيْثُ تَدُلُّ عَلَى وَجُودِ الصَّائِعِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، وَنَهَايَةِ حِكْمَتِهِ؛ فَكَأَنَّمَا تَنْطَلِقُ بِذَلِكَ، وَتَنْزِعُهُ حَمّاً لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ، وَمَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ السُّوءِ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَهُ: ﴿وَلَا يَنْفَعُ إِلَّا بِسُحْرِ يَهُودٍ﴾ [الْآيَةُ ٤٤]، وَالتَّسْبِيحُ الْعَامُّ لِلْمَوْجُودَاتِ جَمِيعِهَا، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ بِلِسَانِ الْحَالِ.

فَإِنْ قِيلَ: لَوْ كَانَ الْمُرَادُ هُوَ التَّسْبِيحُ بِلِسَانِ الْحَالِ، لَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ ﴿وَرَيْنَ لَا تَقْفَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الْآيَةُ ٤٤]، إِلَّا أَنَّ التَّسْبِيحَ بِلِسَانِ الْحَالِ مَقْشُودٌ لَنَا: أَيُّ مَقْشُودٍ وَمَعْلُومٌ؟

قُلْنَا: الْخَطَابُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَرَيْنَ لَا تَقْفَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ لِلْكَفَّارِ، وَهُمْ مَعَ تَسْبِيحِهِمْ بِلِسَانِ الْحَالِ، لَا يَفْقَهُونَ تَسْبِيحَ الْمَوْجُودَاتِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنَ التَّفْسِيرِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا جَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ وَزَوْجاً وَوَلَدًا، دَلَّ ذَلِكَ عَلَى عَدَمِ فَهْمِهِمُ التَّسْبِيحَ وَالتَّنْزِيهِ لِلْمَوْجُودَاتِ، وَعَدَمُ إِضْاحِ دَلَائِلِ الْوَحْدَانِيَّةِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلَّمَ عَلَى قُلُوبِهِمْ.

فَإِنْ قِيلَ: ﴿وَرَيْنَ مِنْهُ﴾ [الْآيَةُ ٤٤] وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَالْمَلَائِكَةُ يَسْبُحُونَ حَقِيقَةً، وَالسَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجَمَادَاتُ تَسْبُحُ مَجَازاً، فَكَيْفَ جُمِعَ بَيْنَ إِزَادَةِ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ مِنْ لَفْظٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَسْبُحُ﴾؟

قُلْنَا التَّسْبِيحَ الْمَجَازِي بِلِسَانِ الْحَالِ، حَاصِلٌ مِنَ الْجَمْعِ، فَيَحْمِلُ عَلَيْهِ دَفْعاً لِمَا ذَكَرْتُمْ مِنَ الْمَجَازِ.

فَإِنْ قِيلَ: لِمَ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُ لَهُمْ دَعْوَةً﴾ [الْآيَةُ ٥٢]

والمستعمل الشائع دعاء فاستجاب
لامره أو بأمره: أي أجاب؟

قلنا: قال ابن عباس رضي الله
عنهما: المراد بقوله تعالى ﴿يُخَوِّدُ﴾
بأمره. وقال سعيد بن جبير رضي الله
عنه: إذا دعا الله الخلاق للبعث،
يخرجون من قبورهم وهم يتغضون
الشراب عن رؤوسهم ويقولون:
سبحانك اللهم وبحمدك؛ وقال غيره
وهم يقولون: الحمد لله الذي صدقنا
وعده؛ فعلى هذا تكون الباء بمعنى
مع، كما في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ
بِالنَّجْمِ﴾ (الشمس/ ٢٠) وقوله تعالى
﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ (الجبر/ ٩٨).

فإن قيل: لم أجمل ذكر الآية
كلهم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَصَّلْنَا فِي
الْأَنْبِيَاءِ عَلَى بَيِّنٍ﴾ (الآية ٥٥) ثم حمض داود
بالذكر فقال تعالى: ﴿وَمَا يَنصُرُ
ذُرِّيَّتَهُ﴾. قلنا: لأنه اجتمع له مالم
يجتمع لغيره من الأنبياء، وهو:
الرسالة، والكتابة، والخطبة، والخلافة،
والملك، والقضاء، في زمن واحد؛
قال الله تعالى: ﴿وَوَعَدْنَا مُلْكًا وَمَا يَنْهَى
الْحِكْمَةَ وَقَصَلْ لِنُطَافٍ﴾ (ص) وقال
جل شأنه: ﴿يَمْدَادُ إِذَا جَاءَكَ عِلْفَةٌ
فِي الْأُكُودِ﴾ (ص/ ٢٦). الثاني: أن قوله

تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَصَّلْنَا فِي الْأَنْبِيَاءِ عَلَى
بَيِّنٍ﴾ (الآية ٥٥) إشارة إلى تفضيل
محمد (ص)، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا يَنصُرُ
ذُرِّيَّتَهُ﴾ (ص)، وهو أنه خاتم الأنبياء، وأن أمته
خير الأمم؛ لأن ذلك مكتوب في زبور
داود (ع)، وإليه الإشارة بقوله تعالى:
﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الْأُكُودِ
أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (ص)
[الأنبياء] يعني محمداً (ص) وأمه.

فإن قيل: لم نكر الزبور هنا، وعزله
في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي
الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الْأُكُودِ﴾ [الأنبياء/ ١٠٥] ؟

قلنا: يجوز أن يكون الزبور من
الأعلام التي تستعمل بالآلف واللام،
وبغيرهما، كالمناس والفضل والحسن
والحسين ونحوها؛ الثاني: أنه نكره هنا
لأنه أراد: وأتينا داود ببعض الزبور،
وهي الكتب، الثالث: أنه نكره لأنه
أراد به، ما ذكر فيه رسول الله (ص) من
الزبور، فسمى ذلك زبوراً؛ لأنه بعض
الزبور، كما سمي بعض القرآن قرآناً،
فقال تعالى: ﴿وَفَرَدْنَا وَقَعَةً﴾ (الآية ١٠٦)
وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ خَدًّا
الْقُرْآنِ﴾ (يس/ ٢٣) وأراد به سورة

يوسف: وقال: ﴿وَفَرَّكَانَ الْقَجَرَ﴾ [الآية ٧٨] أي القرآن المتلوة في صلاة الفجر.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَتْفَ النَّصْرِ صَكَّكُمْ﴾ [الآية ٥٦] مغني عن قوله تعالى ﴿وَلَا تَحْبِرُهُمْ﴾ [٥٧] لأنهم إذا لم يستطيعوا كشف الضر لا يستطيعون تعويله، لأن تعويل الضر نقله من محل، وإثباته في محل آخر، ومنه تحويل الفراش والمتاع وغيرهما، وكشف الضر مجرّد إزالة، ومن لا يقدر على الإزالة وحدها، فكيف يقدر على الإزالة مع الإثبات؟ والمراد بالآية كشف الضر والمرض والفتحط ونحوها؟

قلنا: التعويل له معنيان: أحدهما كما ذكرتم. والثاني التبديل، ومنه قولهم: حوّل القميص قباء، والفضة خاتماً؛ وأريد بالتبديل هنا الكشف، لأن في الكشف المنفي في الآية تبديلاً؛ فإن المرض متى كشف يبذل بالصحة، والفقير متى كشف يبذل بالغنّى، والفتحط متى كشف يبذل بالخصب؛ وكذا جميع الأصداد، فأطلق التبديل وأراد به الكشف، إلا أنه لم يرد به كشف الضر لئلا يلزم التكرار، بل أراد به مطلق الكشف الذي هو الإزالة،

يعني فلا يستطيعون كشف الضر عنكم، ولا كشفاً ما، ولهذا لم يقل ولا تحويله. وهذا الجواب ممّا فتح الله علي به، من خزائن جوده؛ ونظيره ما ذكرناه في سورة النحل، هي قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعِينُ مِنْ ذَوْنِ اللَّهِ مَا لَا يَمِشُ لَهُمْ يَنْكَا مِنْ التَّسْوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلَا يَسْتَلِيمُونَ﴾ [ص: ٨٥].

فإن قيل: قوله تعالى ﴿وَمَا مَعَنَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ صَكَّابَ يَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الآية ٥٩]. الآية فيها أسئلة: أولها أن الله تعالى لا يمنعه عما يريد من مانع، فإن أراد إرسال الآيات، فكيف يمنعه تكلب الأمم الماضية؟ وإن لم يرد إرسالها، يمكن وجود تكلبهم وعلمه سواء، ويمكن عدم الإرسال لعدم الإرادة. الثاني أن الإرسال يتعدى بنفسه، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا قَرَّبْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ [سورة التوب: ١١]. فأني حاجة إلى الباء؟ الثالث: أن المراد بالآيات هنا ما اقترحه أهل مكة على رسول الله (ص)، من جعل الصفا ذهباً، وإزالة جبال مكة، ليتمكنوا من الزراعة، وإنزال مكنوت من السماء، ونحو ذلك؛ وهذه الآيات، ما أرسلت إلى الأولين، ولا شاهدوها فكيف

كذبوا بها؟ الرابع: أن تكذيب الأولين، لا يمنع إرسالها إلى الآخرين، لجواز أن لا يكذب الآخرون. الخامس: أي مناسبة وأي ارتباط بين صدر الآية وقوله تعالى: ﴿وَأَنبِئْنَا نَمُودَ آلَافَةَ مِثْرَةٍ﴾ الآية ٥٩؟ السادس: ما معنى وصف الناقة بالإبصار؟ السابع: أن الظلم يتعنى بنفسه، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَمْلِكُ سَوَاءً أَوْ يَظْلِمُ قَسْرَةً﴾ [النساء/١١٠]. فأي حاجة إلى الباء ﴿فَمَلَكُوا بِهَا﴾ الآية ٥٩، ولم لَمْ يَظْلِمُ فَمَلَكُوا بِهَا يعني العقر والقتل، الثامن: أن قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ الآية ٥٩ يدل على عدم الإرسال بها؟

قلنا: الجواب عن الأول، أن المنع مجازٌ عُبر به عن ترك الإرسال بالآيات، كأنه تعالى قال: وما كان سبب ترك الإرسال بالآيات، إلا أن كذب بها الأولون. وعن الثاني: أن الباء لتعدية الإرسال إلى المرسل به، لا إلى المرسل، لأن المرسل محذوف وهو الرسول، تقديره، وما منعنا أن نرسل الرسول بالآيات، والإرسال يتعدى إلى المرسل بنفسه، وإلى المرسل به بالياء، وإلى المرسل إليه بوالى، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا

مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ ثَبِيرٍ﴾ الآية ١٧٠. وعن الثالث: أن الضمير في قوله تعالى ﴿بِهَا﴾ الآية ٥٩، عائد إلى جنس الآيات المقترحة، لا إلى هذه الآيات المقترحة، كأنه تعالى قال: وما منعنا أن نرسل بالآيات المقترحة، إلا تكذيب من قبلهم بالآيات المقترحة، يريد المائدة والناقة ونحوهما، مما اقترحه الأولون على أنبيائهم. وعن الرابع: أن سنة الله تعالى في عباده، أن من اقترح على الأنبياء آية، وأثو بها فلم يؤمن، جعل الله هلاكه والله تعالى لم يرد هلاك مشركي مكة، لأنه تعالى علم أنه يولد منهم من يؤمن، أو لأنه قضى وقدر في سابق علمه، بقاء من يُجِث إليهم محمداً (ص) إلى يوم القيامة، فلم أرسل بالآيات التي اقترحوها، فلم يؤمنوا، لأهلكهم، وحكمته اقتضت عدم إهلاكهم، فلذلك لم يرسلها، فيصير معنى الآية: وما منعنا أن نرسل بالآيات المقترحة عليك، إلا أن كذب بالآيات المقترحة الأولون، فأهلكوا، فربما كذب بها قومك، فأهلكوا. وعن الخامس: أنه تعالى لما أخبر أن الأولين كذبوا بالآيات المقترحة، عين منها واحدة

وهي نافذة صالح عليه السلام، لأن آثار ديارهم المهلكة في بلاد العرب قريبة من حدودهم، يبصرها صناديهم وواردهم. وعن السادس: أن معنى مبصرة دالة، كما يقال الدليل مرشدها وقيل مُبَصَّرًا بها، كما يقال ليل نائم ونهار صائم أي يُنام فيه ويُصام فيه، وقيل معناه مبصرة، يعني أنها تُبَصِّرُ الناس صحة نبوة صالح عليه السلام، ويُعزِّزُ هذا قراءة من قرأ (مُبَصَّرَةً) بفتح الميم والصاد: أي تبصرة. وقيل مبصرة صفة لأية محذوفة، تقديره: آية مُبَصَّرَةٌ: أي مضيئة بيّنة. وعن السابع: أن الباء ليست لتعدية الظلم إلى النافذة، بل معناه: فظلموا أنفسهم بقتلها أو بسببها، وقيل الظلم هنا الكفرية فمعناه: فكفروا بها، فلما ضمن الظلم معنى الكفر هذه تعديته. وعن الثامن: أن المراد بالآيات ثانياً المعبر والدلالات، لا الآيات التي اقترحها أهل مكة.

فإن قيل: لم قال تعالى ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ الآية ٦٠ وليس في القرآن لعن شجرة ما؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: والشجرة الملعونة المذكورة في القرآن. الثاني:

أن معناه: الملعونون أكلوها وهم الكفرة. الثالث: أن الملعونة يعني الملعونة، كذا قال ابن عباس رضي الله عنهما، وهي مذمومة في القرآن، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَسَجِدَ الْكُوفَةِ﴾ طعام الأبيي ﴿المدحار﴾ ويقول تعالى: ﴿طَلَمَهَا كَانَتْ ثُمُوشَ الشَّيْبِلِيِّ﴾ [المعاتن: الرابع]: أن العرب تقول لكل طعام مكروه أو ضار ملعون، وفي القرآن الإخبار عن ضررها وكراهتها. الخامس: أن اللعن في اللغة، الطرد والإبعاد، والملعون هو المحطود عن رحمة الله تعالى هذه الشجرة مطردة مبعدة، عن مكان رحمة الله تعالى وهو الجنة، لأنها قُتِلَ قمر جهنم، وهذا الإبعاد والطرد المذكوران في القرآن، بقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَنَّةِ﴾ [المعاتن]. وقال ابن الأثيري سُمِّيَتْ ملعونة، لأنها مبعدة عن منازل أهل الفضل.

فإن قيل: لم حص أصحاب اليمين بقراءة كتبهم بقوله تعالى: ﴿فَسْ أَوْيَ كِتَابِهِمْ يَسْمِعُونَ فَأُولَئِكَ يَفْقَهُونَ﴾ الآية ٧١ ولم خصهم بسمي الظلم عنهم، بقوله تعالى: ﴿وَلَا

يُظْلَمُونَ قَبِيلًا ﴿١٠١﴾ مع أن أصحاب الشمال يقرأون كتابهم ولا يظلمون أيضاً؟

قلنا: إنما خص أصحاب اليمين بذكر القراءة، لأن أصحاب الشمال إذا رأوا ما في كتبهم من الفضائح والقبائح، أخذهم من الحياء والخجل والخوف ما يوجب حبة اللسان، وتتمتع الكلام، والعجز عن إقامة الحروف، فتكون قراءتهم كـ «القراءة»؛ فأما أصحاب اليمين، فأمرهم على عكس ذلك؛ لا جرم أنهم يقرأون كتابهم أحسن قراءة وأبينها، ولا يقتنون بقراءتهم وحدهم، حتى يقول القارئ لأهل المحشر ﴿مَاءٌ لَرَبِّهَا يَكْبَتُ﴾ [الحاقة]. وأما قوله تعالى ﴿يُظْلَمُونَ قَبِيلًا﴾ فهو عائد إلى كل الناس، لا إلى أصحاب اليمين. الثاني: أنه عائد إلى أصحاب اليمين خاصة، وإنما خصهم بذلك، لأنهم يعلمون أنهم لا يظلمون، ويعتقدون ذلك؛ بخلاف أصحاب الشمال، فإنهم يعتقدون أو يظنون أنهم يظلمون، يعضد هذا الوجه قوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُ مِنَ الْأَلْهِيَةِ وَهُوَ مُؤَيَّدٌ فَلَا يَخَافُ عَذَابَ وَلَا هَضْمًا﴾ [الشع].

فإن قيل لم قال موسى (ع) لفرعون

كما ورد في التنزيل ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَزَلَّكَ كَذَابٌ﴾ يعني الآيات ﴿إِلَّا رَبُّكَ اسْتَنْزَلَ وَالْأَرْضُ بَصَائِرٌ﴾ [آية ١٠٢] يعني بينات وحججاً واصحات؛ وفرعون لم يعلم ذلك، لأنه لو علم ذلك، لم يقل لموسى عليه السلام كما ورد في التنزيل ﴿إِنِّي لَأَخْلُكُ بِتَوَسُّعِ سَعِيرٍ﴾ أي مخدوعاً، أو قد سحرت، أو ساحراً، مفعول بمعنى فاعل على اختلاف الأقوال، بل كان يؤمن به؛ وكيف يعلم ذلك، وقد طبع الله على قلبه وأصله، وحال بينه وبين الهدى والرشاد، ولهذا قرأ علي كرم الله وجهه ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ [آية ١٠٢] بضم التاء، وقال: والله ما علم عدو الله، ولكن حوسلى (ع)، هو الذي علم، واختار الكسائي وتعلب قراءة علي رضي الله عنه، ونصراها، بأنه لما نسيه إلى أنه مسحور، أعلمه بصحة عقله؟

قلنا: معناه لقد علمت، لو نظرت نظراً صحيحاً إلى الحجة والرهان، ولكنك معاند مكابر، تخشى فوات دعوى الإلهية لو صدقتني؛ فكان فرعون ممن أصله الله على علم، ولهذا بلغ ابن عباس قراءة علي رضي الله عنه ومعنيته، فاحتج بقوله تعالى ﴿وَيَعْتَدُوا

﴿وَأَسْتَفْتِيَهُمْ طَنًا وَعَلَنًا﴾ [الأنفال/ ١٨].

هنا قيل: لِمَ قال موسى (ع) كما ورد في التبريل ﴿وَلِي لَأُظَنِّكَ بِتَبَرَعَتِهِ﴾ مشهوراً ﴿موسى (ع) كان عالماً بذلك، لا شك عنده فيه؟

قلنا: قال أكثر المفسرين الظن هنا بمعنى العلم، كما في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة/ ٤٦] وإنما أتى بلفظ الظن ليعارض ظن فرعون بظنه، كأنه قال: إن ظننتني مسحوراً، فأنا أظنك مسحوراً، والمشهور

الهلك والمصروف عن الخبرات، أو الملعون والحاسر.

هنا قيل: لِمَ كثر تعالى الإخبار بالخروج^(١)؟

قلنا: كثره ليدل على تكرار الفعل منهم. الثاني: أنه كثره لاختلاف الحالين، وهما خروجهم في حال كونهم ساجدين، وفي حال كونهم باكين. الثالث: أنه أراد بالخروج الأول، الخروج في حالة صمغ القرآن وقراءته؛ والخروج الثاني، الخروج في سائر الحالات وباقيةا.

(١) الخروج مصدر خرج يقال خرج ساجداً، ومعنى خرج في هذا السياق، في الأصل سقط فكأن الذي يخرج ساجداً، يسقط، لفرط خشوعه، من علي، حيث هو واقف، إلى الأرض، ليسجد.

المعاني المجازية في سورة «الإسراء» (*)

وقال قوم: آية الليل، القمر خاصة. ومحوه: تصيير تلك الطمسة في صفحته، حتى نقص نوره عن نور الشمس، إنما تعلم الله سبحانه من المصلحة في ذلك. وآية النهار الشمس. وقال آخرون: بل آية الليل والنهار هذه هي الجملة، وظلمة هذا في الجملة. لأن الفسوة علامة النهار، والظلمة علامة الليل، على ما قدعنا ذكره.

والاستعارة الأخرى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَيْلَةَ الْكَافِرِ مُبِيرَةً﴾ وفي ذلك وجهان: أحدهما أن يكون المراد، أننا جعلناها مكشوفة القناع مبينة الإنصار،

في قوله سبحانه ﴿وَجَعَلْنَا الْيَوْمَ وَاللَّيْلَ مَبِيرًا فَحَرَوْنَا أَلْهِي وَجَعَلْنَا نَارَهُ الْكَافِرِ مَبِيرًا﴾ [الأنعام ١١٢] استعارتان إحداهما: قوله سبحانه: ﴿فَحَرَوْنَا نَارَهُ الْيَوْمَ﴾ والآية العلامة. والمراد بمحوها - والله أعلم - على قول بعضهم أي جعلنا ظلمة الليل مشكلة، لا يفهم معناها، ولا يعلم فحواها، إنما استأثر الله تعالى بعلمه من المصلحة المستسرة في ذلك.

وحقيقة المحو طمس أثر الشيء. من قولهم: محوئ الكتاب. إذا طمس سطره حتى يُشكّل على القارئ، ويحذف على الراي.

(*) انقضي هذا المبحث من كتاب «تلخيص البيان في معاني القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد المصطفى، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرخ.

على خلاف آية الليل إذ جعلناها
مُشْرِجَةً^(١) الغلاف، بهيمة الأطراف.

والوجه الآخر أن يكون معنى
مبصرة، أي يبصر الناس فيها،
ويهندون بها كما تقدم قولنا في قولهم،
نهار صائم، وليل نائم أي أهل هذا
صيام، وأهل هذا نيام. وكما يقولون:
رجل مُحْبَبٌ: إذا كان أهله وولده
خيّاه. ورجلٌ مُضَيِّفٌ: إذا كانت دوابه
وظهوره ضعفاء. فعلى هذا يسمى
النهار مبصراً، إذا كان أهله بصراء.
وقد مضى الكلام على مثل ذلك فيما
تقدم.

وقوله سبحانه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَرْتَبُهُ
طَعَامٌ فِي مَوْجٍ﴾ [الأنبياء ١٣] وهذه
استعارة. والمراد بالطائر طهنا، والله
أعلم، ما يعمله الإنسان من خير وشر،
ونفع وضر. وذلك مأخوذ من زجر
الطير على مناهب العرب. لأنهم
يتبركون بالطائر المتعرض من ذات
اليمين، ويتشامون بالطائر المتعرض
من ذات الشمال.

ومعنى ذلك أنه سبحانه يجعل عمل

الإنسان من الخير والشر، كالطوق في
عنقه، بإلزامه إياه، والحكم عليه به.
وقال بعضهم: معنى ذلك أننا جعلنا
لكل إنسان دليلاً من نفسه على ما يتناه
له، وهديناه إليه. والعرب تقيم العنق
والرقبة، مقام الإنسان نفسه. فيقولون
لي في رقبة فلان دم، ولي في رقبته
دين. أي عنده. وفلان أعتق رقبة، إذا
أعتق عبداً أو أمة. ويقول الداعي في
دعائه، اللهم أعتق رقبتي من النار
وليس يريد العنق المخصوصة، وإنما
يريد الذات والجملة.

وجعل سبحانه الطائر مكان الدليل
الذي يستدل به، على استحقاق الثواب
والعقاب، على عادة العرب التي
ذكرناها في التبرك بالسائح، والتشالم
بالبارح.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَنُفِثَ لَهَا جَنَّاتُ
أَدْنَىٰ مِن أَلْحَشَىٰ﴾ [الأنبياء ٢٤] وهذه
استعارة عجيبة، وعبرة شريفة. والمراد
بذلك الإغيات^(٢) للوالدين، وإلا تئ
القول لهما، والرفق واللطف بهما.

وحفض الجناح في كلامهم عبارة

(١) أخرج الشافعي: من معه إلى جنى وأسلم منه.

(٢) في المصوح

عن الخضوع والتذلل، وهما ضد العلو والتعزز. إذ كان الطائر إنما يخفض جناحه إذا ترك الطيران، والطيراني هو العلو والارتفاع. وقد يستعار ذلك لفرط الغضب والاستشاط. فيقال قد طار فلان طيرة، إذا غضب واستشاط. وقد أومأنا إلى هذا المعنى فيما تقدم.

وإنما قال سبحانه: ﴿وَأَنفِصْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّبْيِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ٢٤] ليبين تعالى أن سبب الذل لهما الرحمة والرحمة، لشأن يفتقر أنه الهوان والضراعة. وهذا من الأعراف الشريفة، والأسرار اللطيفة.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَحْتَلْ بِكَ مَنَاقِبُكَ لَكَ عِلْمٌ وَلَا يُغْنِيكَ عَنْكَ الْإِسْمُ﴾ [الأنعام: ٢٩] وهذه استعارة. وليس المراد بها اليد التي هي المجازعة على الحقيقة، وإنما الكلام الأول كتابة عن التفتير، والكلام الآخر كتابة عن التبليغ وكلاهما مذكوم، حتى ينف كل منهما عند حده، ولا يجري إلا إلى أمده. وقد فسر هذا قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَعُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَهُمْ ذَوَاتُ الْأَرْوَاحِ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقوله سبحانه: ﴿وَسَلَّنا عَلَى الْوُجُوهِ

أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوْا وَفِي كُنُوزِهِمْ نَضْرٌ﴾ [الأنعام: ٢٦]. وهذه استعارة لأنه ليس هناك على الحقيقة كِنَانٌ على قلب، ولا وَفْرٌ في سمع. وإنما المراد أنهم، لاستثقالهم سماع القرآن عند أمر الله سبحانه بنبيه عليه السلام بتلاوته على أسماعهم وإفراغه في آذانهم، كالذين على قلوبهم أكنة تؤد علمه، وفي آذانهم وقْرٌ دون فهمه، وإن كانوا من قبلي نفوسهم أثوا، وبسوء اختيارهم أخذوا؛ ولو لم يكن الأمر كذلك، لما قُتوا على أطراحه، وتغلبوا بالإضراب عن أسماعه.

وقوله سبحانه: ﴿عَسَىٰ أَهْلُهَا يَسْتَفْهِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧] وهذه استعارة لأن النجوى مصدر كالتقوى. وإنما وُصفوا بالمصدر، لما في هذه الصفة من المبالغة في ذكر ما هم عليه، من كثرة تناجيهم، وإسرار المكاييد بينهم، والصفة بالمصادر تدل على قوة الشيء الموصوف بذلك مثل قولهم: رجل رضاء وقوم عدل. وما يجري هذا المجرى.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَنفِصْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّبْيِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ٢٤]. وهذه استعارة. والمعنى: جعلنا الناقة آية مبصرة، أي

مبصرة للعاصي^(١) ومذكرة للتاسي، ومظنة لاعتبار المعبر، وتفكر المفكر. لأن من عجائب تلك النافذة تحض الصخرة بها من غير حمل بطن، ولا فرع فحل. وأنها كانت تقاسم ثمود الوردة فلها يوم، ولثمود يوم.

قال سبحانه: ﴿لَمَّا يَرَى الْوَرْدَ يَكْمُلُ يَوْمَ الْقِيَامِ﴾ (الشراء) فإذا كان يومها شربت فيه الماء مثلما كانت ثمود تأخذ أشفاصها^(٢) وزروعها، وأصراسها^(٣) وشروبها. وهذا من صوادح العبر، وقوارع النذر.

وقال بعضهم يجوز أن يكون معنى مبصرة فهنا أي ذات إصار واستأويلان يؤرلان إلى معنى واحد:

وقوله سبحانه عن إبليس: ﴿لَأَخْذِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا إِلَيْكَ﴾ وهذه استعارة على بعض التأويلات في هذه

الآية. وهو أن يكون الاحتناك ههنا افتحالا من الحنك. أي لأقودتهم إلى المعاصي، كما تقاد الدابة بحنكها، غير محتنة على قائدها. وهي عبارة عن الاستيلاء عليهم، والامتلاك لتصرفهم، كما يمتلك الفارس نصرف فرسه، شي العنان ناره، ويكبج اللجام مرة.

وقال يعقوب^(٤) في «إصلاح المنطق» يقال: حنك الدابة يحنكها حنكاً، إذا شد في حنكها الأسفل حبلاً يقودها به. وقد احتنك الدابة^(٥) مثل حنكها إذا فعل بها ذلك.

وقال بعضهم عن قوله تعالى: ﴿لَأَخْذِكَ ذُرِّيَّتَهُ﴾ أي لألقين في أحناكهم حلاوة المعاصي، حتى يستلذوها، ويرغبوا فيها ويطلبوها. والقول الأول أحب إلي.

وقال بعضهم: لأستاصلن ذريته

(١) العاصي اسم فاعل من حنا عن الشيء، أي أعرض وصدر عنه إلى غيره.

(٢) الأشفاص جمع شفاص بكسر الشين، وهو القطعة من الشيء لو من الأرض.

(٣) الأصرام جمع صرم بكسر الصاد، وهو الجماعة من الشيء أو من البيوت.

(٤) هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، المعروف بابن الشكيت، وكان أبوه من أصحاب الكوفي المشهور في اللغة والنحو أما صاحبنا فقد شهد له المؤرخون بالعلم العمير في اللغة والفصح والثناء في الرواية وكتابه «إصلاح المنطق» يقول فيه الشيرازي: «ما رأيت للفقهاء كنهاً أحسن من كتاب يعقوب بن الشكيت في المنطق» توفي سنة ٢٤٤ وقد طبع «إصلاح المنطق» طبعة موثقة بتحقيق الأستاذين أحمد محمد شاكر، وعبد السلام محمد هارون.

(٥) في «إصلاح المنطق» ص ٨٧ (وقد احتنك دابة).

بالغواية، ولاستقصين إهلاكهم بالضلال، لأن أتباعهم غيه وطاعتهم أمره، يؤولان بهم إلى موارد الهلاك، وعواقب البوار.

وقال الشاعر [بحر الرجز]:

لَشْكُرُ إِلَيْكَ سُنَّةٌ قَدْ أُجْحَقَتْ
وَاحْتَسَنْتُ أَسْوَائَنَا وَجَلَقْتُ^(١)
أَيُّ أَهْلَكَ أَسْوَائَنَا.

ويقال احتنكه إذا استأصله. ومن ذلك قولهم: احتنك الجراد الأرض.

إذا أتى على نبتها.

وقيل أيضاً: المراد بذلك، لا الحيقن عليهم مجاري الأنفاس من أحناكهم، بل إيصال الوسوسة لهم، وتنفأهف الإغواء عليهم. ويقال احتنك فلان فلاناً إذا أخذ بمجرى النفس من حنكه. فكان كالشُّبَّا^(٢) في مقلته والشُّجَا^(٣) في مُسْتَبَلِهِ.

وقوله سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ الشَّلَاةَ يُدْرِكُوا الْتَنِينَ إِنَّ عَنِّي لَأَيُّونَ﴾ [الآية ٧٨] وهذه استعارة. لأن الدالّك، المائل في كلامهم. فكأنه سبحانه أمر بإقامة الصلاة عند ميل الشمس. فقبل عند ميلها للزوال، وقبل عند ميلها للغرب، والشمس على الحقيقة لا تميل عن موضعها، ولا تزول عن مركزها، وإنما تعلو أو تنخفض، وترتفع بارتفاع العلك وانخفاضه، وسيره وحركاته.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَعَقُ الْكَافِرِينَ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوًّا^(٤)﴾.

وهذه استعارة. لأنهم يقولون: زَعَقْتُ نفس فلان إذا خرجت. ومنه قوله تعالى: ﴿وَزَعَقْ أُنْسَهُمْ وَقَدْ كَفَرُوا^(٥)﴾ (الشورى) فالمراد، والله أعلم، وهلك الباطل إن الباطل كان هَلُوكًا، تشبيهاً له بمن فاضت نفسه، وانتقصت بنيتها؛ لأن الباطل لا يسالك لذاته، ولا يملك لبناته.

(١) وره هذا الرجز في مساجد الترقية لأبي عبيد حكنا.

مشكرو إليك سنة قد أجمعت

جهداً إلى جهنم بنا فاجمعت

واحتسنت أسوأنا وجلعت

انظر مساجد الترقية، لأبي عبيد. طبعة ساني النعاني ص ١٢٨١ والرجز كذلك في التجميع لأحكام الترقية، ج ١ ص ٢٨٧. ولم ينسب أبو عبيد، ولا القرطبي، لتلك.

(٢) الشُّبَّا جمع شُبَّا، وهي حد السهم، فلو قدر ملطع به.

(٣) الشُّجَا ما يمرض العلق، فيشجى به.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ كُلٌّ بِسُئْلِ عَنْ شَاكِرِهِ﴾ [الأية ٨٤] وهذه استعارة، لأن الأولى أن يكون المراد ههنا بالشاكلة، والله أعلم، الطريقة التي تشاكل أخلاق الإنسان، وتوافق طبيعته. وذلك مأخوذ من الشاكلة، وجمعها شواكل، وهي الطرق المتسعة المتشعبة عن المحجة العظمى. فكان الدنيا ههنا مشبهة بالطريق الأعظم، وعادات الناس فيها وطباعهم التي جبلوا عليها مشبهة بالطرق المختلفة من ذلك الطريق، الذي هو المعمود، وإليه الرجوع.

وقال بعضهم: الشاكلة العلامة، وأنشد [بحر البسيط]:

بَدَتْ شَوَاكِلُ حُبِّ كُنْتُ تُضْمِرُهُ
فِي الْقَلْبِ أَنْ هَتَفْتُ فِي الذَّائِرِ زَرْقَاءَ
فَكَانَهُ تَعَالَى قَالَ: كُلٌّ يَحْمِلُ عَلَى
الدَّلَالَةِ الَّتِي نَصَبْتُ لَاسْتِدْلَالَه، وَالْأَمَارَةَ
الَّتِي رَفَعْتُ لَاهْتِدَائِهِ.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّكُمْ تَعْلَمُونَ حَرَائِجَ رَحْمَتِي رَبِّي إِنْكَ لَتَشْكُرُنَّ حَنِئَةً﴾ [الأية ١٠٠] وهذه استعارة، والمراد بالخزائن، ههنا، المواضع التي جعلها الله سبحانه وتعالى، جفجات لدور الرزق ومنافع الحلق. وإلى تلك المواضع ترفع الأيدي عند السؤال، والرغبات، واستندار الخير والبركات.

وقوله سبحانه: ﴿وَقَرَأَ مَا فُرْقَهُ لِقُرَّاءٍ عَلَى أَثْنَيْنِ عَنْ مَكْنِي﴾ [الأية ١٠٦] وهذه استعارة، ومعنى قُرَّاءة: أي يتناه للناس بتصنع مصباحه وشذوخ أوصاحه، حتى صار كمفرق الفرس في وضوح مَخْطئه^(١) أو كفرق الصبح في بيان منبججه.

وقال بعضهم: معنى فرقناه أي فصلناه سوراً وآيات. وذلك بمنزلة فرق الشعر وهو تمييز بعض من بعض، حتى يزول التباسه، ويتخلص الغلافه.

(١) المخط هو مكان الخط، لو افرق في مفرق الحصان

سورة الكهف





مرکز تحقیقات کتاب و اطلاع‌رسانی

أهداف سورة الكهف (*)

سورة مكية

المشهور بين العلماء أن سورة الكهف مكية كلها، وأنها من السور التي نزلت جملة واحدة كما جاء في الخبر الذي أخرجه الدلمي في إسناد الفردوس، عن أنس، عن النبي (ص) إذ يقول: «نزلت سورة الكهف جملة».

وقد رَوَى ذلك أيضاً عن بعض الصحابة، واختاره اللباني، ومضى عليه أكثر أهل التفسير والمتكلمين في علوم القرآن. وهناك روايات أخرى تخالف هذا المشهور فتقرر أن السورة مكية إلا بعض آياتها، فإنه مدني.

وفي المصحف الفولادي المطبوع بمصر، سورة الكهف مكية إلا الآية

٣٨، ومن الآية ٨٣ إلى الآية ١٠١ فكلها مدنية، وآياتها ١١٠ نزلت بعد الغاشية.

وقال الفيروزآبادي: «السورة مكية بالإتفاق، وفيها إحدى عشرة آية مختلف فيها بين مكيتها ومدنيّتها، وهي الآيات: ١٣، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٣٥، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٩، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥».

ويبغى أن يُعلم أن كثيراً مما ذكر أنه مدني فتضمنته سورة مكية، أو مكّي فتضمنته سورة مدنية، هو موضع خلاف بين العلماء لاختلاف الرواية فيه، أو لبناء الحكم فيه على اجتهاد واستنباط من القائل به وفي ذلك يقول ابن الحصار فيما نقله عنه السيوطي في الإتيان: «كل نوع من المكّي والمدني

(*) انقضى هذا البحث من كتاب «أهداف كل سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحات، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ - ١٩٨٤.

منه آيات مستثناة، إلا أن من الناس من اعتمد في الاستثناء على الاجتهاد دون النفس.

القصص في سورة الكهف

الْقَصَصُ هو العنصر الغالب في هذه السورة، ففي أولها تجيء قصة أصحاب الكهف، وبعدها قصة أصحاب الجنتين، ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس. وفي وَسَطِهَا تجيء قصة موسى مع العبد الصالح. وفي نهايتها قصة ذي القرنين. ويستغرق هذا الْقَصَصُ معظم آيات السورة فهو وارد في إحدى وسبعين آية من عشرين وثلاثين آية، ومعظم ما يتبقى من آيات السورة هو تعليق على الْقَصَصِ أو كَتْمِيبِ عليه.

ويلتقي هذا الْقَصَصُ حول فكرة أساسية للقرآن، وهي إثبات أن البعث حق، وأن المؤمن يكافأ بحسن الجزاء، وأن الكافر يلقى جزاء عنته وكفره في الدنيا أو الآخرة.

قصة أصحاب الكهف

في قصة أصحاب الكهف يتجلى صدق الإيمان، وقوة العقيدة،

والإعراض عن كل ما ينافيها إعراضاً عملياً صارماً، لا تروّج فيه ولا مواربة؛ فَنِيَّةُ رَأَوْا قومهم في الضلال يَغْمَهُونَ، وفي ظلمات الشوك يَخْطِطُونَ، لا حجة لهم ولا سلطان على ما يزعمون، أحسوا في أنفسهم عُيْرَةً على الحق لم يستطيعوا معها أن يظلوا في هذه البيئة الضالة بأجسامهم، ولو خالفوها بقلوبهم، فتركوا أوطانهم وتركوا مصالحهم واعتزلوا قومهم وأهلهم، وخرجوا فآزَنَ مجتنبين الشطط وأهل الشطط، وآثروا كهفاً بأروون إليه في مُجَرَّةٍ منه، لا يراهم فيه أحد، ولا يَلْسَمُهم في وحشتهم إلا كلبهم.

ذلك هو مغزى القصة السُّلُفي، وفيه ما فيه من إرشاد وإيحاء، وتمجيد لأخلاق الشرف والرجولة والثبات على العقيدة والتضحية في سبيلها.

أما المعنى العام الذي تتلاقى فيه القصة مع غرض السورة، فهو إثبات قدرة الله على مخالفة السنن التي ألَّفها الناس، وظنوا أنها مستعصية عليه جل شأنه، أن تُبَدِّلَ أو تُحَوَّلَ كما هي مستعصية على كل مخلوق؛ وشأن ما بين قدرة الخالق والمخلوقين، وهذا ما

موسى: يا ربِّ دلّني عليه حتى أذهب إليه فأتعلم منه.

وضرب موسى لاً مثلاً رائعاً في الرحلة لطلب العلم وتحمل الصعاب والمشقات بهمة الرجال وعزيمة الأبطال.

إِنَّا هُمُ الْغَيُّ قَسْمُهُ بِمَنْ عَيْنُهُ
وَنُكِبَ عَنْ ذِكْرِ الْمَوَائِبِ جَانِبَا
سار موسى مع تابع له هو يوشع بن نون ومعهما حوت في مَكْنَل^(١)، وبلغ مجمع البحرين: بحر الروم وبحر القلزم. أي البحر الأبيض والبحر الأحمر، أو أنه مجمع خليجي العقبة والسويس في البحر الأحمر.

وفي المكان الذي أراد الله أن يلتقي فيه نبي إسرائيل بعبد الصالح، لقد موسى حوته، وعاد لبحث عنه فوجد رجلاً نحيل الجسم، غائر العينين، عليه دلائل الصلاح والتقوى، فسلم عليه موسى، وتلطف معه في القول، وأبدى رغبته في اتساعه ليتعلم منه العلم، فاشتراط الخضر على موسى الصبر والتريث، فقال موسى كما ورد في التنزيل:

تشير إليه القصة في ثابها، إذ يقول الله عز وجل:

﴿وَمَكَدَكَ أَضْرًا طَيِّبًا يَعْلَمُونَ أَنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَإِنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [آية ٢١].

قصة موسى والخضر

أما قصة موسى وفتاه والعبد الصالح، فلأبها ومفزاها إثبات قصور الخلق مهما سمت عقولهم، وكثرت علومهم أمام إحاطة الله سبحانه وعلمه؛ وهكذا، ترتبط في سياق السورة قصة موسى والعبد الصالح، بقصة أطعاب الكهف في ترك الغيب الذي يدبر الأمر بحكمته، وفق علمه الشامل الذي يقصر عنه البشر الواقفون وراء الأسرار، لا يكشف لهم عما وراءها من الأسرار إلا بمقدار.

لقد وقف موسى (ع) خطيباً في بني إسرائيل فأجاد وأبدع في خطبته، فقال له أحد المستمعين: ما أقصحك يا نبي الله، هل في الأرض من هو أكثر علماً منك؟ قال موسى: لا، فأخبره الله أن في الأرض من هو أكثر علماً منه؛ فقال

(١) المكمل. الله

﴿سَيَذَرُكَ إِن كُنْتَ اللَّهُ مُبَارِكًا وَلَا أَحْسَنُ لَكَ أَمْرًا﴾.

وانطلق موسى مع الخضر في سفينة جيدة، وفي غفلة من أهلها أخذ الخضر لَوْحَيْنِ من خشب السفينة فخلعهما، فذكره موسى بأن هذا ظلم وفساد، فالتفت الخضر إليه، وقال، كما ورد في التنزيل، أيضاً:

﴿قَالَ أَتَى أَقْلٌ لِكُلِّ نَفْسٍ مِّنْ صَبْرٍ﴾.

اعتذر موسى بالنسيان، ووعده أن يرافقه مع الصبر والسكوت. وسار الرجلان، ثم قتل الخضر غلاماً بريئاً في عمر الزهر فاحتج موسى ﴿وَوَدَّكَرَهُ﴾ الخضر بالشرط فسكت.

وفي الجولة الثالثة دخل الرجلان قرية، وكان الجوع قد اشتدَّ بهما فطلبا من أهلها طعاماً، فأبوا إطعامهما؛ ورأى الخضر جداراً متناعياً أوشك أن يقع، فطلب من موسى مساعدته حتى بناءه وأنتم بناءه؛ واعترض موسى على هذا العمل لأن أهل القرية لا يستحقون مثل هذا المعروف، فهم يُخْلَء لَوْمَاء، فينبغي أن يأخذ الخضر أجراً على بناء الجدار لهم؛ وافترق الرجلان بعد أن

سمع موسى من الخضر سبب هذه الأعمال:

أما السفينة، فكانت مُلْكاً لجماعة من المساكين يعتمدون عليها في كسب الرزق ووراءهم مُلْكٌ ظالم يستولي «غصباً» على كل سفينة صالحة للعمل، فَخَرَّقَ الخضر السفينة ليراهها الملك مِجِية فيتركها ليستفيد بها أهلها، فهو عمل مؤلم في الظاهر، ولكنه مفيد في الحقيقة والواقع.

وأما الغلام، فقد كان مفسداً وسيسب على الفساد والإفساد، وكان أبواه مؤمنين فأراد الله أن يفيض الغلام إلى جولره، وأن يحوّض والديه بنتاً صالحة. ﴿وَوَدَّكَرَهُ﴾، وأنجبت نبياً.

وأما الجدار، فكان مُلْكاً لغلّامين يتيمين تحمّداً من رجل صالح كريم، وكان تحت الجدار كنز من المال، ولو سقط الجدار لتبدد الكنز، فأراد الله أن يقام الجدار ويجدد حتى يلبغا أشدهما، ويستخرجا كنزهما حلالاً طيباً لهما..

ثم قال الخضر، كما ورد في التنزيل:

﴿يَوْمَا قَفَلْتُمْ عَنَّا أَرْسُلَ ذَلِكَ نَائِيلَ مَا نَرُ سَطْوَةَ عَلَيْنَا صَرِيحًا﴾.

وقد يتساءل الإنسان عن عمل
الخطر عليه السلام، وهل هو مشروع
على الإطلاق، وهل يجوز لمن علم،
في حادثة ما، مثل ما علمه العبد
الصالح من حقيقة الأمر فيها، أن
يحالف الظاهر؟

وقد اهتم بعض المفسرين بترديد
أمثال هذه الأسئلة والمناقشات والإجابة
عنها، وتخريج ما يحتاج منها إلى
تخريج؛ كان الأمر أحكاماً تشريعية أو
بيان لموضوعات خلافية. والواقع أنه
لم يقصد بهذه القصة إلا الإقناع بأن
الإنسان، مهما اتسع عقله، وبهت
مداركه، وعلا منصبه، محدوده في
علمه، وأن كثيراً من الأمور يُخفى
عليه، وأن لله عبادة قد يخضعهم بنوع
من العلم لا يملكه للناس جميعهم، ولا
يستقيم حال الدنيا على بطله للناس
جميعهم.

قصة ذي القرنين

تلك قصة عبد مكن الله له في
الأرض، وسخر له العلم والقوة
والآلات والمواصلات، وآتاه من كل
شيء سبباً. وقد استغل هذه الإمكانيات
في عمل مشير نافع يعم، ويبقى أثره.

وقد تحرك ذو القرنين إلى المغرب
غازياً فاتحاً، محارباً مجاهداً، وسار
النصر في ركابه حتى انتهى إلى عين
اختلط ماؤها وطينها فترأى له أن
الشمس تغرب فيها وتختفي وراءها،
وظن أن ليس وراء هذه العين مكان
للفوز، ولا سبيل للمجاهد، ولكنه رأى
عندها قوماً عالة كفرهم، وكبر عليه
ظلمهم وفسادهم، فخير الله بين قتالهم
أو إهمالهم ودعوتهم للعدل والإيمان،
فاختار إهمالهم؛ وقام فيهم مدة ضرب
فيها على يد الظالم، ونَصَرَ المظلوم،
وأخذ بيد الضعيف، وأقام صرح
العدل، ونشر لواء الإصلاح. وقد
وضع لهم دستور الحكم العادل قال
تعالى:

﴿عَلَّمَ اللَّهُ مَنَّ ظَلَمَ سَوْفَ نُؤْتِيهِمْ أَشْرَ يَوْمَ
إِنَّ رَبَّهُمُ فَتَوَلَّوْا مَذَاجَ لَكُمْ ۖ وَاللَّهُ مَنَّ
وَعَلَّ صَاحِبًا ظَلَمَ جِرَّاءَ قَلْبِهِ وَسُئِلَ لَهُ يَوْمَ
أَمْرًا يَمُرُّ ۖ﴾.

وقد عاد ذو القرنين إلى الشرق فسار
غازياً مجاهداً حتى انتهى إلى غاية
العمران في الأرض، وهناك وجد
أقواماً تطلع الشمس عليها، ولكن ليس
لهم بيوت تسرهم، أو أشجار تظلمهم.
ولعلمهم كانوا على حال من الفوضى

دائب النحاس، واستوى ذلك كله بين
الجبليين سداً منيعاً قائماً، ما استطاعت
يأجوج وماجوج أن تظهره لملائته، أو
تتقه لملائته، وأراح الله منهم شعباً كان
يشكو من آذاهم، ويألم من عدوانهم.

ونظر ذو القرنين إلى العمل الفخيم
الذي قام به، فلم يأخذه البطر
والغرور، ولكنه ذكر الله فشكره، وردَّ
إليه العمل الصالح الذي رَفَّقَهُ إليه،
وتبرَّأ من قوته إلى قوة الله، وأعلن
عقيدته في البعث والحشر، وإيمانه بأنَّ
الجمال والحواجز والسدود سَتَذَكُّ قَبْلَ
يوم القيامة، فعمود الأرض سطحاً أجرد
مُسْتَوِيّاً، وهكذا تختتم هذه القصة،
بتأكيد قدرة الله سبحانه، على البعث
قال تعالى:

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي
جَمَعَهُمُ اللَّهُ وَفَصَّلَتْ ربي حَقَّهُمْ﴾.

«وبذلك تنتهي قصة ذي القرنين،
النموذج الطيب للحاكم الصالح، يُمَكِّنُهُ
الله في الأرض، وييسر له الأسباب،
فيجتاح الأرض شرقاً وغرباً، ولكنه لا
يتجبر ولا يتكبر، ولا يظن ولا يتبطر
ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنم

ونصيب من الجهل.. فبسط حكمه
عليهم ونفَذَ قِيَمَهُم فستور العدل،
ومكافأة المحسن، ومعاقبة المسيء
الذي سبق ذكره، ثم تركهم إلى الشمال
غائباً مجاهداً مُظْفَرّاً منصوراً، حتى
انتهى إلى بلاد بين جبليين يسكنها أقوام
لا تكاد تعرف لغاتهم، أو يفهم في
الحديث مرامهم، ولكنهم قد جاؤوا
يأجوج وماجوج، وهم قوم مفسدون
في الأرض، وأَفْزَاحٌ^(١) من الخلق
ضالون مُضِلُّون.

وقد لجأ الأقوام إلى ذي القرنين
ليُحْرَلَ بينهم وبين المفسدين، وشرطوا
على أنفسهم نَوْلاً يدفعونه إليه، وأموالاً
يضعونها بين يديه. ولكنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ
أجابهم إلى طلبهم، وردَّ عطاءهم وقال
لهم، كما روى القرآن ذلك، حكاية
عنه:

﴿مَا سَأَلْتِي فِيهِ رَبِّي حَتَّى﴾ [الآية ٩٥].

ثم طلب إليهم أن يُجِيبُوهُ على ما
يفعل، فحشدوا له الحديد والنحاس،
والخشب والفحم، فوضع بين الجبليين
قطع الحديد وحاطها بالفحم
والخشب، ثم أوقد النار، وأفرغ عليه

(١) الأَفْزَاحُ: الجماعات، ولا واحد لها

المادي، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق، ولا يستخر أهلها في أغراضه وأطماعه؛ وإنما ينشر العدل في كل مكان يحل به، ويساعد المتخلفين، ويدبر أخطارهم العدوان دون مقابل، ويستخدم القوة التي يشرها الله له في التعمير والإصلاح ودفع العدوان، وإحقاق الحق. ثم يُزجج كل خير يُجثّه الله على يديه إلى رحمة الله وفضله، ولا ينسى، وهو في إتيان سطوته، قدرة الله وجبروته، وأنه راجع إلى الله.

أهداف سورة الكهف

نزلت سورة الكهف بمكة في وقت اشتدت فيه حملة القرآن على المنكرين المكذّبين بيوم الدين. وقد نزلت قبلها سورة الغاشية، وهي سورة تبدأ وتنتهي بحديث الساعة، وإياب الناس جميعاً إلى الله، ليحاسبهم على ما قدموا.

ونزلت بعد سورة الكهف، سورة النحل وعدة سور تحدّثت عن البعث والجزاء، وأثبت وحدانية الله وقدرته، وذكرت عقوبته للمكذّبين، وأخذه على يد الظالمين.

لقد كان كفار مكة ينكرون البعث، ويستبعدون وقوعه بعناد وإصرار، فتكفل القرآن بمناقشتهم وتفنيد آرائهم، وأثبت قدرة الله على البعث والجزاء، وقدم الأدلة على هذه القضية؛ وساق في سورة الكهف عدداً من الحجج والبراهين على حقيقتها، مبرزاً ذلك بصورة واضحة قد اكتملت فيها عناصر القوة والروعة والإفحام. فالمحور الموضوعي لسورة الكهف هو تصحيح العقيدة، وتأكيد قدرة الله على البعث والجزاء، وتصحيح المفاهيم الخاطئة.

وهي تستطيع أن تجمل مظاهر ذلك فيما يأتي:

١ - بدأت السورة بقوله تعالى:

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزَوْنَ وَيُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ ۚ وَهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ مُخْلِصِينَ لَهُمْ مِنْ الظَّالِمِينَ ۚ﴾
﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزَوْنَ وَيُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ ۚ وَهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ مُخْلِصِينَ لَهُمْ مِنْ الظَّالِمِينَ ۚ﴾
﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزَوْنَ وَيُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ ۚ وَهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ مُخْلِصِينَ لَهُمْ مِنْ الظَّالِمِينَ ۚ﴾

وهي تتحدّث في هذا البدء عن الدار الآخرة وما فيها من بأس شديد يصيب أقواماً، وأجرٍ حسنٍ يفور به أقوام آخرون.

وختمت بقوله تعالى.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَبَدِّئْ فَكَانَ رِجْأُ اللَّهِ رِجْأُ قَلِيلٍ مِّنْ عَمَلٍ صَالِحًا وَلَا يُشْرِكُ بِرَبِّكَ رَبُّكَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ﴾.

وهي تتحدث في هذا الختام، عن الدار الآخرة أيضاً، وعمن يرجو لقاء ربه، وما يجب عليه، أثراً لهذا الرجاء والإيمان، من عمل صالح، وتوحيد لله لا يخالطه إشراك.

وهكذا يتلاقى أول السورة وآخرها: أولها يتحدث عن الآخرة بطريق التقرير لها، وبيان مهمة القرآن في إثبات ما يكون فيها من الجزاء إنذاراً وتبشيراً، وآخرها يتحدث عن هذه الحقيقة التي تركزت وتقررت، ويحكم الناس إليها في الإيمان والعمل الصالح.

ومما يلاحظ أن آيات البدء، قد ذكر فيها أمر الذين قالوا اتخذ الله ولداً، من إنذارهم وبيان كذبهم وتخليطهم وجهلهم على الله، وذلك هو قول الذين يشركون بالله، ويعتقدون ما يتنافى وحدانيته وتزويجه؛ وأن آية الختام قررت ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَبَدِّئْ﴾ وأن على من يؤمن به، ويرجو لقاءه ألا يشرك بعبادته أحداً، فتطابق الأول والآخر في إثبات الوحداية والتزويج لله جل وعلا،

كما تطابقا في أمر البعث والدار الآخرة.

٢ - أما في أثناء السورة، وما بين بدئها وختمها، فقد جاء أمر البعث عدة مرات:

أ - جاء في مقدمة قصة أصحاب الكهف التي ساقها الله حقيقة من حقائق التاريخ الواقعية، ودليلاً على قدرته، وتنظيراً لما ينكره الكافرون من أمر البعث والشور:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيِّ كَانُوا مِنْ عِزِّكَ عِيسَاءَ﴾، وفي ثانياً هذه القصة:

﴿وَسَكَدَتْ أَعْيُنُهُمْ فَلَغُوا نَبْطًا وَعَدَّ لَهُمْ حَتَّىٰ إِذَا أَنشَأَهُ رَبُّهُمْ إِلَٰهًا﴾ [آية ٢١].

فهي تقرر أن أصحاب الكهف آية من آيات الله، وأنهم، مع غرابة أمرهم، لا يُعْتَدُونَ في جانب القدرة الإلهية عجباً، فإنما هم فتية آمنوا بربهم، وأوذاً إلى الكهف قرواً بعقيدتهم، فضرب الله على آذانهم فيه مدة من الزمن، ثم بعثهم. فإذن، قادر على أن يضرب على آذان الناس جميعاً في هذه الدار بالموت، كما يضرب على آذانهم

الجنة صعيداً زلقاً؟ وحينئذ، تنبه الكافر فقال، كما ورد في التنزيل:

﴿يَكْفُرُ لَكُمْ يُرِيدُ أَنْ لَبَّىٰ لَكُمْ﴾

د - وجاء أمر البعث، بعد هذا، في المثل الذي ضربه الله بالحياة الدنيا، يكون فيها نبات وزينة، ثم يصبح ذلك كله هشيماً تذوره الرياح، وتنتهي الدنيا وما فيها. وقد عقب الله سبحانه على هذا المثل بذكر الجبال وسيرها، والأرض وبروزها، والحشر وشموله، والعرض على الله، ووضع الكتاب، وإشفاق المجرمين مما فيه؛ قال تعالى: حكاية عنهم:

﴿بَلِّغْنَا مَا لَكَ مِنَ الْكُتُبِ وَلَا يُلَاقُوا سَيْرَةً وَلَا جَبْرَةً إِلَّا أُعْهِضْنَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاسِرًا وَلَا يَظُنُّوكَ أَنْتَ أَتَانَا﴾.

هـ - وجاء في السورة أيضاً إشارة إلى قصة آدم وإبليس، حيث طلب الله من إبليس أن يسجد لآدم فأبى، فتفرقت بينهما العداوة منذ ذلك اليوم إلى أبد الدهر. وحذر الله أبناء آدم من أن يتخفوا الشيطان وذريته أولياء من دونه، مع هذه العداوة المتأصلة. ثم ذكر لهم أمراً من أمور الآخرة بعد هذا التحذير من اتخاذ الأولياء أو الشركاء، حيث ينفق الشركاء فلا يجيئون،

بالنوم، ثم يعثهم إلى الدار الآخرة كما بحث هؤلاء الفتيحة، وما ذلك على الله بعزيز، ولا هو في قدرته بمعجيب. وتقرر هذه المقدمة أن العبرة من بعثهم والإعثار عليهم. أن يعلم الناس، أن وعد الله حق، وأن الساعة لا ريب فيها.

ب - وجاء أمر البعث مرة ثانية في هذه السورة حينما قررت أن الحق من الله، وأن كل امرئ مختار في الإيمان أو الكفر:

﴿وَلِلَّهِ الْخَلْقُ مِنْ دُونِكَ فَتَمَنَّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الأنعام ٢٩] فهناك دار أخرى غير هذه الدار، يحاسب فيها كل امرئ، ويُجزى بما يستحقه:

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ نَارًا آتِلًا يَوْمَ تَرَاوَاهُمْ﴾ [الأنعام ٢٩] وللمؤمن آمنوا وعملوا الصالحات ﴿جَنَّتْ عَنْهُ نَارُهُمْ﴾ [الأنعام ٢٩].

ج - وجاء أمر البعث في المثل الذي ضربه الله للناس عن صاحب الجنة وزميله، وما كان من إنكاره قدرة الله، وشكّه في الساعة، وتضح صاحبه له وتزوره منه، وأن الله قد أحال

وَيُستَجَارُ بِهِمْ فَلَا يُجِيرُونَ؛ وَتَبْرُزُ الْجَحِيمُ فِيرَاهَا الْمَجْرُمُونَ وَيَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مَوَاقِعُهَا، وَلَا يَجِدُونَ عَلَيْهَا مَصْرُفًا.

في هذا الأسلوب، يَجْمَعُ بَيْنَ الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ، وَوَضَعَ الْقَضِيَّةَ الْخَلْقَ وَالْبَعْثَ، مَقْتَرِنَيْنِ بَيْنَ يَدَيِ الْعَقْلِ، لِيَدْرِكَ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ، مِمَّا أَوَّلَ نَشَأَتِهِ، هَدَفَ لِعَدُوٍّ مُبِينٍ يَحَاوِلُ إِضْلَالَهُ وَلَفْتَهُ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ حَسَدًا لَهُ وَانْتِقَامًا مِنْهُ؛ وَأَنَّهُ أَخْطَرُ هَذَا الْإِضْلَالِ هُوَ الْوَصُولُ إِلَى حَدِّ الثِّقَةِ بِالْعَدُوِّ الْمُبِينِ، وَالتَّخَاذُعِ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ يَتَّبِعُ أَمْرَهُ وَيَتَّصِرُ هَوَاهُ؛ وَأَنَّهُ هَذَا الْعَدُوُّ الْمُخْتَلِ، سَيَكُونُ أَمْرُهُ يَوْمَ الْجَزَاءِ كَيْسَ أَمْرِ الشُّرَكَاءِ، يُرْتَوْنَ الْكُفْرَ وَالْعَصِيَانَ مَا دَامُوا فِي الدُّنْيَا. حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ، أَصْلَحُوا بِرَأْسِهِمْ مِمَّنْ أَتَّبَعُوهُمْ وَضَلُّوا بِهِمْ:

﴿ كُنْتُمْ أَتْلُوَنَّهُ لَوْ قَالُوا لَوْلَا كُنَّا أَهْلَ كِتَابٍ لَكُنَّا عَنْ يَدَيْهِمْ وَأَنتُمُ الْفَاعِلُونَ ﴾ فَكَانَ عَزِيمَتُهُمَا أَنَّهُمَا لِي الْكُفْرَ يَحْيِيَانِي وَأَنَّكَ جَزَاءُ الْفَاسِقِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾.

و - وجاء في هذه السورة أيضاً، مما يتصل ببراهين البعث، قصة موسى (ع) وفناء العبد الصالح - وهي قصة عظيمة

حافلة بالفوائد والمعاني الجليلة. وفيها يساق الحديث على نحو يشعر معه كل سامع شعوراً قوياً، بأن الله سبحانه علماً فوق عِلْمِ النَّاسِ، وَتَصَرُّفاً لِلْكَوْنِ عَلَى سُنَنِ، مِنْهَا مَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَمِنْهَا مَا هُوَ خَفِيٌّ. وَإِذَا آمَنَ النَّاسُ بِهِذَا وَاطْمَأَنَّنُوا إِلَيْهِ، لَمْ يَخُذْ هُنَاكَ مَجَالٌ لِلْعَجَبِ مِنْ أَمْرِ السَّاعَةِ. فَمَا هِيَ إِلَّا تَغْيِيرٌ يَحْدِثُهُ خَالِقُ الْكَوْنِ وَمَالِكُ نَاصِيَتِهِ. فَلِذَا السُّنَنُ الْمَعْرُوفَةُ تَحُلُّ مَحَلَّهَا سُنَنُ أُخْرَى؛ وَمَنْ قَبِرَ عَلَى إِتْيَانِ السُّنَنِ قَبِرَ عَلَى تَغْيِيرِهَا. وَبِهَذَا يُؤْمِنُ كُلُّ عَاقِلٍ، بِصَدَقِ مَا أَخْبَرَ بِهِ الْمَعْصُومُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ يَبْدُو أَمَامَ الْمُقُولِ حَقِيقاً. وَهُوَ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ غَيْرُ عَجِيبٍ.

ز - جاءت السورة أيضاً، بعد هذه القصة، بقصة أخرى عن عبيد مَنَّانِ اللَّهِ لَهُ فِي الْأَرْضِ وَأَتَاءَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيحاً، وَسُخَّرَ لَهُ الْعِلْمُ وَالْقُوَّةُ وَأَسْبَابُ أُخْرَى كَثِيرَةٌ، ذَلِكَ هُوَ هَذَا الْفَرِيقَيْنِ. وَقَدْ لَجَأَ إِلَيْهِ قَوْمٌ لِيُحَوِّلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُفْسِدِينَ، فَانْجَدَعُوا وَأَعَانَهُمْ وَجَعَلَ اللَّهُ صَمْلَهُ فِي ذَلِكَ رَحْمَةً لِلنَّاسِ، يَبْقَى مَا بَقِيََتْ هَذِهِ الْحَيَاةُ؛ فَلِذَا جَاءَ وَعْدُ اللَّهِ ضَاعَتْ السُّودُ وَالْحَوَائِلُ وَأَصْبَحَتْ دَكَّاءَ، وَتَرَكَ النَّاسُ مُضْطَرِبِينَ بِمَرَجٍ بَعْضُهُمْ فِي

بعض، ثم يُنفخ في الصور فيُجْمَعُونَ كُلُّهُمْ، وتُغْرَضُ بِؤْمُرِهِ لِلْكَافِرِينَ جَهَنَّمُ غَرَضاً، فيبصرون، وقد كانت أعينهم من قبل في غطاء، ويسمعون وقد كانت آذانهم من قبل في صمم. وهكذا يجد القصة قد انتهت إلى أمر البعث والدار الآخرة وما فيها، وتخلّصت إليه في براعة وقوة، مذكّرةً به، منبرّةً بما هنالك من الأهوال والشدائد.

حـ - ثم تأخذ السورة بعد ذلك في تهديد الكافرين الذين أشغلوا برّ دون الله أولياء، وتبيّن ما أعيذ لهم، وتوازي هؤلاء جميعاً بالذين آمنوا وعملوا الصالحات وما أعيذ لهم؛ ويأتي ختامها بعد إثبات القدرة والعظمة لله، وأن كلماته سبحانه لا تنفذ ولو كانت بحجابه البحار كلها مداداً لها. والمراد آياته في الكون وتصريفه وآثار قدرته، فتذكر

ومسألة الرسول، وأنها عن وحي من هذا الخالق القادر الواحد؛ وتتوجّه بعد ذلك إلى الناس جميعهم بصيغة من صيغ العموم، هي لفظ «مَنْ» فتقول:

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيُفْسِلْ صَلَاتَهُ صَلَاتًا وَلَا يَرْجُلْ يَرْجُلًا رَمِيًّا﴾.

بهذا، يتجلى للناظر في السورة أنها متظمة السنن، مُطَوِّدَة السياق، واضحة الغرض، قوية الأسلوب، متماسكة في أولها وآخرها وفي ثناياها، يجول فيها معني واحد، تلتقي عليه الآيات والأمثال والقصص والوعد والوعيد والتذكير والبيان. ولذلك يقول الله عز وجل في آية من آياتها:

﴿وَلَقَدْ مَرْجَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِبَاسٍ مِنْ سَكَنٍ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شُغْرًا جَدَلًا﴾.



سازمان اسناد و کتابخانه ملی
جمهوری اسلامی ایران

ترابط الآيات في سورة الكهف (*)

فَنُفِثَ فَنُفِثُوا فِي الدُّعْرِ الْأَوَّلِ: ما كان من أمرهم؟ وعن رجل طواف قد بَلَغَ مشارق الأرض ومغاربها: ما كان نبأه؟ فَيَسْأَلُوا النَّبِيَّ (ص) عَنْ ذَلِكَ، غَفَالاً: أَخْبِرْهُمْ بِمَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ خُذاً. وَلَمْ يَقُلْ: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ». فَمَكَثَ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً لَا يَأْتِيهِ الْوَحْيُ، حَتَّى أَرْجَفَ أَهْلَ مَكَّةَ بِهِ، وَقَالُوا: زَعَمْنَا مُحَمَّدٌ خُذاً، وَالْيَوْمَ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً. فَشَقَّ هَذَا عَلَيْهِ، ثُمَّ نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ بِسُورَةِ الْكَهْفِ، وَفِيهَا مَعَانِيَةٌ لَهُ عَلَى حُزْنِهِ لَعَلَّ يَمُنُّ بِإِيمَانِهِمْ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ، وَخَرَّ لَوْلَتْكَ الْفَتْنَةُ، وَذَلِكَ الرَّجُلُ الطَّوَّافُ.

وقد انتبخت هذه السورة بمقدمة في بيان الغرض من تنزيل القرآن، وهو

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نُزِلَتْ سُورَةُ الْكَهْفِ بَعْدَ سُورَةِ الْغَافِيَةِ، وَهِيَ مِنَ السُّورِ الَّتِي نَزَلَتْ بَعْدَ الْإِسْرَاءِ وَقَبِيلِ الْهَجْرَةِ، فَيَكُونُ نَزُولُ سُورَةِ الْكَهْفِ فِي ذَلِكَ التَّارِيخِ أَهْضاً.

وَقَدْ سُمِّيَتْ هَذِهِ السُّورَةُ بِهَذَا الْأَسْمِ لِذِكْرِ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ فِيهَا، وَتَبْلُغُ آيَاتُهَا عَشْرًا وَمِائَةً آيَةً.

الغرض منها وترتيبها

قِيلَ إِنَّ قَرِيشاً بَعَثَتْ إِلَى أَحْبَابِ الْيَهُودِ بِالْمَدِينَةِ يُخْبِرُونَهُمْ بِأَمْرِ النَّبِيِّ (ص)، وَيَسْأَلُونَهُمْ عَنْهُ، فَقَالُوا: سَلُوهُ عَنْ ثَلَاثَةِ

(*) انظر هذا المبحث من كتاب «العلم الثاني في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعدي، مكتبة الأديب بالجمهورية العربية السورية، الطبعة الثانية، القاهرة، غير مؤرخ.

إنذار الكافرين وتبشير المؤمنين؛ فليس على النبي (ص) إلا أن ينقذهم ويُنشِئهم، ولا يصح له أن يخزن لعدم إيمان قومه وروسلاتهم به، لأنه لا قيمة لما عندهم من أمر الدنيا. وقد مهد بهذا للذكر قصة أصحاب الكهف، لأنهم أئروا دينهم على دنيا قومهم، واعتزلوهم في الكهف حينما خافوا منهم على دينهم، ثم قُيل قصة أصحاب الكهف بما يناسب الغرض من ذكرها؛ ثم ذكر قصة الرجل الطواف وهو ذو القرنين، ودُيِّلها بما قُيِّلها به إلى آخر السورة.

وقد ذكرت هذه السورة في سورة الإسراء لأنها، مثلها، تُنَوِّه بشأن القرآن، ولأن سورة الإسراء جاء في ختامها تنزيه الله عن الولد، وقد جاء في أول سورة الكهف إنذار للذين قالوا اتخذ الله ولداً.

المقدمة

الآيات [١ - ٨]

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ يَكُونُ

عِيَاً﴾، فذكر أنه أنزل عليه القرآن كاملاً في ذاته، مُكَمِّلاً لغيره، ليُنشِئ الكافرين عاقبةً بأساً شليداً من لُذُنُهُ، ويُنشِئ المؤمنين بأن لهم أجراً حسناً، وينذر الذين قالوا إن الله اتخذ ولداً؛ ثم ذكر للنبي (ص) أنه لعله باجع نفسه أسفاً، لأن قومه لم يؤمنوا بما أنزل عليه، وأنه بجعل ما على الأرض زينة لها ليلبسونهم آهيم أحسن صملاً: ﴿وَمَا لَكُم بِآيَاتِنَا أَن تَكُونُوا مِثْلَ النُّجُومِ﴾.

قصة أصحاب الكهف

الآيات [٩ - ٨٢]

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِن آيَاتِنَا عَجَباً﴾، فذكر للنبي (ص) أنه حبيب أن أصحاب الكهف والرقيم (اسم كلبهم) كانوا عجباً من آياته؛ وأمره أن يذكر إذ أوزوا إلى الكهف طالين منه أن يرحمهم ويُرشدهم إلى رضاء، فصرَّب على آذاتهم في الكهف سنين عدداً، ثم بعثهم ليظهر أي الحزين المختلفين في

مُدَّة لَيْتَهُمْ بِالْكَهْفِ أَحْصَى لَهَا أَمَدًا؛ ثُمَّ
فَصَّلَ هَذَا الْإِجْمَالَ، فَذَكَرَ أَنَّهُمْ فَتِيَّةٌ
آمَنُوا بِهِ سُبْحَانَهُ، وَزَادَهُمْ هُنْدَى، وَأَنَّهُ
رَبَّطَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، إِذْ قَامُوا بَيْنَ يَدَيِ
مَلِكِهِمْ فَصَرَّحُوا لَهُ بِإِيمَانِهِمْ، وَخَالَفُوهُ
وَقَوْمَهُ فِي عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ؛ ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُمْ
اتَّفَقُوا حِينَئِذٍ اعْتَزَلُوا قَوْمَهُمْ، أَنْ يَأْزُوا
إِلَى كَهْفٍ بِجَبَلٍ قَرِيبٍ مِنْ مَدِينَتِهِمْ.
فَلَمَّا ذَهَبُوا إِلَيْهِ، وَضَرَبَ عَلَى أَبْوَابِهِمْ
فَنَاصُوا، كَانَتْ الشَّمْسُ، إِذَا طَلَعَتْ،
تَمِيلُ مِنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ، وَإِذَا
غَرَبَتْ تَمِيلُ عَنْهُ ذَاتَ الشَّمَالِ، لِيُبَيِّنَ
أَجْسَامَهُمْ مِنَ الْفَسَادِ بِضَوْءِ الشَّمْسِ؛ ثُمَّ
ذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ يُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ
الشَّمَالِ ثَلَاثًا ثَلَاثًا أَجْسَامَهُمْ، وَأَنَّ كَلْبَهُمْ
وَقَعَ فِي النَّوْمِ مَعَهُمْ وَهُوَ بِاسْطِ ذِرَاعِيهِ
بِبَابِ الْكَهْفِ لِيُخْرِسَهُمْ؛ ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ،
جَلَّ جَلَالُهُ، بَعَثَهُمْ مِنْ نَوْمِهِمْ لِيَسْأَلُوا
بَيْنَهُمْ عَنْ مَدَّةِ لَيْتِهِمْ، وَأَنَّهُمْ بَقُوا
أَحَدُهُمْ بَوْرَقَهُمْ لِيَشْتَرِيَ لَهُمْ طَعَامًا مِنْ
مَدِينَتِهِمْ، وَأَمَرُوهُ أَنْ يَتَلَطَّفَ فِي أَمْرِهِ
حَتَّى لَا يَشْعُرَ أَحَدٌ بِهِمْ فَيَرْجُمُوهُمْ أَوْ
يَعِيدُوهُمْ فِي مَلْتَمِهِمْ؛ ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ أَحْثَرَ
قَوْمَهُمْ عَلَيْهِمْ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَهُ

ثُمَّ ذَكَرَ مَا كَانَ مِنْ اخْتِلَافِهِمْ فِي
عَتَمَتِهِمْ، وَأَمَرَ النَّبِيَّ (ص) أَنْ يَذْكُرَ لَهُمْ
أَمْرَهُ لِيَعْلَمَ بِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا قَلِيلٌ
مِنْ أَمْرِهِ بَعْلَمَهُ، وَنَهَاهُ أَنْ يَجَادِلَهُمْ فِي
أَمْرِهِمْ إِلَّا جِدَالًا ظَاهِرًا، فَلَا يُكْذِبُهُمْ
فِيمَا يُعَيِّنُونَهُ مِنْ عَدَدٍ، بَلْ يَذْكُرْ لَهُمْ أَنَّ
هَذَا التَّعْيِينَ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، فَيَجِبُ
التَّوَقُّفُ فِي أَمْرِهِ وَتَرْكُ الْقَطْعِ بِهِ. ثُمَّ
نَهَاهُ أَنْ يَسْتَفْتِيَ أَحَدًا مِنْهُمْ فِيهِمْ لِأَنَّهُمْ
لَا عِلْمَ عَنْدهُمْ بِهِمْ، وَالْأَيُّقُنِي عَلَى
شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَغَيْرِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَمَشِيتِهِ،
فَلَا يَرْجُمُ بِالْعِيبِ كَمَا يَرْجُمُونَ فِي أَمْرِ
أَصْحَابِ الْكَهْفِ. ثُمَّ ذَكَرَ اخْتِلَافَهُمْ

أيضاً في مدة نبيتهم، وأن بعضهم يذهب إلى أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين، وبعضهم يزيد على ذلك تسع سنين، وأمره أن يذكر لهم أن الله أعلم بمدة نبيتهم: ﴿لَمْ يَكُنِ لَهُمُ الْسُّورَةُ إِلَّا آيَاتٍ لِّيُبَيِّنَ بِهِمُ وَيُؤَيِّدَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْقَوْلِ وَلَا يَتَذَكَّرُ فِي حُكْمِهِ أَحَدٌ﴾.

وذهبت نهاية هذه القصة بما يناسبها، فأمر سبحانه رسوله (ص) أن يتلوها أوحى إليه فيها، لأنه هو الحق الذي لا تبدل فيه، ولن يجد من دونه ملتحداً يلجأ في علم شيء إليه؛ ثم أمره أن يشرح نفسه مع الذين آمنوا به، ونهاه أن تعدو عنه عنهم إلى أهل الدنيا من رؤساء قومه وأغنيائهم، وأن يطيع هؤلاء الرؤساء والأغنياء في طرده من آمن به ليؤمنوا هم به، فيكون له بهذا أسوة بأصحاب الكهف؛ ثم أمره أن يذكر لهم أن الحق منه وهو غني عنهم، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، فمن كفر فله عذابه الذي أبد له، ومن آمن فلن يضيع عليه عمله:

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَنَّتٌ قَدْرٌ﴾ (٢١: ٢٢).

ثم أمره أن يضرب لهم أربعة أمثال تبين لهم خطأهم في تعاليهم بفنائهم على فقراء المؤمنين، لأن الاختيار يجب أن يكون بالعمل الصالح لا بالمال:

الأول: مثل رجلين جعل الله لأحدهما جنتين من أعناب مخفوفتين يتخلى، ويجعل بينهما زرعاً، وقد أتى كلٌّ منهما ثمرة كاملاً غير منقوص، فالتفتكر بذلك على صاحبه، وظن أنه باقٍ له لا يفسى، وأنه ليس هناك مَعَاذٌ يُخَالَفُ حِسَابُهُ. ولئن كان هناك مَعَاذٌ لَيَكُونَنَّ فيه أحسن حالاً مما هو عليه في الدنيا، فأنكر عليه صاحبه أن يكفر بالله ولا يقابل نعمته بشكره عليها. وذكر له أنه إذا كان يتخلى عليه بذلك، فعسى أن يؤتبه الله خيراً منه، ويرسل على جنته صواعق من السماء فتبيدها؛ وكان أن الله أرسل عليها ذلك، فأبادها؛ وأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها، ويتمنى أن لو كان آمن به، ولم يجد من ينصره من دون الله، وما

كان متصراً: ﴿سُبْحَانَكَ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ
سَبَّحَكَ وَبَارَكَ عَلَيْكَ﴾.

والثاني: مَثَلُ الحياة الدنيا في
حقارتها وقلة بقائها، فهي كَمَا أَنْزَلَهُ
الله من السماء فاختلط به نبات
الأرض، ولم يلبث أن جفَّ وتكسَّر
وأصبح هشيمًا تذوره الرياح. وما
يفتخر به أولئك المشركون على فقراء
المؤمنين من المال والبنين، هو من
زينة الحياة الدنيا، فهو سريع الزوال
مشبهًا بالأعمال الصالحة الباقية، خيرٌ
منه ثوابًا، ثم ذكر لهم يوم يسر الجبال
وتبرز الأرض وتخشع جميعًا وأنهم
يُعرضون عليه وليس معهم شيء من
أموالهم وأولادهم؛ ويوضع أمامهم
كتاب أعمالهم، فيُلقون مما فيه:
﴿وَيَقُولُونَ بَيْنَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا
يُبَايِعُ سِيرَةً وَلَا كِبْرَةً إِلَّا تُخْصَنُهَا
وَيُجْعَلُ مَا عَمِلُوا خَيْرًا وَلَا يَكْفُرُ رَجُلٌ
لَهُ﴾.

والثالث: مَثَلُ آدم وإبليس، لأنَّ
إبليس لعنه الله، إنما تكبر على آدم،
لأنه افتخر بأصله ونسبه، وكان من

الجن ففسق عن أمر ربه؛ وقد نهاهم
عن الاقتداء به في ذلك، واتخاذهم
وَدَرَّتِهِ أولياء من دونه، وهم لهم
عدو، والعاقلة لا يتخذ عدوه وليًا له،
ويمثلهم لا يصح أن يكون شريكًا بالله،
وهو لم يُشبههم خلق السماوات
والأرض ولا خلُق أنفسهم، وهم
مُضِلُّون لا يمكن أن يتخذ الله له عُصْدًا
منهم. ثم ذكر أنه إذا جاء يومُ القيامة
أمرهم أن ينادوا أولئك الشركاء الذين
اتَّخَفَوْهُمْ أولياء، فيذهبونهم فلا
يُستجيبون لهم، ولا ينفعونهم بشيء
مما كانوا يزعمونه فيهم. ثم ذكر أنه
جاءت قدرته، ضرب تلك الأمثال لهم
ليعتبروا بها، ويرتدوا عن افتخارهم
بكثرة أتباعهم وأموالهم على فقراء
المسلمين؛ ولكن هذه الأمثال لا تؤثر
فيهم، بل يمشون فيما جُبِلُوا عليه من
الجدال والشغب، ويطلبون أن تأتيهم
سُنة الأولين من عذاب الاستتصال، أو
تتوالى عليهم ضربوب العذاب وهم
أحياء؛ والله جل جلاله لم يرسل
المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ليقوم
الناس طوعًا لا كَرْهًا؛ ولكنهم يجادلون

بالباطل، ليدحضوا به الحق، ولا يريدون الإيمان إلا بما يقترحونه من تلك الآيات؛ وإنما يتخلون ما جاءهم من الآيات، وما أنزلوا به منها لعباً وهزواً، وليس أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها، ونسي ما قدمت يده. ثم ذكر أن سبب إغراضهم، أنه جعل في قلوبهم أكنةً تمنعهم من فهمها، وأنه جعل في آذانهم وقراً يمنعهم من سماعها؛ ثم ذكر أنه لو يواخضهم بذلك لمجل لهم ما طلبوه من العذاب، ولكن عذابهم له موحد لين يجسدوا من دونه قولاً: ﴿وَيَقَعُ الْغُرُثُ أَلَمَلَكْنَهُمْ لَمَّا ظَنُّوا وَصَلَا يَهْلِكُهُمْ مَوْتُهُمْ﴾.

والرابع مثل موسى وبعض علماء حضرة، فقد بلغ موسى من علو المنصب ما بلغ؛ ولكنه تواضع لذلك العالم الذي آثره الله بعلم لم يعلمه موسى، وسافر إليه لطلب ذلك العلم، وكان أن ذكر لفتاه أنه لا يترج عن الشير حتى يبلغ مجمع البحرين، فيجد عنده هذا العالم؛ فلما بلغ ذلك

المكان، نسي فتاه حوثاً كان معهما، فانساب في البحر؛ وكان هذا علامة مكان العالم الذي يطلبه، ولكن فتاه لم يخبره بذلك، حتى جاوزا ذلك المكان، وطلب منه غللهما، فأخبره بأنه نسي حوثهما إذ أزاها إلى الصخرة فانساب في البحر، فذكر له أن هذا هو ما كان يطلبه؛ فارتأى إلى ذلك المكان فوجدا عنده ذلك العالم، فطلب منه موسى أن يتبعه على أن يعلمه مما آثره به وبه، فأخبر موسى بأنه لن يستطيع الصبر على تعلم ذلك العلم الذي لا يحيط به، وتخفى عليه أسراره؛ فأخبره موسى بأنه سيجده صابراً على ذلك إن شاء الله تعالى، فطلب منه ألا يسأله عن شيء حتى يحدثه عنه ويعرفه حقيقته.

فانطلقا، حتى ركبا في سفينة، فعمد ذلك العالم إليها فخرقها، فأنكر موسى عليه أن يخرقها ليُثْرِقَ أهلها، فذكره بما أخبره به، من أنه لن يستطيع الصبر معه، فاعتذر له موسى بأنه نسي وطلب منه ألا يواخذه على ذلك التسيان؛ فانطلقا، حتى وجدا غلاماً، فعمد ذلك العالم إليه فقتله، فأنكر موسى عليه

قصة ذي القرنين الآيات [٨٣ - ١٠٨]

ثم قال تعالى: ﴿وَرَبُّنَا الَّذِي أَلْهَمَ الْفِرْعَوْنَ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُبْصِرُونَ﴾ فذكر، سبحانه، أنهم سألوا الرسول (ص) عن ذي القرنين وأن الرسول (ص) أجابهم بأنه سيطلع عليهم بعض أخباره؛ وفصل السياق ذلك بأنه جل جلاله مكرّر له في الأرض، وأعطاه من العلم والقدرة والعظمة ما يتوصل به إلى مقصوده. فلما أراد أن يوسع ملكه جهة الغرب، سار حتى بلغ أوائل بلاد المغرب، فوجد هناك حينا خبيثا، ووجد عددا قوما لا يكادون يفقهون قولا، فدعاهم إلى الدخول في طاعته، فمن أبى عليه عذابا شديدا في الدنيا، إلى ما سيئله من عذاب الله في الآخرة، ومن دخل في طاعته جازاه بالحسن، ووسر عليه زكاته وخزاجه وغيرهما؛ ثم أراد أن يوسع ملكه جهة الشرق فسار حتى بلغ أوائل بلاد الشرق الأقصى، فوجد هناك قوما كالأولين، لا يسترون أجسامهم

ذلك أبها، فعاد إلى تذكره بما أخبره به من أنه لن يستطيع الصبر معه، فذكر له موسى أنه إن سأل عن شيء بعد ذلك فلا يصاحبه، لأنه قد بلغ منه العذر؛ فانطلقا حتى أتيا أهل قرية، فطلبّا من أهلها طعاما فأبوا أن يطعموهما، فوجد ذلك العالم فيها جدارا يوشك أن يسقط فاقامه، فأنكر عليه موسى أن يقيم من غير أجر لقوم أبوا أن يطعموهما، فذكر له أنه لا يمكنه أن يصاحبه بعد هذا، وأنه سيخبره بتأويل ما أنكره عليه من هذه الأمور الثلاثة؛ فذكر له أن السفينة كانت لمساكين يعملون في البحر، وكان هناك ملك يغيّب كل سفينة صحيحة، فخرقها ليعيبها فلا يغصبها، وأن الغلام كان أبواه مؤمنين ولو بقي لشبّ على الطغيان والكفر، وتبين به أسوأ فكفرا مثله؛ وأن الجندل كان لعلامين يتيمن، وكان تحت كنز لهما، وكان أبوهما صالحا، فأقامه لهما، حتى بلغا أشدهما، ويستخرجا كنزهما ﴿رَبَّمَا مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَتَنَّا عَنْ أَثَرِ رَبِّكَ قُلْ وَمَا نَرَى قُلُوبَنَا إِلَّا سَوَاءً مِمَّا كُنَّا بِهَذَا صَحَافًا﴾

من الشمس، ففُضِيَ فيهم ما قضاها سابقاً مِنْ تعذيب مَنْ لم يدخل في طاعته، والإحسان إلى من دخل فيها؛ ثم سار من هناك حتى بلغ بين السُّدَيْنِ، فوجد هناك قومًا كالأوليين أيضاً، وهم قوم يأجوج ومأجوج من قبائل التُّرك؛ وكانوا مفسدين في الأرض، فشكاهم إليه مَنْ دَخَلَ في طاعته من أهل تلك البلاد، وطلبوا منه أن يقيم سُلْماً يمنع غاراتهم عليهم، فأجابهم إلى ما طلبوه من ذلك السُّدِّ، وأمرهم أن يأتوه بقطع الحديد فوضع بعضها على بعض حتى شُدَّتْ ما بين الجبلين إلى أعلاهما، ثم وصع المانع عليها حتى إذا صارت كالنار صُبَّ النحاس المُذاب عليها، فالتصق بعضها ببعض حتى صارت جَبَلًا صَلْدًا، فلم يُقْدِرُوا أن يظهروهُ^(١) أو يُنْقِضُوهُ؛ ولما تَمَّ له ذلك، ذكر أنه رحمة من الله بعباده، وأنه إذا جاء وَعْدُ الله بخروجهم سواءً بالأرض، فيخرجون منه، يروج بعضهم في بعض، ويعيثون فساداً في

(١) ظهر المعاد يظهره ظهوراً جليلاً تَلَقَّاهُ معادته عِلَّاهُ

الناس، وذلك من أمارات يوم القيامة؛ ويعد هذا يُنْفَخُ في الصور فيُجْمَعُونَ وسائر الناس للحساب، وتُفْرَضُ جهنم للكافرين الذين عَمُوا وصَمُّوا عما يُذَكِّرهم بذلك اليوم.

ثم ويُنْهَضُهم على ظنهم أن يتبعوا بمن اتخلوهم أولياء من دونه، مع إرضائهم عن قُلُوبِ ما ذُكِّرُوا به؛ وذكر سبحانه، أنه أعد لهم جهنم ثُلَّةً فلا يصرفهم أحد عنها؛ ثم ذكر من قبيح صفاتهم، أنهم قد ضلَّ سعيهم في الدنيا وهم يُخَسِّبُونَ أنهم يُخْسِرُونَ ضُحًا، إلى غير ذلك مما ذكره من وعيدهم؛ ثم أَتْبَعَ وعيدهم لبُوعَدِ المؤمنين على عادته في الجمع بين الشريب والترغيب، فقال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ وَهُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لِمَنَ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمَهُ ۚ لَا يُحِيطُ بِشَيْءٍ سِوَاكَ ۚ لَهُ الْكُرْسِيُّ الْعَظِيمُ ۚ لَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۚ﴾.

الخاتمة

الآيات [١٠٩ - ١١٠]

ثم قال تعالى: ﴿عَلَىٰ لَوْ كَانَ الْآخِرُ

يَدَا لِكُلِّتِي وَيَوْمَ تَقَعُ الْبَحْرُ قَدْ أَنْ تَقَعُ
كُلُّتِي وَيَوْمَ تَقَعُ جَنَّا يَمْلِكُ مَنَّا ﴿١٣٠﴾ .

فختم السورة بالتنويه بشأن ما جاء
فيها من ذلك القصص العجيب، وذكر
جل جلاله أن كلماته في هذا الشأن
العجيب لا تنفد، وأنه لو كان البحر

مبدأ لها لتنفد قبل نفادها؛ ثم أمر
الرسول (ص) أن يذكر لهم أن مثله لا
يقدر على مثل هذا، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا
أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرْسَلُ إِلَيَّ أَنَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ
وَدِيدٌ فَمَنْ كَانَ يَتُخَّ إِلَهًا دُونَ مَبْنًى عَمَلًا
صَلِيلًا وَلَا جُزْءَهُ يَمْلِكُ دُونَهُ لَسَا﴾ ﴿١٣١﴾ .



سازمان اسناد و کتابخانه ملی
جمهوری اسلامی ایران

أسرار ترتيب سورة «الكهف» (٥)

ثم ظهر لي وجه آخر أحسن في الاتصال. وذلك: أن اليهود أمروا المشركين أن يسألوا النبي (ص) عن ثلاثة أشياء: عن الروح، وعن قصة أصحاب الكهف، وعن قصة ذي القرنين^(١). وقد ذكر جواب السؤال الأول في آخر «الإسراء»، فتناسب اتصالها بالسورة التي اشتملت على جواب السؤالين الآخرين.

فإن قلت: لماذا لم يجمع الثلاثة في سورة واحدة؟

قال بعضهم: مناسبة وضعها بعد سورة الإسراء: افتتاح تلك بالتسبيح، وهذه بالتحميد^(٢)، وهما مقتونان في القرآن وسائر الكلام بحيث يسبق التسبيح التحميد، نحو: ﴿سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر/ ٩٨] ونحو ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الشورى/ ١٥٥] في ٣٩/ الطور/ ٢٤٨. وسبحان الله وبحمده.

قلت: مع اختتام ما قبلها بالتحميد أيضاً^(٣)، وذلك من وجوه المناسبة بتشابه الأطراف.

(٥) انقضي هذا المبحث من كتاب «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الازهر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

(١) راسب آخر ذكره ابن القلنكي هو أن صورة «الإسراء» اشتملت على الإسراء الذي كُذِّب به المشركون وكُذِّبوا (رسول) (ص) من أجله وتكليفه تكذيبه، فأتى به ﴿سَبِّحْ﴾ تنزيهاً لله عما يُؤسب إلى يده من الكذب. وسورة الكهف، لما نزلت بعد سؤال المشركين عن قصة أصحاب الكهف وتأخر الوحي، نزلت مُبَيِّنَةً أن الله لم ينقطع عنه من رسوله ولا من المؤمنين فتناسب افتتاحها بالحمد (الأخلاق ٣/ ٣٨٧).

(٢) حاتم الإسراء ﴿وَبِذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكَ آيَاتِهِ﴾ ﴿وَبِذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكَ آيَاتِهِ﴾ [الإسراء/ ١١١].

(٣) انظر تفسير ابن كثير: ١٣٧/٥.

قلت: لما لم يقع الجواب عن الأول بالبيان^(١)، ناسب فصله في سورة.

ثم ظهر لي وجه آخر: وهو أنه لما قال سبحانه فيها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا يُلَاقِيهِمْ كُذَّبًا﴾، والخطاب لليهود، واستظهر على ذلك بقصة موسى (ع) في بني إسرائيل مع الخضر (ع)، التي كان سببها ذكر العالم والأعلم^(٢)، وما دلت عليه معلومات الله عز وجل التي لا تحصى من الإحاطة، فكانت هذه السورة كإقامة الدليل على ما ذكر من الحكم.

وقد ورد في الحديث أنه لما نزل في سورة الإسراء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا يُلَاقِيهِمْ كُذَّبًا﴾، قال اليهود: قد أوتينا

التوراة، فيها علم كل شيء، فنزل في هذه السورة^(٣). ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكُنْتُ رَبِّ لَوَدَّ الْبَحْرُ قَدْ أَدَّ شَعْدَ كُنْتُ رَبِّ وَلَوْ جُنَّ يَتَّبِعُونَ مَدَّكَ﴾. فهذا وجه آخر في المناسبة. وتكون السورة من هذه الجهة جواباً عن شبهة الخصوم، فيما قدر بترك.

وأيضاً، فلما قيل هناك: ﴿إِنَّا جَاءَ وَقَدْ أَخْبَرَكُنَا بِمَا لَيْدِكُمْ﴾ [الإسراء] شرح ذلك هنا، وبسطه بقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَاءَ وَقَدْ جَاءَ رَبِّ جَعَلَهُ ثَلَاثًا﴾ [الأية ٩٨] إلى قوله جمل وعلا: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾. ﴿وَوُضِعَ الْجَهَنَّمَ يُؤْمِلُونَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا﴾ فهذه وجوه عديدة في الاتصال.

- (١) لم يقع الجواب بالبيان، وإنما وقع بإسناد علم الروح في الله. ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ أَمْرِ رَبِّ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا يُلَاقِيهِمْ كُذَّبًا﴾ [الإسراء]
- (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند - ٢٥٥/١، وفيه أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي حيراً كثيراً.
- (٣) وفي رواية لابن جرير في التفسير - ١٠٤/١٥. عرفت. ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ تِلْكَ الْآيَاتِ أَتَمَّةٌ لَقُتِلُوا﴾ [التوبة]

مكتونات سورة «الكهف» (*)

- ١ - «أَصْحَابُ الْكَهْفِ» (الآية ٩).
قال أبو جعفر: كان أصحاب الكهف صيارفة.
قال مُجاهد: كانوا أبناء عظماء أهل مدنتهم.
وقال ابن إسحاق: الكهف في جبل يُقال له: بنجلوس.
وقال مُجاهد: بين جبلين.
أخرج ذلك كُلُّهُ ابنُ أبي حاتم، وأخرج ابنُ جرير عن ابن عباس: أن
- الرقيم وإدريس عُشْقَان وأَيْلَة ومروا^(١) قريب من أَيْلَة.
وأخرج عن شعيب الجبائي أن اسم جبل الكهف: «بنجلوس»^(٢) واسم الكهف: «حرم»^(٣).
٢ - «وَكَلْبُهم» (الآية ١٨).
قال الحسن: اسمُه قَطْبِير.
وقال مُجاهد: قَطْمورا.
وقال شُعَيْبُ الجَبْيَانِي: حُمُرَان^(٤).
وقال كثير النَّوَّاء^(٥): كان أصفر.

(١) انتهى هذا المبحث من كتاب المنجيات الأكرى في شَهْمَاتِ التَّرَاثِ السُّورِيَّةِ، تحقيق إِيَادُ حَالِدِ الطَّيَّاح، مؤسسة قرصانة، بيروت، غير مؤرخ.

(٢) رواية من «تفسير الطبري» ١٣١/١٥. وعُشْمَانُ قرية بين الجصة وسُكَّةَ، انظر مجمع البلدان ١٢٢/٤.

(٣) كلها في «تفسير الطبري» ١٣٢/١٥.

(٤) كلها في الأصول، وفي تفسير الطبري، وتفسير ابن كثير ٧٣/٢: «حبرم». وانظر مادة «الرقيم» في مجمع البلدان.

(٥) وهو خطأ، ومخالف للطبري ١٣٢/١٥.

(٦) هو كثير بن إسماعيل، أو ابن مافع، أبو إسماعيل التميمي، الكوفي، عشفه حفاظ الحديث، كأي حاتم والسلي. ووالدته نسيه إلى بيع التري.

وقال رجل يقال له عبيد: أحمر.

أخرج ذلك كله ابن أبي حاتم، إلا قول شُعَيْب فابن جرير.

وفي «المعاني» للكرماني: قيل: إن الرقيم: اسم كلهم.

قلت: أخرجه ابن أبي حاتم عن أنس.

٣ - ﴿كَاسَبُوا لَكُمْ﴾ [الآية ١٩].

هو تمليخا. قاله ابن إسحاق.

٤ - ﴿إِلَى الْمِيْنَةِ﴾ [الآية ١٩].

قال مُقَابِل^(١): هي مَيْسَج. أخرجه ابن جرير.

٥ - ﴿سَيَقُولُونَ لَنَنَجِّيَنَّ﴾ [الآية ٢٣].

قَالَ الْيَهُود.

٦ - ﴿وَيَقُولُونَ كَذِبًا﴾ [الآية ٢٢].

قاله الثَّعَالِي، قاله السُّدِّي وغيره.

٧ - ﴿فَمَا يَسْأَلُهُمْ إِلَّا قِيلٌ﴾.

قال ابن عباس: أنا من أولئك القليل، وهم سبعة^(٢).

وفي رواية عنه: وَهُمْ ثمانية. أخرجهما ابن أبي حاتم. وأخرج عن ابن مسعود أيضاً قال: أنا من القليل، كانوا سبعة. وسماهم ابن إسحاق: تمليخا، ومكسميلينا، ومحسميلينا ومرطونس، وكسوطونس، وبيورس، ومكرنوس، ونطسوس، وقالوس^(٣).

فائدة:

أَخْبَرَ الْمَلَمَاءَ عَلَى أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ كَانُوا بَعْدَ عِيسَى (ع)، وَذَهَبَ ابْنُ عُثَيْمٍ^(٤) إِلَى أَنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَهُ، وَأَنَّهُ أَخْبَرَ قَوْمَهُ خَبْرَهُمْ، وَأَنَّهُ يَقْطَعُهُمْ بَعْدَ رَفْعِهِ زَمَنَ الْفُتْرَةِ. وَحَكَى ابْنُ أَبِي

(١) لم نجد هذا الأثر في تفسير ابن جرير.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط وفيه يحيى بن أبي روق، وهو ضعيف. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/

(٣) هناك بعض الاختلاف في النسخ وابن كثير ٧٨/٣ أحصاها فقول ابن كثير: فولي تسميتهم بهذه الأسماء، واسم كلهم: نظر في صحت، والله أعلم. قال غالب ذلك مُتَأَثِّرٌ من أصل الكتاب. وقال الله تعالى ﴿فَلَا تُنْفِرُوا فِيهِمْ﴾ [الآية ٢٢] أي سبوا حباً، فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كثير فائدة.

(٤) ابن عثيمين (١٢٣ - ٢٧٦ هـ): عبد الله بن مسلم بن قتيبة القتيبي، من أشد الأديب والدين، ومن الصالحين المكثرين، سَمِعَ مِنْهُ فِي الْأَدَبِ وَآدِبِ الْفُقَهَاءِ، وَلَدَ بَهْدَادَ وَسَكَنَ الْكُوْفَةَ، صَافٍ: تَتَأَوَّلُ مِنْتَافِ الْحَدِيثِ، وَآدِبِ الْكُتُبِ وَالْمَعَارِفِ وَفِيهِ مِنَ الْأَخْبَارِ وَفَرِيبِ الْحَدِيثِ، وَغَيْرَهَا كَثِيرٌ

حيثمة^(١) أنهم يُبْعَثُونَ^(٢) في أيام عيسى (ع) إذا نزل، ويحبون البيت.

٨ - ﴿مَعَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ﴾ [الآية ٢٨].

تقدم بيأنهم في سورة الأنعام.

٩ - ﴿مَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ﴾ [الآية ٢٨].

قال خُباب^(٣)، يعني حبيسة بن حصن، والأقرع بن حابس^(٤).

وقال ابن بُزْدَةَ^(٥): هو عينة. أخرج ذلك ابن أبي حاتم. وأخرج عن الربيع أنه أُمِّيَّةٌ بَنُ حُلَفٍ. وكذا أخرجه ابن مَرْدُودٍ^(٦) عن ابن عباس.

١٠ - ﴿وَأَقْرَبَ لَكُمْ مَثَلًا نَبِيًّا﴾ [الآية ٣٢].

قال الكَرِمَاتِي في «العجائب»:

قيل: كانا من أهل مكة، أحدهما مؤمن وهو: أبو سَلَمَةَ، زوج أم سَلَمَةَ. وقيل: كانا أخوين في بني إسرائيل، أحدهما مؤمن اسمه: تَمْلِيخًا.

وقيل: يهوذا والأخضر كافر اسمه: فطروس؛ وهما المذكوران في سورة الصافات^(٧).

١١ - ﴿وَذَرَّكُمْ﴾ [الآية ٥٠].

أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: ولد إيليس خمسة: ثُبَر، والأعور، وزَلْجُور، ومِسْرَط^(٨).

(١) ابن أبي طيخمة (١٨٥ - ٢٧٩ هـ): أحمد بن زهير، أبو بكر، مؤرخ وس حافظ الحديث، كان ثقة، رابية للأدب، صنف التاريخ الكبير وهو كتاب مخطوط، يكثر المصنفون من النقل عنه قال الدارقطني: لا أعرف أحزر فوائد من كتابه.

(٢) عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرْ لَهُمْ بِتُوبَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة ٥٢].

(٣) يعني خُباب بن الأرقط الصحابي، رضي الله عنه.

(٤) أثر خُباب هذا، أخرجه الحافظ بن حجر في «المطالب العلية» برقم (٣٦١٨) وعمره لا يفي بشئ وابن أبي شيبة، وأما الحافظ البصري، كما في هامش «المطالب العلية»، أن سيد أبي بلى صحيح، وعمره أيضاً في ابن عسكراً.

أقول وأخرجه الرازي في «أسباب النزول» ٢٢٤ من تفسيران الفارسي.

(٥) كما في «المعجم» ٢٢٠/٤.

(٦) والرازي في «أسباب النزول»: ٢٢٥.

(٧) في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَبِلْ بَيْنِي وَبَيْنَ الَّذَيْنِ﴾ [الصافات].

(٨) كما في «الطبري» ١٧١/١٥ و«المعجم» ٢٢٧/٤ و«تاج المروس» مادة (سوط).

وَدَائِمٌ^(١)، فَمُسْتَوْطٌ: صاحب الصُّكْبِ، والأعور وقائِمٌ لا أدري ما يعملان. وكثير: صاحب المصائب. وَزَلَّ تُبُورٌ: الذي يُفِرَّقُ بين الناس، وَيُصَرِّفُ الرجلَ عيوبَ أهله^(٢).

وأخرج ابن جرير^(٣) عنه قال:

زَلَّ تُبُورٌ: صاحب الأسواق، يضع رايته في كل سوق لما بين السماء والأرض^(٤) وكثير: صاحب المصائب. والأعور: صاحب الزنا. ومُسْتَوْطٌ: صاحب الأخبار، يأتي بها فيلقبها في أفواه الناس، ولا يجدون لها أصلًا. ودَائِمٌ: الذي إذا دخل الرجل بيته ولم يسلم، ولم يذكر الله بصره من المتاع ما لم يُرفع. وإذا أكل ولم يذكر اسم الله أكل معه.

١٢ - ﴿وَلَا تَكَلِّمُوا مَن لَّا يَنفَعُكُمْ﴾

[الآية ٦٠].

قال ابن عباس وغيره: هو يوشع بن نون. أخرجه ابن أبي حاتم^(٥). وفي «المعاني» للكُرَماني: كان أخًا ليوشع. ١٣ - ﴿مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ﴾ [الآية ٦٠].

قال قتادة: هما بحرا المشرق والمغرب بحرا فارس والروم. وكذا قال الزجاج.

وقال السُّدِّي: هما الكَرَّ والرُّس^(٦) حيث يصبان في البحر.

وقال محمد بن كعب: مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ بِطَنْجَة^(٧).

وقال أبي بن كعب: بأفريقية. أخرج ذلك ابن أبي حاتم.

١٤ - ﴿قَرِيبًا مِّنْ عَسَاوَا﴾

[الآية ٦٥].

(١) كما ورد في تفسير الطبري: «تاج القروس».

(٢) كما في تاج القروس.

(٣) ١٧١/١٥.

(٤) زيادة من الطبري.

(٥) رواية ابن عباس هذه، جاءت مرفوعة في «صحيح البخاري» برقم (١٧٢٦) في التفسير.

وجاء في «الإقتضاء» ٢/٢٤٧: «وقيل: أطرو يثري».

(٦) كذا في «فتح الباري» ٨/٤١٠، و«معجم البلدان» ٤٤/٣، وفيه أنهما يصبان في بحر حرجاء.

(٧) «طنجة» مدينة مرفوعة في المغرب تطل على البحر.

هو الخفير، كما في «الصحیح»^(١)
وغيره.

واسمُهُ: بلياء. وقيل: اليسع. وقيل:
إلياس. حكاه الكرمانلي في «عجائبه».

١٥ - ﴿لَيْسَ ظَنَّا﴾ [الآية ٧٤].

قال شعيب الجبائي: اسمه:
جيسور^(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

١٦ - ﴿أَيُّهَا أَفَلَّ قَرِيْبُ﴾ [الآية ٧٧].

قال ابن سيرين: هي الأثلة^(٣).

وقال السُّنْدِيُّ: باختروان^(٤). أخرجه
ابن أبي حاتم. وأخرج من طريق قتادة
عن ابن عباس، قال: هي أبرقة.

قال: وَخَذْتُ زُجْلَ لَهَا: أنطاكية.

وقيل: هي قُرْبُكِيَّة. حكاه ابن
عسَّكر.

١٧ - ﴿وَكَانَ وَرَثَتُهُمْ مَقْلُوبَةً﴾ [الآية ٧٩].

اسمه مُقَدَّد بن مُقَدَّد. كما في
«البخاري»^(٥).

وقيل: «الجلند»^(٦). حكاه ابن
عسَّكر.

١٨ - ﴿كَبُرَتْ مَوَئِدُهُمْ﴾ [الآية ٨٠].

اسم الأب: كازِيسراء، والأم:
سهوى^(٧).

١٩ - ﴿وَأَرَادَ أَنْ يَبْذُلَهُمَا رَجُلًا سَرِيْرًا
يَتِيمًا﴾ [الآية ٨١].

قال ابن عباس: أَيْدِلًا جاريةً وَلَذْتُ
نَبِيًّا. أخرجه ابن أبي حاتم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السُّنْدِيِّ،
قال: ولدت جارية، وَلَذْتُ نَبِيًّا؟ وهو
الذي كان بعد موسى الذي قالت له

(١) البخاري برقم (٢٧٢٥) في التفسير، وسلم في الفضائل (١٦٢)، والترمذي (٣١٤٨) في التفسير، والحميدي،
في مسنده برقم (٣٧١)، والمصطفي البغدادي في «الرحلة في طلب الحديث» برقم (٢٩).

(٢) في التفسير ابن كثير ٩٨/٣: «سحورة»، وفي «الإنشاد» ١٤٧/٣: «جيسورة»، بالهمز وقيل بالسكنة.

(٣) الأثلة: بلدة على شاطئ دجلة البصرة المسمى في زمنية الفلج، الذي يدخل إلى مدينة البصرة، وهي أنكم من
البصرة قال الأصمعي: جاءت الدنيا ثلاث طروقة دمشق، وبهر بلخ، وبهر الأثلة «مجمع البلدان».

(٤) باختروان. مدينة في نوسى الأتراك قرب شروان «مجمع البلدان» ٣١٣/١.

(٥) برقم (٤٧٦٦) في التفسير.

(٦) ما ذكره المصنف أهلاً منسوباً إلى ابن عسَّكر. أسند الحافظ في فتح الباري ٢٠/٨ إلى التفسير مفاداً:
وراد: «فكان بجزيرة الأنطس» قال: «وقيل: سولة بن الجلفي بن سيد الأزدية».

(٧) في فتح الباري ٢١/٧: «عولي القسقاء» لوعب بن سبَّه. «كان اسم أبيه: ملاس، واسم أمه: وحما» وقيل
اسم أبيه: كادوي، واسم أمه: سهوىة.

بنو إسرائيل ﴿أَتَيْتُكُمْ لَأَكْفِيَنَّكُمْ﴾ [البقرة/ ٢٤٦] وكان اسمه شمعون، وكان اسمها: حنة.

٢٠ - ﴿إِلَهُنَّيْنِ يَتَّبِعِي﴾ [٥٧: ٨٢].

هما حُزْنَم، وأَضْرَم، ابنا كاشع؛ وأنهما دُنْيا.

٢١ - ﴿وَيَجِدْ وَتَمَّامًا قَوْمًا﴾ [الآية ٨٦]

كافرين.

٢٢ - ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ عَلَى قَوْمٍ﴾ [الآية ٩٠].

قال قتادة: يقال إلهم الزنج. أخرجه عبد الرزاق.

٢٣ - ﴿بَيْنَ النَّصَّانَيْنِ﴾ [الآية ٩٦].

قال الضحاك: هما من قِبَل أرمينية وأذربيجان^(١). أخرجه ابن أبي حاتم^(٢).

(١) يجوز فيها فتح الراء، وسكون الدال، وفتح اللام، وسكون الراء. كما في مصمم البلدان، ١/ ٢٢٨

(٢) والطبري ٢١/ ١٦

لغة التنزيل في سورة الكهف (*)

١ - وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ نُسَلَكَ عَنْ أَسْرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمَرُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾.

الباخ: القاتل المهلك، يقال: بَخَعَ نفسه يَبْخَعُهَا بَخْعاً وَيُخَوِّعُهَا، قال ذو الرُّمَّة:

ألا أَلْهَذَا الْبَاخُ الرُّخْدُ نَفْسَهُ
لِسِيٍّ نَحْنُهُ عَنْ بَلْبِهِ الْمَقَابِرُ
أقول: والبَخْعُ من الكلم القديم الذي انقضى منذ عصور.

٢ - وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾.

قالوا: الرقيم اسم كلبهم، قال أمية بن أبي الصلت:

وليس بها إلا الرقيم مجاوراً

وَصَيَّنَّاهُمُ وَالْقَوْمُ فِي الْكَهْفِ فَسُدُّ
وقيل: هو لوح من رصاص، رُقِمَتْ فيه أسماءهم، جُعِلَ في باب الكهف.
وقيل: إن الناس رفعوا حديثهم نقرأ في الجبل.

وقيل: هو الولدي الذي فيه الكهف،
وقيل: الجبل، وقيل: مكانهم بين حصيان وأيلة دون فلسطين.

أقول: الذي أراه أن «الرقيم» هو «المرقوم»، ولعله كتابهم أو كتابتهم، وما سطره ونقشه.

وما زال «الرقيم» في العربية يشير إلى الكتابة والنقش والإشارة.

٣ - وقال تعالى: ﴿وَرَبَّنَا عَنِ آلِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الآية 14].

(*) انظر هذا المبحث من كتاب «معجم لغة التنزيل»، لإبراهيم السقزاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

وقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، أي: قويناها بالصبر على هجر الأوطان والنعيم، والغرور بالتين إلى بعض الغيuran^(١)، وجسرناهم على القيام بكلمة الحق وللتظاهر بالإسلام.

أقول: والربط على القلوب، كناية جميلة عن تقويتها بالصبر والجُلْد على الصعاب.

٤ - وقال تعالى: ﴿وَرَىٰ أَلْمَسَىٰ يَإَيَّا طَلَّتْ زُرُودٌ مِّنْ كَهْمِهِمْ ذَاكَ الْيَبْيِ وَإِنَّا حَرَبْتَ تُفْرِيَّتَهُمْ ذَاكَ الْإِسْمَالِ﴾ [الأنعام: ١٧].

قوله تعالى: ﴿زُرُودٌ﴾ أي: ثياب، والأصل تَزَارُود.

وُفْرِي: تزود وتزود بوزن تُخَمَرُ وتُحْمَارُ، وكلها من الزُود وهو الميل، ومنه زاره إذا مال إليه.

وهذا يدلنا على أن «الزيارة» من الزُود، وهو الميل الحسي الذي تحول إلى زيارة، وذهب فيهما ميل جسدي، وآخر معنوي عاطفي.

٥ - وقال تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بِمِصْرَ يُدْرِكُهُمُ الْوَيْبُذُ﴾ [الأنعام: ١٨]. انظر: (المرآة) ٩/.

٦ - وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَخْرَجْتُمْ مِنْكُمْ هَنُودًا إِلَىٰ الْبَيْتِ﴾ [الأنعام: ١٩].

«الورق»: الفضة مضمومة كانت أو غير مضمومة، وفُفْرِي بسكون الراء والواو مكسورة أو مفتوحة، وكذلك الرُقَّة، وقالوا: إنها الدراهم.

أقول: وهذا من الكلم القديم الذي بقي في النصوص القديمة.

٧ - ﴿وَسَكَدَتْ أَعْيُنُنَا عَنْ رِّبِّهِمْ فَعَلَّمُوا أَنَّهُمْ وَفَدَ لَهُمْ حَتَّىٰ﴾ [الأنعام: ٢١].

أي: وكذلك أعثرنا عليهم (أي: أهل الكهف) أهل المدينة.

و«أعثر» في الآية فعل متعد، حُلِفَ مفعوله، تقديم: أهل المدينة.

وقد جاء هذا الفعل في الآية: ١٠٧ من المائدة، ببناء الثلاثي وهو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَقْبِلُوا لِقَاءَ رَبِّكُم يَوْمَ تَلْقَوْنَ أَهْلًا مِّمَّنْ تَتَرَوْنَ كَدِّ الْعَيْنِ﴾ [المائدة: ١٠٧].

أقول: وعلى هذا، يكون استعمال المعاصرين صحيحاً حين يقولون: عثرنا على هذه المسألة، مثلاً.

(١) الجيران، جمع الغار.

وجاء في معجمات العربية: وعثر على الأمر: أطلع عليه.

ولا حجة لمن ذهب إلى خطأ هذا القول من المعاصرين.

٨ - وقال تعالى: ﴿وَقُلْ صَوِّ كُنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي﴾ الآية ٢٤.

أقول: إن الاكتفاء بالحركة القصيرة بعد النون، يهيئ مناسبة أن يجيء بعدها حركة طويلة في قوله تعالى: ﴿رَبِّي﴾، ولو أنك أطلعت في الأولى وقرأت «يهديني» لما خسر الأداء من الناحية الصوتية، ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ الآية ١٧.

فإن «المُهْتَدِ» جاء بالكسر، والأصل «المهتدي»، ولكن لما خسن الوقف عليه اجتزأ بالكسر، توقفاً للسكر، الذي يتطلبه الوقف.

٩ - وقال تعالى: ﴿وَلَنْ نَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً﴾.

«الْمُلْتَحِد» بزنة اسم المفعول: الملتجأ.

أقول: وليس لنا في عريشتنا المعاصرة إلا الثلاثي، ومنه «اللتخ».

١٠ - وقال تعالى: ﴿وَأَمِرَ نَفْسَهُ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْمَغْذُوبَةِ وَاللَّيِّنِ يَرْيَدُونَ وَبِهِمْ وَلَا تَقْدُ حِيلًا عَنْهُمْ يُرِيدُ رِزْقَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا يُطِيعُ مَنْ أَعْتَدْنَا لَهُ مِنْ ذِكْرِكَ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ رُكَاً﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمِرَ نَفْسَهُ﴾، أي: احتسبها معهم وثبتها، قال أبو ذؤيب:

فصبرتُ عارفةً لملك حسرة

نرسو إذا نفس الجبان تطلُع
أقول: وهذا من معاني «الصبر» القديمة، التي عفا أثرها بسبب شبرع معنى «الصبر» المعروف، وهو الصبر على المحن والشدائد، وبهذا المعنى أصبح الفعل «صَبِرَ» من الأفعال اللازمة، وأصله التعتي؛ لأن المعنى هو التحسب في الأصل، فكان «الصابر» على الشدة من يحبس نفسه، فيحملها على الاحتمال.

قلت: لم يبق من هذا المعنى شيء إلا ما اصطلاح عليه أهل الشمال الإفريقي، الذين أخذوا المضاعف، وأطلقوه على ما يحبس من الفواكه والخضر واللحم في الصفيح، وهو ما

ندعوه في المشرق «المعلبات» وعندهم يقال: «المصبرات».

أقول: وأهل إفريقية في هذه اللفظة، أفصح منا نحن عرب المشرق؛ فلك أن «المعلبات» والتعليب قد جاء من «الغلبة»، وهي قَدْحُ ضخم من جلود الإبل، وقيل: الغلبة من خشب، كالقَدْح الضخم يحلب فيها، وقيل: إنها كهية الفضة من جلد، ولها طَوَّق من خشب.

وهذه «الغلبة» القديمة كان لنا في العراق شيء منها، ولا سيمها في بغداد، فهي وعاء من خشب، تصب فيه القرويات اللبن الخائر، ويأتين به لياع.

وجاء في الآية أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْدُ حِينَاكَ عَنْهُمْ﴾.

والمعنى: ولا تتجاوزهم حينك وتتعبأهم، أي لا تتجاوز حينك الفقراء، وتزوروا عنهم.

أقول: وهذا استعمال جميل للفعل «عدا يعدو».

وجاء في الآية نفسها: ﴿وَكُنْتَ أَمْرُؤَ﴾.

والمعنى: كان أمره مجاوزاً الحد.

وهذا من الكلم الجميل الذي لا نعرفه الآن، وإن كنا نستعمل الإفراط والتعريط.

١١ - وقال تعالى: ﴿يَسُرُّ الْكَرْبُ وَسَكَنَتْ مَرْفَقَا﴾.

وقال أيضاً: ﴿يَسَمُ الْقَرْبُ وَحَسَتْ مَرْفَقَا﴾.

والمعنى: المَرْفَقُ هو المُنْكَأ من المرفق، وهذا لمشاكلة قوله سبحانه: ﴿وَحَسَتْ مَرْفَقَا﴾، وإلا فلا ارتفاق لأهل النار، ولا انكاء.

١٢ - وقال تعالى: ﴿كُنَّا لِمَسْكِينٍ مَكَتٌ أَكَلَهَا وَلَمْ تَطْلُرْ مَنَّهُ شَيْئاً﴾ الآية (٣٣).

أي: كل واحدة من الجنتين آتت غلتها، وأخرجت ثمرتها.

أقول: جاء الفعل مخشوماً بتاء التانيث آتت، ولم يأت «آتنا» كما وردت في بعض القراءات.

فماذا يقال في هذه المسألة؟ قالوا: إن «كلتا» مفرد، ولذلك حُوِّلَ العمل بعدها على اللفظ، ولو حُوِّلَ على المعنى لقبيل: آتا.

كان «كلتا» اسم مقصود مفرد، ولذلك فإن مراعاة لفظها أكثر وأصح

من مراعاة معناها، مثلها مثل «كل»
لفظها مفرد، وهو المحمول عليه أكثر
مما يحتمل على معناها؛ ومثل هذا
«سن» و«ما» الموصولين أو
الشرطيان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنَّا ظَاهِرِينَ﴾، أي:
لم نكن ظاهرين.

وإعادة «الظلم» لمعنى النقص معروف
في العربية وهو كقول الشاعر:

أَهْطِلْ لِي مَالِي كَذَا وَلَوْ يَدِي
لَسَوِي يَمَنَهُ اللَّهُ الَّذِي هُوَ غَالِبُهُ
أي: يتقصني مالي.

أقول: ولشروع «الظلم» في دلالة
المعروفة في عصرنا، أنشأته هذه
الدلالة الأخرى التي وردت في الآية.

١٣ - وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَمَنٌ﴾
يَسْرُورُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿٤٣﴾.

أقول: كنا قد أشرنا إلى أن العربية
قد تحمل على اللفظ كثيراً، فأشرنا إلى
أن كلمة «كل» لفظها لفظ المفرد،
وكذلك «وذهب»، و«فقد»، و«قوم»،
و«شجر»، و«مفل» وغير ذلك كثير.

وقد تحمل على المعنى في الكلمات
التي أشرنا إليها، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَخْرُجَنَّ مِنْ

قَوْمِ عَدُوٍّ أَنْ يَكُونُوا حِجَابًا وَبَيْنَهُمْ﴾ (التحريم/١١).

وفي غير هذه الكلمات.

وهذا يعني أننا لا نستطيع أن نقول:
إن هذا أنصح من ذلك.

وقد كنا عرضنا لكلمة «طائفة»،
وكيف وردت في الآيات الكريمة يُرَاقَى
لفظها مرة، كما يُرَاقَى معناها أخرى.

ومثل «طائفة» كلمة «فئة»، ولنعرض
الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة:

قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يُطِئُونَ
أَنفُسَهُمْ لُتَمَتْنَا لَهُمْ مِنْ قَبْلُ فَكَفَرُوا فَلْيَلْزِمُوا
مَوَاقِفَهُمْ فَتَنَةً كَثِيرَةً يَأْخُذُونَ أَقْوَامًا﴾ (البقرة/١٢٩).

﴿يَتَذَكَّرُ فِي سَكِينَةٍ لَهُمْ وَأَلْسِنَةٍ
حَكِيمَةٍ﴾ (آل عمران/١٣).

﴿وَكُنْ تَقِيًّا عَنَّا فَتَمَكَّنْ مِنَّا وَكُنْ
كَثِيرًا﴾ (الأشع/١٩).

﴿فَمَا سَكَدَ لَهُ مِنْ فِتْنَةٍ يَسْرُورُهُ﴾
(التيسر/٨١).

﴿قَدْ صَدَّقَ لَكُمْ مَايَةُ فِي فَتْنَةٍ
الَّتَقَاتُ﴾ (آل عمران/١٣).

أقول: ومجيء كلمة «فئة» في جملة
هذه الآيات نظير ما ورد في كلمة

«طائفة» وغيرها في لغة التثنية.

١٤ - وقال تعالى: ﴿وَرَبَّكَ اسْمِعْهُمْ قَلِيلًا﴾ [١٧: ٥٥].

قوله تعالى: ﴿مُؤَافِقُوهَا﴾ أي: مخالطوها واقعون فيها.

أقول: وهذا استعمال للفعل «وَأَفَقَّ» بحق لنا أن نقف عليه.

١٥ - وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾.

أي: لقد جئت شيئاً عظيماً، وهو من أَمَرَ الأمر إذا عَظُمَ، قال داعية غيابة إذا إمرأ.

أقول: ما كان أحوجتنا إلى أن نحفظ هربيتنا المعاصرة بهذا النوع من الكلم الثلاثي الجميل، وهو قريب بنا، ولا سيما أن مادة «أمر» كثيرة التداول.

١٦ - وقال تعالى: ﴿فَأَسْلَفْنَا سَوْخَ إِذَا آتَا أَمَلٌ قَرِيبٌ أَسْلَفْنَا أَهْلَهَا فَأَبْرَأَ أَنْ يُضَيَّقُوا فَوَجَدْنَا فِيهَا جَذَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُصَ فَأَفْكَسْنَا﴾ [١٧: ٧٧].

قوله تعالى: ﴿أَسْلَفْنَا أَهْلَهَا﴾، أي: طَلَبْنَا الطعام.

وقوله سبحانه: ﴿أَنْ يُضَيَّقُوا﴾ وقرئ يُضَيِّفُوهُمَا. ويقال: ضايقه إذا كان ضيقاً.

وحقيقته: مَالٌ إليه، من ضايف السهم من العَرَضِ، ونظيره: زازه من الأزودار.

وأضافه وحقيقته: أنزله وجعله ضيفه.

وفي قوله تعالى: ﴿فَوَجَدْنَا فِيهَا جَذَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُصَ﴾، استعميرت الإرادة للمدانة والمشاركة.

أقول: كأن القول: هو أنك أن ينقص. واستعمارة الإرادة للمدانة والتسارفة لا نعرفها في العربية المعاصرة، ولكننا نجدتها في العامية الدارجة في العراق، فنقول في المناسبة نفسها في الحديث عن جدار أهل للسقوط: «يريد بسقوط».

المعاني اللغوية في سورة «الكهف» (٥)

أي: شَيْئًا يَرْثِقُونَ بِهِ.

وفي قوله تعالى ﴿تَقْرِئُهُمْ نَكَتَ الْكِتَابِ﴾ [الأنعام ١١٧] «ذَاتُ الْكِتَابِ» نصب على الظرف.

وفي قوله تعالى ﴿فَلْيَنْظُرْ لَهَا زَكَّاهُ﴾ [الأنعام ١١٩] فلم ير وصل «فَلْيَنْظُرْ» إلى «لَهَا» لأنه من الفعل الذي يقع بعده حرف الاستفهام تقول: «انْظُرْ أَزِيدُ أَكْثُرُ أَمْ تَقُومُ».

وقال تعالى ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام ٢٤] أي: إِلَّا أَنْ نَقُولَ: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» فَأَجْزَأُ مِنْ ذَلِكَ هَذَا وَكَذَلِكَ إِذَا طَالَ الْكَلَامُ أَجْزَأُ فِيهِ وَصَارَ شَبِيهاً بِالْإِمَامِ، لِأَنَّهُ يَقْضِيهِ يَدُلُّ عَلَى بَعْضٍ.

قال تعالى ﴿يَوْمَآ﴾ [١] ﴿يَوْمَآ﴾ [٢] أي: أنزل على عبده الكتاب قيماً، ولم يجعل له جوجاً.

وقال سبحانه ﴿تُكَيِّدُ فِيهِ أَبْكَاءَ﴾ [٣] بالنصب على الحال، على «أَنَّ لَهُمْ لَبِيراً حَسَاساً» [الأنعام ٢٢].

وقوله تعالى ﴿كَثُرَتْ كَلِمَةً﴾ [٤] أي: في معنى: أَكْثَرَ بِهَا كَلِمَةً.

وقال تعالى ﴿مَفْسَقَ عَنْ لَتَى رَبْوَةٍ﴾ [الأنعام ٥٠] أي: «عَنْ رَدِّ أَمْرِ رَبْوَةٍ» نحو قول العرب: «أَتَجِمْ عَنْ الطَّعَامِ» أي: عَنْ مَأْكُلِهِ أَتَجِمْ، ولما رَدَّ هَذَا الْأَمْرَ فَسَقَ (١).

وقال تعالى: ﴿بَيْنَ أَثَرِكُمْ يَرْفَتًا﴾ [٥]

(٥) انتهى هذا المبحث من كتاب معاني القرآن للأخفش، تطويق عبد الأمير محمد أمين الورود، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ.

(١) نقله في التمهيد ٤١٤/٨، نقل، والصحيح فسق، وبه في الجامع ٤٢٠/١٠ إلى محمد بن مطرب.

وقال سبحانه ﴿أَبْصِرْ يَدِي وَأَنْصِعْ﴾ [الآية ٢٦] أي: ما أَبْصَرُهُ وَأَنْصَعُهُ، كما تقول: «أَكْرِمْ يَدِي» أي: ما أَكْرَمْتُهُ. وذلك أن العرب تقول: «يا أُمَّةُ اللَّهِ أَكْرِمِ بِرَبِّدِي» فهذا معنى ما أَكْرَمْتُهُ، ولو كان يأمرها أن تفعل، لقال «أَكْرِمِي رَبِّدَا».

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ يَلْعَنُهُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الآية ٢٢] أي: ما يَلْعَنُهُمْ من الناس إلا قليل. والقليل يلعنونهم.

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَلَيْنَا مِنْ ذَنْبِكُمْ﴾ [الآية ٢٩] أي: قُلْ هُوَ الذَّنْبُ. وقوله من الآية نفسها: ﴿وَسَاءَتْ ثَمَرَتُكُمْ﴾ أي: وساءت الدار مرتفعاً.

وقال تعالى: ﴿وَأَنْبِئْهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْءٌ﴾ [الآية ٣٢] ثم قال في الآية نفسها: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ شُرَكَاءَ﴾ [الآية ٣٤] وإِذَا ذَكَرَ الرَّجُلُ يُبْدِي فِي الْمَعْنَى وَكَانَ لِأَحَدِهِمَا شَرٌّ، فَأَجْزَأُ ذَلِكَ مِنْ هَذَا^(١).

وقال تعالى: ﴿يَكُنَّا لِمَنْ يَشَاءُ حَافِظِينَ﴾ [الآية ٣٣] بجمل الفعل واحداً، على اللفظ، لا على المعنى.

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ﴾

أَفْلَحْتُمْ لَمَّا ظَنَنْتُمْ [الآية ٥٩] يعني: أَفْلَحْتُمْ كَمَا قَالَ ﴿وَتِلْكَ الْقُرْيَةُ﴾ [يوسف/ ٨٢] أَجْرِي اللَّفْظُ عَلَى الْقَوْمِ وَأَجْرِي اللَّفْظُ فِي «الْقُرْيَةِ» عَلَيْهَا، إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿أَلَيْسَ كُنَّا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [٨٢] وقال سبحانه: ﴿أَفْلَحْتُمْ﴾ [الآية ٥٩] ولم يقل «أَفْلَحْنَا» حملة على القوم، كما قال «جاءت تميم» وجعل الفعل لـ «بني تميم» ولم يجعله لـ «تميم» ولو فعل ذلك لقال: «جاء تميم» وهذا لا يحسن في نحو هذا لأنه قد أراد غير تميم في نحو هذا [المشروع، فجعله اسماً، ولم يحتمل إذا اعتل أن يحذف ما قبله كله، يعني التاء من «جاءت» مع «بني» وترك الفعل على ما كان، ليدل على أنه قد حذف شيئاً قبل «تميم».

وقال ﴿لَا أَبْرَحُ﴾ [الآية ٦٠] أي: لا أزال. قال الشاعر [من الطويل وهو الشاهد الخامس والأربعون بعد المتين]:

وَمَا يَبْرَحُوا حَتَّى تَهَادَثَ بِسَائِرِهِمْ

بَبَطْحَاهِ ذِي قَارِ عِبَابِ اللَّطَائِمِ

(١) نقله في إعراب القرآن ٦٠٦/٢.

أى : ما زالوا .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿مَخْبِئًا﴾ [الْأَيَةُ ٨٠] فَمَعْنَاهُ: كَرِهْنَا، لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ لَا يُخْشَى^(١).

وفي قوله تعالى ﴿يُجِئُ وَيَأْتِجُ﴾ (١٤٤) جعل الألف من الأصل، وجعل «يأجوج» من «يغفل» (١٤٥) و«أجوج» من «يغفل» (١٤٦).

وہی قولہ تعالیٰ ﴿مَا سَكُنِي فِيهِ رَبِّي﴾
﴿خَبْرٌ﴾ [۹۵:۱۰] رفع ﴿خَبْرٌ﴾ لَان ﴿مَا﴾
﴿سَكُنِي﴾ اسم مستأنف.

وقوله تعالى ﴿فَمَا أَتَفْتَحُوا﴾ الآية
 ٤٧ من «إِطْعَام» «يَسْتَطِيع» أي
 «إِطْعَام» «يَسْتَطِيع» وهي لغة عد
 العرب^(٣).

وفي قوله تعالى ﴿الْقِسْبَ الْوِثْقَ كُرُورًا﴾
 ﴿لَنْ يَنْفَعُوا يَكْفُرًا﴾ (الأنعام ١٠٦) جُمِلَتْ
 «أَنْ» التي تعمل في الأفعال، فاستغنى

بهاء كما في قوله سبحانه ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ أَعْتَبُوا﴾ (النور: ١٣٥) أو ﴿مَا أَكُنْ أَنْ يَتَذَكَّرَ﴾ (النور: ٣٥) استغني ههنا بمفعول واحد، لأن معنى ﴿مَا أَكُنْ أَنْ يَتَذَكَّرَ﴾.

وقال تعالى: ﴿جَنَّتُ الزُّرُّوعِ
ثَلَاثًا﴾ فـ «الزُّرُّ» من نزول بعض
الناس على بعض^(١). أما «الزُّرُّ»
فـ «الزُّنْع» تقول: «ما بلغنا بهم زُرُّ»
«وما وَجَدْنَا عندهم زُرًّا».

وقال تعالى: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّمَا يَأْكُلُونَ مِنْ ثَمَرِهِمْ مَا كَانَ لَكُم مِّن قَبْلُ وَإِن كُنْتُمْ عَادِينَ عَلَيْهِمْ فَلَوْلَئِذَا مِن دُونِهِ آلَاءٌ بَدَلَتْ وَلَوْ رَفَضُوا مِمَّا آتَاهُم ظَهَرْنَا لَهُمْ آيَاتِكُمْ فَلا تَعْنِيهِمْ وَفَتَوَلَّىٰ مُصِرًّا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّهُمْ لَكَافِرُونَ﴾ [سورة النحل: ١٠٩-١١٢] أي بعدد ما يأكلون من ثمره مما كان لكم من قبل، وإن كنتم عادين عليهم فلولا إذا من دونه آلاء بدلت، ولو رفضوا مما آتاهم ظهرنا لهم آياتكم فلا تعنيهم، وفتولى مصيراً إلى يوم القيامة إنهم لكافرون.

(١) نقله من الصحاح الحنفية، ورواه المصنف ١٧٩/٥، وفيه أن الزجاجة أمانة.

(٢) في معاني القرآن ١٥٩/٤ والسبعة ٣٩٩ واكتشف ٧٦/٢ وتفسير ١١٥ إلى عاصم، وفي القطري ١٦/١٦ الأخرج، أما في البحر ١٦٣/٦ فإدراك الأعرش ومقبوب في رواية، وكذلك في الأبرار، وكان إنها لغة بني أسد وقد نقل ذلك في الصحاح ٥٨٣ ج٢ والبحر ١٦٣/٦ والتفسير ١١/٥٥.

(٣) نقله في المسامع المسموعة والمعرق ٩. ونقله في إعراب القرآن ٢/ ٦٢٠.

(٤) نقله في الصحاح فنزل.

وقال تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ لِقَائِهِمْ﴾؛ وذلك نحو قولهم: ﴿يَتَذَكَّرُ فِي النَّارِ زُجْلًا﴾.

وفي قوله تعالى ﴿حَرَّجْنَا بِكَ الْكَلْبَ الْأَمْرَءَ﴾ قيل ﴿نَفَقْنَا﴾ لأن

اللقاء كان علة للقتل.

وفي قوله تعالى: ﴿مَنْ مَنَعَكَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [الأب ٩٨] أي: هلم الرِّدْمَ رحمة من ربي.

لكل سؤال جواب في سورة «الكهف» (*)

يكون الجمع بينهما للتأكيد سواء أُنْزِلَ «قِيَمًا» مَقْدَمًا أو أُثِرَ في مرتبته، ونصب بفعل مضمر تقديره: ولكن جعله قِيَمًا. ولا بد من هذا الإحصاء، أو من التقييم والتأخير، وإلا صار المعنى: ولم يجعل له عرجاً مستقيماً، والعوج لا يَكُونُ مستقيماً.

فإن قيل: اتخذ الله تعالى ولداً محال، فلم قال سبحانه: ﴿ثُمَّ لَمْ يَكُنْ يَمُنْ بِهِ﴾ (الأنبياء: ١٠٩) وإنما يستقيم أن يقال فلان ماله علم بكلنا، إذا كان ذلك الشيء مما يعلمه غيره أو مما يصح أن يُنظم، كقولنا زيد ما له علم بالعرية أو بالحساب أو بالشعر، ونحو ذلك.

قلنا: معناه ما لهم به من علم، لأنه ليس مما يُعَلَّم لاستحالة، وهذا لأن

إن قيل: قوله تعالى: ﴿قِيَمًا﴾ الآية [٢] يعني مستقيماً، وقوله ﴿وَلَمْ يَكُنْ يَمُنْ بِهِ﴾ (١٠٩) من عن قوله ﴿قِيَمًا﴾ لأنه متى انتفى العوج بُيِّنَت الاستقامة، لأنَّ العوج في المعاني كالعوج في الأعيان، والمراد به هنا نفي الاختلاف والتناقض في معانيه، وأنه لا يخرج منه شيء عن الصواب والحكمة. وقيل في الآية تقديم وتأخير، تقديره: «الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قِيَمًا ولم يجعل له عرجاً».

قلنا: قال الفراء: معنى قوله تعالى ﴿قِيَمًا﴾ قائماً على الكتب السماوية كلها، مصدقاً لها، شاهداً بصحتها، ناسخاً لبعض شرائعها. فعلى هذا لا تكرار فيه. وعلى القول المشهور،

(*) انتهى هذا البحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرزي، مكتبة أبي العباس، القاهرة، غير مؤرخ.

ويركب، أي وقد يركب.

فإن قيل: لِمَ دخلت الواو في الجملة الثالثة دون الأوليتين، وفي قوله تعالى: ﴿وَتَأْتِيَهُمْ كَلْبًا مَّاءً﴾ [الأب ٢٢].

قلنا: قال بعض المفسرين: هي واو الثمانية، وقد ذكرنا مثلها في آخر سورة التوبة. وقال الزجاج: دخول هذه الواو وخروجها سواء في صفة النكرة، وجاء القرآن بهما. وقال غيره: الواو مرادة في الجملتين الأولىين، وإنما حذفت فيهما تخفيفاً، وأتى بها في الجملة الثالثة دلالة على إرادتها فيهما؛ ويرد على هذا القول: أنه لو كان كذلك لكانت مذكورة في الجملة الأولى، محذوفة في الجملة الثانية والثالثة، ليندل ذكرها أولاً على حذفها بعد ذلك كما سبق في سين الاستقبال. وقد الزمخشري وغيره: هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفةً للنكرة، كما تدخل على الصفة الواقعة حالاً من المعرفة، تقول: جاءني رجل ومعه أخره، وصردت يزيد وفي يده سيف، ومثله قوله تعالى: ﴿وَرَأَى أَفْكَارًا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا رِكَابٌ مُتَمَلِّئُونَ﴾ [الجن ١٨]، وفائدتها تأكيد اتصال الصفة بالموصوف، والدلالة على أن اتصافه

اتصاف العلم بالشيء نارة يكون للجهل بالطريق الموصل إليه، ونارة يكون لاستحالة العلم به، لأنه في نفسه محال لا يستقيم تعلق العلم به. وما نحن فيه من هذا القبيل.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿ثُمَّ يَنْتَهِى كَلْبًا مَّاءً﴾ [الأب ٢٢] وهو أعلم بذلك في الأزل؟

قلنا: معناه لتعلم ذلك علم المشاهدة، كما علمناه علم الغيب. فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿كَأَنَّكُمْ كَلْبًا مَّاءً﴾ [الأب ١٩] ولم يسفل وايدكم؟

قلنا: لأنه أراد فرداً منهم أيهم كان، ولو قال «واحدكم» لندل على بعث رئيسهم ومقدمهم، فإن العرب تقول: رأيت أحد القوم: أي فرداً منهم، ولا تقول: رأيت واحداً لقوم إلا إذا أرادت المقدم المعظم.

فإن قيل: لِمَ جيء بسين الاستفصال في الفعل الأول دون الآخرين في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ نَحْنُ الْمَعْلُومُونَ﴾ [الأب ٢٢].

قلنا: أريد دخول الفعلين الآخرين في حكم الأول بمقتضى العطف، فاقترصر على ذكر السين في الأول إيجازاً، كما يقال: زيد قد يخرج

لِكَلِمَتِهِمْ» [الآية ٢٧] وقال في موضع آخر ﴿وَلَمَّا بَدَّلْنَا آيَةَ مَنَّاتٍ مَّا أَهْلُوا﴾ [النحل/١٠١] ويلزم من تبديل الآية بالآية، تبديل الكلمات فكيف الجمع بينهما؟

قلنا: معنى الأول لا مغير للقرآن من البشر، وهو جواب لقولهم للنبي (ص): ائت بقرآن غير هذا أو بقله. الثاني: أن معناه لا خلف لمواهبه ولا مغير لحكمه، ومعنى الثاني النسخ والتبديل من الله تعالى فلا ثاني بينهما.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْقَائِمِينَ وَرَبَّنَا شَأْنُ الْكَافِرِينَ﴾ [الآية ٢٩] إباحة وإطلاق للكفر؟

قلنا: قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: فمن شاء ربكم فليؤمن ومن شاء ربكم فليكفر، يعني لا إيمان ولا كفر إلا بمشيئته. الثاني: أنه تهديد ووعد. الثالث: أن معناه لا تنفرون الله بإيمانكم ولا تضرؤنه بكفركم، فهو إظهار للفتن، لا إطلاقاً للكفر.

فإن قيل: ليس الأساور في الدنيا عيب للرجال، ولهذا لا يلبسها من يلبس الفحش والحريص من الرجال، فكيف وعدا الله سبحانه المؤمنين في

بها أمر ثابت مستقر؟ وهذه الواو هي التي أذنت بأن الدين قالوا سبعة وثامنهم كلبهم، قالوه عن ثبات علم وطعامينة نفس، ولم يرجعوا بالظن كما رجع غيرهم، والدليل عليه أن الله تعالى أتبع القولين الأولين قوله ﴿رَبَّنَا بِالْقَبِيلِ﴾ [الآية ٢٢] وأتبع القول الثالث قوله سبحانه ﴿ثُمَّ يَسْأَلُهُمْ إِنْ لَّا قِيلَ﴾ [الآية ٢٢]. وقال ابن عباس: وقعت الواو لقطع العدد: أي لم يبق بعدها عدد يلتفت إليه، وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والثبت. وقال الثعلبي: هذه واو الحكم والتحقيق، كأن الله تعالى حكى اختلافهم، فتم الكلام عند قوله سبعة، ثم حكى بأن ثامنهم كلبهم باستنائه الكلام، فحققت ثبوت العدد الأخير لأن الثامن لا يكون إلا بعد السبعة، فعلى هذا يكون قوله ﴿وَلَمَّا بَدَّلْنَا مَنَّا﴾ [الآية ٢٢] من كلام الله تعالى حقيقة أو تقديراً. وثورة على هذا، أن قوله تعالى بعد هذه الواو: ﴿فَلَمْ يَلْمِزْ أَنَّهُمْ بِهِمْزِهِمْ﴾ [الآية ٢٢] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَسْأَلُهُمْ إِنْ لَّا قِيلَ﴾ [الآية ٢٢] يدل على بقاء الإيهام وعدم زوال اللبس بهذه الواو.

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿لَّا مَبْدِلَ

الجنة، في قوله تعالى: ﴿يَتَخَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ [الأعراف: ٣١]؟

قلنا: كانت عادة ملوك الفرس والروم لبس الأساور والستيجان مخصوصين بها دون من دونهما، فلذلك وعدنا الله تعالى المؤمنين لأنهم ملوك الآخرة.

فإن قيل: لم أفرد لفظ الجنة بعد الثنية، في قوله تعالى: ﴿وَنَتَخَلَّ جَنَّاتٍ﴾ [الأعراف: ٣٥]؟

قلنا: أفردنا ليلد على الحصر، معناه: ودخل ما هو جنته، لاجنة له غيرها ولا نصيب له في الجنة التي وُعد المثلون، بل ما ملكه في الدنيا هو جنة لا غير، ولم يقصد جنة معينة كنهما، بل جنس ما كان له.

فإن قيل: لم قال الأخ المؤمن لأخيه، كما ورد في التنزيل ﴿لَيْكَأَ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا تُشْرِكُ بِرَبِّيَ لَسَا﴾ [الأعراف: ٣٥] وهذا تعريض بأن أخاه مشرك، وليس في كلام أخيه ما يقتضي الشرك، بل الكفر، وهو قوله، كما ورد في القرآن ذلك حكاية عنه ﴿وَمَا أَلْمَنُ السَّاعَةَ قَالَهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٦]؟

قلنا: إشراك أخيه الذي عرض له

به، هو اعتقاده أن زكاة جنته ونماءها بحوله وقوته، ولهذا قال له، كما ورد في التنزيل: ﴿وَلَوْلَا إِذْ مَلَكَتْ جَنَّتُكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٩] ولهذا قال هو أيضاً لما أصبح يقرب إليه على ما أنفق فيها، وهي خاوية على عروشها، كما ورد في القرآن: ﴿بَلَّتْنِي فَرَ شَرُّهُ بِرَبِّيَ لَسَا﴾ [الأنعام: ١٠] فاعترف بالشرك.

فإن قيل: ما الحكمة في إيراد «أنا» في قوله تعالى: ﴿إِنْ كَرِهَ أَنَا أَقُلَّ﴾ [الأعراف: ٣٩]؟

قلنا: «أنا» في مثل هذا الموضع تفيد حصر الخبر في المخبر عنه، ومنه قوله تعالى ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ [طه: ١٧] وقوله جل جلاله ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [طه: ١٤] ونظائره كثيرة.

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَمْ يَنْتَ يَشْرُوكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٥] وكذلك ما أشبهه مما جاء في القرآن العزيز ﴿وَالْحَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَهُمْ بِتَكْوِينِهِمْ مِنْ شَرٍّ﴾ [الأنعام: ١٠] ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا حَسِيرٍ﴾ [الأنعام: ١٠] ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا حَسِيرٍ﴾ [الأنعام: ١٠] وكيف تحقيق معناه؟

قلنا: «دون» يستعمل في كلام العرب بمعنى «غير» كقولهم لفلان: مالٌ دون هذا، ومن دون هذا: أي غير هذا. ونظيره قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ أَمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ [الموسى/ ٢٣] أي من غيره، وتستعمل أيضاً بمعنى «قبل» كقولهم: المدينة دون مكة: أي قبلها، ومن دونه خروط الفتاد. ولا أقوم من مجلسي دون أن تجيء، ولا أفارقك دون أن تعطيتني حقّي، وما أعلم أنها جاءت في القرآن العزيز بمعنى «قبل» بل بمعنى «غير» فقط؟

فلان قيل: لِمَ قال تعالى ﴿هَٰذَا الَّذِي فُتِنَ بِهِ لَوْلَا أَن يَقُولُوا هَٰذَا إِلَّا نَحْنُ بِالْعِزَّةِ﴾ [الأنعام/ ١٠٩] يعني في يوم الآخرة أو في يوم القيامة، والولاية بكسر الواو السلطان والملك، وينتج الواو التولي والتصرة، وكل ذلك لله تعالى في الدنيا والآخرة؛ يُعَزَّزُ من يشاء ويُؤْذِلُ من يشاء، وينصر من يشاء، ويخذل من يشاء، ويتولى من يشاء بحراسته وحفظه، فما الحكمة في تخصيص يوم القيامة؟

قلنا: الحكمة فيه أن الدعوى المجازية كثيرة في الدنيا ويوم القيامة تنقطع كلّها، ويسلم الملك لله تعالى عن كل منازع، وقد سبق نظيره هنا

السؤال في سورة الأنعام في قوله تعالى ﴿قَوْلَهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ ٱلْصُّورُ﴾ [الأنعام/ ١٧٣].

فلان قيل: لِمَ قال تعالى ﴿هُوَ خَيْرٌ نَّوْبًا وَخَيْرٌ عَقْبًا﴾ [أي عاقبة، وغير الله تعالى لا يُشِيبُ ليكون الله حيراً منه نواباً؟

قلنا: هنا على الفرض والتقدير، معناه: لو كان غيره يُشِيبُ لكان ثوابه أفضل، ولكانت طاعته أحمدَ عاقبةً وخيراً من طاعة غيره.

فلان قيل: لِمَ قال الله تعالى ﴿وَحَقَّرْتَهُمْ﴾ [الأنعام/ ١٧] بلفظ الماضي وما قبله مضارعان، وهو قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ تَنفَخُ ٱلنَّفَّٰثَةُ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ ٱبْيَٰضَةً﴾ [الأنعام/ ١٧] أي لا شيء عليها يسترها كما كان في الدنيا؟

قلنا: للدلالة على أن عثرهم كان قبل التسيير، وقبل البروز، ليعانوا تلك الأموال والعطائم؛ كَأَنَّ المعنى: وحشرناهم قبل ذلك.

فلان قيل: لِمَ قال تعالى ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْحَكِيمِ لَا يَأْمُرُ صَبِيْرًا وَلَا كَبِيْرًا إِلَّا أَتَمَّنَّاهُ﴾ [الأنعام/ ١٤٩] مع أنه أخبر أن الصغائر تكفر باجتناب الكبار، بقوله

تعالى ﴿إِنْ تَجِدُوا صَاحِبَ مَا تُتَوَدَّ
عِنْدَهُ لُكُوفَ عَنكُمْ سَيَتَايَكُم﴾ (النساء/ ٢٤).

قلنا: الآية الأولى في حق الكافرين،
بديل قوله تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾
[الآية ١٤] والمراد بهم هنا الكافرون،
كذا قال مجاهد، وقال غيره: كل
مجرم في القرآن. فالمراد به الكافر؛
والآية الثانية، المراد بها المؤمنون؛
لأن اجتناب الكبائر لا يكون متحققاً مع
وجود الكفر. الثاني: لو ثبت أن المراد
بالمجرم مطلق المذنب، لم يلزم
التناقض، لجواز أن تكتب الصفات
ليشاهد العبد يوم القيامة، ثم تكفر
عنه، فيعلم قدر نعمة العفو، فإن أكثر
ذنوب العبد ينسأها، خصوصاً
الصفات.

لإن قيل: قوله تعالى ﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْبَنَاتِ﴾
[الآية ٥٠] يدل على أنه
من الجن، وقوله تعالى في موضع آخر
﴿وَلَقَدْ قَالَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدْ لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾
[الآية ٥٠] يدل على أنه من
الملائكة، فكيف الجمع بينهما؟

قلنا: فيه قولان: أحدهما أنه من
الجن حقيقة، عملاً بظاهر هذه الآية،
ولأن له ذرية قال تعالى ﴿فَأَنصَبُوا ذُرِّيَّتَهُ

وَذَرَّاهُ لِمَنْ شَاءَ مِنْ دُونِ﴾ (الأنبياء/ ٥٠)
والملائكة لا ذرية لهم، ولأنه أكثر
الكفرة وأنسق العسفة، والملائكة
معصومون عن الكبائر لأنهم رسل الله،
وعن المعاصي مطلقاً، لأنهم عقول
مجردة بغير شهوة، ولا معصية إلا عن
شهوة؛ ويؤيده قوله تعالى: ﴿لَا يَصُونُ
أَلَّهُ مَا أَرْهَمَ وَيَسْأَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾
[النجم]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ لَا
يَسْتَجِيبُ لَهُ عَنْ هَيْدِهِ وَلَا يُسْتَجِيبُ لَهُ﴾
[الأنبياء]. وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ
يَدْعُ﴾ يعني الملائكة؛ فكيف يكون
إليس منهم ويؤمر بالسجود فيمنع،
فعلى هذا يكون استثناءه من الملائكة
استثناءه من غير الجنس؛ أو يكون
استثناءه من جنس المأمورين بالسجود،
لا من جنس الملائكة، ويكون التقدير:
وإذ قلنا للملائكة وإليس اسجدوا لآدم
فسجدوا إلا إليس؛ كما تقول: أمرت
إخوتي وعبيدي بكذا، فأطاعوني إلا
عبيدي، والعبد ليس من الإخوة ولا
داخلهم فيهم إلا من حيث شمله الأمر
بالفعل معهم، فهذا كذلك. القول
الثاني: أنه كان من الملائكة قبل أن

يعصي الله تعالى، فلما عصاه تَسَخَّرَ شيطَاناً. روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، فيكون معنى قوله تعالى ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الآية ٥٠] لمخالفته، فتكون «كان» بمعنى صار. وقيل معناه: أنه كان من الجن في سابق علم الله تعالى؟ وهذا القولان يدلان على أنه كان من الملائكة قبل المعصية. وروي عنه أيضاً أنه كان من حُزَّانِ الجنة، وهم جماعة من الملائكة يُسَمُّونَ الجن؟ فعلى هذا يكون قوله تعالى ﴿يَنْ أَلْجَيْنِ﴾ أي من الملائكة الذين هم حُزَّانِ الجنة ﴿فَسَقَّ عَنْهُ أَنَّى رَوَاهُ﴾ [الآية ٥٠] بمخالفته فيكون استثناء من الجنس. وقال الزمخشري في سورة البقرة في قوله تعالى ﴿فَجَعَلْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [البقرة/٣٤] وهو استثناء متصل، لأنه كان جنياً واحداً بين أظهر الألوף من الملائكة مغموراً بهم، فَعَلَّبُوا عليه في قوله ﴿فَجَعَلْنَا﴾. قلت: وفي هذا التعليل نظر، ثم قال بعده: ويجوز أن يجعل مقطعاً.

فإن قيل: إن قال تعالى: ﴿أَفَتَدْعُونَهُمْ وَدُرَيْسَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ [الآية ٥٠] والأولياء: الأصدقاء والأحباب وهم

ضد الأعداء، ووَيْدَهُ قوله تعالى ﴿وَعَمَّ لَكُمْ عَذَابٌ﴾ [الآية ٥٠] وليس من الناس أحد يحب إبليس وذريته ويصدقهم؟

قلنا: المراد بالموالاة هنا، إجابة الناس لهم فيما يأمرونهم به من المعاصي، ويوسوسون في صدورهم وطاعتهم لإِثامهم؟ فالموالاة مجاز عن هذا، لأنه من لوازمها.

فإن قيل: قال تعالى هنا: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [الآية ٥٢]: أي فلم يُجِبِ الأصنامَ المشركين، فنفى عن الأصنام النطق، وقال تعالى في سورة النحل: ﴿وَلَمَّا رَاكَ الْأَيْدِي أَشْرَكُوا شُرَكَائِعَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ قَالُوا لَهُمْ الْفُؤَادُ إِنَّكُمْ كَذَّابُونَ﴾ [النحل] يعني فكذبهم الأصنام فيما قالوا، فثبت لهم النطق فكيف الجمع بينهما؟

قلنا: المراد بقوله تعالى ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ [الآية ٥٢] أي نادوهم للشفاعة لكم أو لدفع العذاب عنكم، فَدَعَوْهُمْ فلم يجيبوهم لذلك، فنفى عنهم النطق بالإجابة إلى الشفاعة ووقع العذاب عنهم. وفي سورة

النحل، أثبت لهم النطق بتكذيب المشركين في دعوى عبادتهم، فلا تناقض بين المنفي والمثبت.

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿شُرَكَائِي﴾ وقال في سورة النحل ﴿شُرَكَاءُكُمْ؟

قلنا: قوله تعالى ﴿شُرَكَائِي﴾ معناه: في زعمكم واعتقادكم، ولهذا قال ﴿شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ وأخرجه مخرج التهم بهم، كما قال المشركون للنبي (ص) وقائلاً لما ورد في التنزيل ﴿يَأْتِيهَا الْبُيُوتُ تُزَلُّ عَلَى الْأُكْحَرِ إِنَّهَا لَتَجُورُ﴾ (الجن)، وقوله تعالى ﴿شُرَكَاءُكُمْ﴾ يعني آلهتهم التي جعلوها شركاء، فإضافتها إلى الله تعالى لجعلهم لها شركاء، والإضافة تصح بأدنى ملازمة لفظية أو معنوية، فصحت الإضافتان.

فإن قيل: لم قال تعالى ﴿يَا حُوتَهُمَا﴾ الآية ٦١ والناسي إنما كان يوشع وحده، بدليل قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ يَدَّبَّ الْعُقَدُ﴾ الآية ٦٣ أي قصصة السموت وخبيرة ﴿وَمَا لَنُفِيَهُ إِلَّا

الْمَكِينُ لَنَ لَأَكْبَرُ﴾ الآية ٦٣؟

قلنا: أضيف النسيان إليهما مجازاً، والمراد أحدهما. قال الفراء: نظيره قوله تعالى ﴿يَمِجُّ وَتَمِجُّ الْوُجُوهُ وَالْمَرَاثُ﴾ (الرحمن) وإنما يخرج من الملح لا من العلب، وقيل نسي موسى عليه السلام تفقد الحوت ونسي يوشع أن يخبره خبره، وذلك أنه كان حوتاً مملوحاً في مكبل^(١) قد تزوداه، فلما أصابه من ماء عين الحياة رشاش خبي وأسلم، وكان قد ذهب لقضاء حاجة، فعزم يوشع أن يخبره بما رأى من أمر الحوت، فلما جاء موسى نسي أن يخبره، ونسي موسى تفقد الحوت، والسؤال عنه.

فإن قيل: هذا التفسير يدل على أن النسيان من يوشع، أو منهما، كان بعد حياة الحوت وذهابه في البحر، وظاهر الآية يدل على أن النسيان كان سابقاً على ذهابه في البحر، متصلاً ببلوغ مجمع البحرين، لقوله تعالى ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا لَبَيَّا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾.

قلنا: في الآية تقديم وتأخير تقديره:

(١) المكبل الله.

فلما بلغا مجمع بينهما اتخذ الحوت سبيله في البحر سرىاً، ففسيا حوتهما.

إن قيل كيف نسي يوشع مثل هذه الأعجوبة العظيمة في مدة سيرة بل في لحظة، واستمر به النسيان يومه ذلك وليته إلى وقت الغداء من اليوم الثاني، ومثل ذلك لا ينسى مع تطاول الزمان، كيف كان ذلك، وقد كان الله تعالى جعل فقدان الحوت علامة لهما على وجدان المخضر (ع)، على ما نقل أن موسى (ع) سأل الله تعالى علامة على موضع وجدانه، فأوحى إليه أن يخذ معك حوتاً في يكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم؟

قلنا: سبب نسيانه أنه كان قد اعتاد مشاهدة المعجزات من موسى (ع) واستأنس بها، فكان إلفه لمثلها من خوارق العادات، سببا لقله اهتمامه بتلك الأعجوبة، وعدم تكراره بها.

إن قيل: لم قال تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا زَكَرَ إِلَى النَّبِيِّ حَرْفَهُ﴾ [الأنبياء ٧١] بغير فاء؟ و﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَ غَلَمًا فَقَتَلَهُ﴾ [الأنبياء ٧٤] بالفاء؟

قلنا: جعل خرقها جزاء للشرط فلم يحتج إلى الفاء كقولك إذا ركب زيد

الفرس عقره، وجعل قتل الغلام من جملة الشرط فعطفه عليه بالفاء.

إن قيل: لم خولف بين القصتين؟ قلنا: لأن خرق السفينة لم يتعقب الركوب، وقتل الغلام تعقب لقاء.

إن قيل: لم قال الله تعالى في قصة الغلام ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [٢٣] وفي قصة السفينة ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [٢٣]؟

قلنا: قيل «إمرأ» معناه «نكرأ»، فعلى هذا لا فرق في المعنى، لأن الإمر والنكر بمعنى واحد. وقيل الإمر المجلب أو الداهية؛ وخرق السفينة كان أعظم من قتل نفس واحدة، لأن في الأول هلاك كثيرين. وقيل النكر أعظم من الإمر فمعناه: جئت شيئا أنكر من الأول، لأن ذلك كان يمكن تداركه بالسد، وهذا لا يمكن تداركه.

إن قيل: لم قال تعالى في قصة السفينة ﴿إِذْ أَقْبَلَ إِلَيْكَ﴾ [الأنبياء ٧٢] وفي قصة الغلام ﴿إِذْ أَقْبَلَ لَكَ﴾ [الأنبياء ٧٥]؟

قلنا: لقصد زيادة المواجهة بالعتاب على رفض الوصية مرة ثانية، والتنبيه على تكرار ترك الصبر والثبات.

إن قيل: ما الحكمة في إعادة ذكر

الأهل، في قوله تعالى ﴿اَنْتَلَمَّآ﴾
أَمَلَهَا﴾ (الآية ٧٧) بعد أن سبق ذكر
الأهل مرة؟

قلنا: الحكمة فيه، فائدته في إعادة
التأكيد.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿يُرِيدُ أَنْ
يَنْقَضَ﴾ (الآية ٧٧) نسب الإرادة إلى
الجماد وهي من صفات من يعقل؟

قلنا: هذا مجاز بطريق المشاهدة،
لأن الجدار بعد مشارفته ومدانته
للافضاض والسقوط شابة من يعقل،
وفي تَهَيُّئِهِ للسقوط فظهر منه هيئة
السقوط كما يظهر ممن يعقل وليرده
فنسبت إليه الإرادة مجازاً بطريق
المشابهة في الصورة، وقد أَضَافَتْ
الحرب أفعال العقلاء إلى ما لا يعقل
مجازاً، قال الشاعر:

يُرِيدُ الرُّمُحُ صُدُورِي بِرَأْيِهِ
وَيَسْتَبْدِلُ عَنْ يَمَانِي قَبِيلِ
وقال حسان:

إِنْ دَفَعْنَا إِلَيْكَ شَيْئِي بِجَنَلِ
لَرَمَانٍ بِهِمْ بِالْإِغْصَانِ
ومن أمثالهم «تمرد مارء وعز
الألبان» ومعه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا

سَكَتَ عَنْ ثَوَمِي النَّصَبُ﴾ (الأمراء/
١٥٤) وقوله جَلَّ شَأْنُهُ ﴿وَلَمَّا عَزَمَ
الْأَمْرُ﴾ (محمد/ ٢١) وقوله جَلَّ شَأْنُهُ
﴿فَالَمَّا لَبَّيْنَا عَلَىٰ بَيْنَينَا﴾ (نصبت) ونظائره
كثيرة.

فإن قيل: لأي سبب لم يفارقه
الخضر (ع) عند الاعتراض الأول
والثاني، وفارقه عند الثالث؟

قلنا لوجهين: أحدهما أن موسى (ع)
شرط على الخضر (ع) ترك مصاحبته
على تقدير وجود الاعتراض الثالث،
وَقَدْ وجد، فكان راضياً به. الثاني، أن
اعتراض موسى (ع) في المرة الأولى
والثانية كان توزعاً وصلابة في الدين،
واعترضه في المرة الثالثة لم يكن
كذلك.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿فَلَزَيْتُ أَنْ
أُصِيبَا﴾ (الآية ٧٩) علته خوف الغصب،
فكان حقّه أن يتأخّر عن علته، فلم يُؤْخَرْ
عليها؟

قلنا: هو متأخّر عنه، لأن علة تعيها
أو علة إرادته تعيها حوف الغصب
وخوف الغصب سابق، لأنه الحامل
للخضر (ع) على ما فعله.

فإن قيل: الشمس في السماء

الرابعة، وهي بقدر كرة الأرض مائة وستين مرة، وقيل مائة وخمسين، وقيل مائة وعشرين، فكيف تسعها عين في الأرض، حتى أخبر الله تعالى عن ذي القرنين، أنه وجدها تغرب في عين حمئة؟

قلنا: المراد بقوله تعالى وجدها: أي في زعمه وظنه؛ كما يرى راكب البحر إذا لُجَّع فيه، وغابت عنه الأطراف والسواحل، أن الشمس تطلع من البحر، وتغرب فيه؛ فذو القرنين انتهى إلى آخر البنيان في جهة المغرب فوجد عيناً حمئة واسعة، عظيمة فظن أن الشمس تغرب فيها.

فإن قيل: ذو القرنين كان نبياً أو نبيّاً حكيماً على اختلاف القولين، فكيف خفي عليه هذا، حتى وقع في الظن المستحيل الذي لا يقبله العقل؟

قلنا: الأنبياء والأولياء والحكماء ليسوا بمعصومين عن ظن الغلط أو الخطأ، وإن كانوا معصومين من الكبر. ألا ترى إلى ظن موسى (ع) فيما أنكره على الحضر (ع) في القضايا الثلاث؛ وظنه أنه يرى الله تعالى في الدنيا وهو من كبار الأبياء، وكذلك

يونس (ع) على ما أخبر الله تعالى عنه، بقوله: ﴿وَذَا النُّورِ إِذْ ذَهَبَ مُغْتَوِباً غُصّاً أَنْ لَوْ لَنَفْذِرُ عَلَيْهِ﴾ (الأنبياء/ ٨٧) وكان الواقع بخلاف ظنه. الثاني أن الله تعالى قادر على تصغير جرم الشمس، وتوسيع العين الحمئة وكرة الأرض، بحيث تسع عين الماء عين الشمس؛ فلم لا يجوز أن يكون قد وقع ذلك ولم نعلم به لقصور علمنا عن الإحاطة بذلك؟

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَذَّكَّرْهُمْ إِنْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنْ يَرْجِعُوا﴾ يدل على أنه كان نبياً، لأن الله تعالى خاطبه.

قلنا: من قال إنه ليس نبياً يقول هذا الخطاب له كان بواسطة النبي الموجود في زمانه، كما في قوله تعالى ﴿يَنْبِئُكَ بِشَرِّ مَا أَشْبَهَ﴾.

فإن قيل: لم قال الله تعالى في حق الكفار: ﴿وَمَا تَنْبِئُكَ بِشَرِّ مَا أَشْبَهَ﴾ أي فلا ننصب لهم ميزاناً، لأن الميزان إنما ينصب لشؤون به الحسنت بمقابلة السيئات، والكافر لا حصة له، ولا طاعة، لقوله تعالى:

﴿وَقَبِّلْهُ إِنَّ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ

مَكَّةَ نَسُورًا ﴿١٢٠﴾ [المعرقا] وقوله في
موضع آخر ﴿وَأَمَّا مَنْ حَقَّ
مَوْزِنُهُ ﴿١٢١﴾ فَأَتَتْهُ حَسَابَةٌ ﴿١٢٢﴾﴾
[القارة] أي فمسكته النار، فأثبت له
ميزاناً.

قلنا: معنى قوله تعالى ﴿وَلَا تُؤْتِيهِمْ لَهْمَ
يَوْمَ الْيُسُوفِ ذِكْرًا﴾ ﴿١٢٣﴾ أي لا يكون لهم
عندنا قدر ولا خطر لحسنتهم

وحقارتهم؟ ولو كان معناه ما ذكره، ثم
يكون المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ
حَقَّ مَوْزِنُهُ ﴿١٢١﴾ فَأَتَتْهُ
حَسَابَةٌ ﴿١٢٢﴾﴾ من غلبت سيئاته على
حسناته من المؤمنين، فإنه يستكين في
النار، ولكن لا يخلد فيها، بل بقدر ما
يمتص عنه ذنوبه؟ فلا تنافي بينهما.

المعاني المجازية في سورة «الكهف» (*)

كَيْبًا ①. ووصف الكلمة ههنا بالكبر استعماله. والمراد أن معناها فظيع، وفحواها عظيم. وتفسير الكلام: تَبَرَّبَ الكلمة كلمة.

وللنصب ههنا وجهان: أحدهما أن يكون على تفسير المضمهر. مثل قولهم: بَنِمَ زَجْلًا زَيْدًا، وبُنِسَ صاحباً حَمَرًا. والوجه الآخر أن يكون على التمييز في الفعل المنقول، نحو: «وَسَاكَنَتْ مُرْقَقًا ②» [الآية ٦٩]، وتصبَّ غَرْقًا.

وقوله سبحانه: «وَالَّذِينَ لَيَقُولُونَ مَا عَلَيْكَ صِيدًا جُرَّاءً ③». وهذه استعارة. لأن المراد بالجُرَّاء ههنا الأرض التي لا نبات فيها، وذلك مأخوذ من قولهم:

قوله سبحانه: «لَمَّا يَرَى الْآرَءَ أَرَلًا عَلَى صَوْدَى الْأَكْثَبِ وَرَى يَحْمِلُ لَمْ يَمَآ ④» [الآية ١٧]. وهذه استعارة. لأن حقيقة الموج، أن يكون فيما يصح عليه أن ينصب أو يحمل ويضطرب ويستقيم. وهذه من صفات الأجسام، لا من صفات الكلام.

فنقول: إنما وصف القرآن - والله أعلم - بأنه قَبِمَ لا جَوْج فيه، دهاياً إلى نفي الاختلاف عن معانيه، والتناقض في أوضاعه ومبانيه. وأنه غير ناكِبٍ عن المنهاج، ولا مستمر على الاعوجاج.

وقوله سبحانه: «كَثُرَتْ حَكَلَمَةُ صَرْحٍ بَيْنَ أَقْوَامِهِمْ لِي يَتَوَلَّوْا إِلَّا

(*) انقضي هذا المبحث من كتاب «تجميع البيان في سجات القرآن للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرجح

مَاقَةٌ جُرُوز، إِذَا كَانَتْ كَثِيرَةً الْأَكْلَ، لَا يَكَادُ لَحْيَاهَا يَسْكُنَانِ مِنْ قَضَمِ الْأَعْلَافِ، وَنَشَطٌ^(١) الْأَعْشَابِ. وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: سَيْفُ جُرَازٍ، إِذَا كَانَ يُبْرِئِ الْمَفَاصِلَ، وَيَقْطَعُ الضَّرَائِبَ.

وَإِنَّمَا سَمَّيْتَ تِلْكَ الْأَرْضَ جُرُزًا، إِذْ كَانَتْ كَأَنَّهَا تَأْكُلُ نَبْتَهَا، فَلَا تَدَعُ مِنْهُ نَابِغَةً، وَلَا تُتْرَكُ طَالِعَةً. وَنَظِيرُ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: أَرْضٌ جَذَاءٌ: لَا مَاءَ فِيهَا. تَشْبِيهُاً بِالنَّاقَةِ الَّتِي لَا لَبَنَ فِيهَا، وَهِيَ الْجَذَاءُ^(٢).

وَقَوْلُهُ سَبَّحَانَهُ: ﴿فَصَرَرْنَا عَلَاجَ مَاذَانِهِمْ فِي الْكَتُوبِ سَبْعَ عَشَرَ﴾. وَهَذِهِ اسْتِعَارَةٌ. لِأَنَّ الْمُرَادَ بِهَا مَنَعَ آذَانِهِمْ مِنْ اسْتِمَاعِ الْأَصْوَاتِ، وَهَمْسِ الْحَرَكَاتِ. قَالَ بَعْضُهُمْ: وَذَلِكَ كَالضَّرْبِ عَلَى الْكِتَابِ لِتَشْكَلَ حُرُوفُهُ، فَتَمْتَنِعَ عَلَى الْفَائِزِ قِرَاءَتُهُ.

وَإِنَّمَا دَلَّ تَعَالَى عَلَى عَدَمِ الْإِحْسَاسِ بِالضَّرْبِ عَلَى الْأَذَانِ، دُونَ الضَّرْبِ عَلَى الْأَبْصَارِ، لِأَنَّ ذَلِكَ أَبْلَغُ فِي الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ، مِنْ حَيْثُ كَانَتْ الْأَبْصَارُ قَدْ يُضْرَبُ عَلَيْهَا مِنْ غَيْرِ

عَمَى، وَلَا يَبْطُلُ إِدْرَاكُ بَقِيَّةِ الْحَوَاسِ جَمْلَةً، وَذَلِكَ عِنْدَ تَغْمِيضِ الْإِنْسَانِ عَيْنَيْهِ. وَلَيْسَ كَذَلِكَ مَعَ الْاسْتِمَاعِ مِنْ غَيْرِ صَمَمٍ، لِأَنَّهُ إِذَا ضُرِبَ عَلَيْهَا مِنْ غَيْرِ صَمَمٍ، بِالنَّوْمِ الَّذِي هُوَ السُّهْوُ عَلَى صِفَةٍ، دَلَّ ذَلِكَ عَلَى عَدَمِ الْإِحْسَاسِ مِنْ كُلِّ جَارِحَةٍ يَصْحَحُ بِهَا الْإِدْرَاكُ. وَلِأَنَّ الْأَذْنَ، لَمَّا كَانَتْ طَرِيقًا إِلَى الْأَنْبَاءِ ثُمَّ ضُرِبَ عَلَيْهَا، لَمْ يَكُنْ سَبِيلَ إِلَى الْإِنْتِبَاهِ، فَيَبْطُلُ اسْتِمَاعُهُمْ. وَفِي هَذَا الْقَوْلِ بَعْضُ التَّخْلِيطِ.

وَالَّذِي أَذْهَبَ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ، هُوَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَصَرَرْنَا عَلَاجَ مَاذَانِهِمْ﴾، وَآلَهُ أَعْلَسَ، أَيْ أَخْلَسْنَا أَسْمَاعَهُمْ. وَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِ الْفَائِلِ: قَدْ ضَرَبَ فَلَانٌ عَلَى مَالِي. أَيْ أَخَذَهُ وَخَالَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، فَأَمَّا تَشْبِيهُ ذَلِكَ بِالضَّرْبِ عَلَى الْكِتَابِ حَتَّى تُشْكَلَ حُرُوفُهُ عَلَى الْمُتَأَنِّلِ، فَفِيهِ بُهْتٌ وَتَعَمُّقٌ.

وَقَدْ يَحُوزُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِذَلِكَ: وَضَعْنَاهُمْ عَلَى آذَانِهِمْ، مِنْ الضَّرْبِ الْحَقِيقِيِّ، تَشْبِيهُاً بِمَنْ ضُرِبَ

(١) سَخَتْ الدَّابَّةُ الْمَشْبُ إِذَا أَكَلَتْ بِسَرْعَةٍ وَخَفَّةٍ. وَكَانَتْ تَطُتُ النَّبَاةَ: أَيْ سَمَتَتْ.

(٢) الدَّابَّةُ الْجَذَاءُ: هِيَ الصَّغِيرَةُ الْبَنِيَّةُ، أَوْ الْمُنْتَظَرَةُ الْأَذْنَ، أَوْ الَّتِي دَعَبَ لَهَا أَنْتَقَرُ الْغُرُوزُ أَبَاسِي مَاءَهُ الْجَذَاءُ.

على سماخه^(١)، فهو موقود^(٢) مأموم^(٣)، ومشدود^(٤) مغمور.

وقوله سبحانه: ﴿وَنَبِّئْنَا عَنْ قُلُوبِهِمْ إِنْ فَكَّرُوا عَمَّا لَنَا رَبٌّ أَتَسْتَدِينُ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنبياء: ١٤]، وهذه استعارة: لأن الربط هو الشد. يقال: وبطت الأسير. إذا شدته بالعجل والقدر^(٥). والمراد بذلك: شدنا على قلوبهم كما تُشدُّ الأروية بالأزكية^(٦)، فتسقم على مكنونها، ويُؤمّن النيزد على ما استودع فيها. أي فشدنا على قلوبهم لئلا تتحلَّ معاهد صبرها وتهفو عزائم جليها. ومن ذلك قول القائل لصاحبه: رَبطَ الله على قلبك بالصبر.

وقوله سبحانه: ﴿عَاذُوا إِلَى الْكَهْبِ بِشَرِّ لَكُمْ وَبَشَرٍ مِنْ رَحْمَتِي. وَنَبِّئْنَا عَنْ قُلُوبِهِمْ إِنْ فَكَّرُوا عَمَّا لَنَا رَبٌّ أَتَسْتَدِينُ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنبياء: ١٤]، وفي هذه الآية استعارتان: إحداهما قوله تعالى: ﴿بَشَرٍ مِنْ رَحْمَتِي﴾ والرحمة ههنا بمعنى النعمة. ولم يكن هناك

مطوي فينشر، ولا مكنون فيظهر. وإنما المراد بذلك: يسبح الله عليكم نعمته، على وجه الظهور والشبوح، دون الإخفاء والإسرار. فيكون ذلك كنشر الثوب المطوي وإظهار الشيء الخفي، في شيوخ الأمر، واستشار الذكر. والاستعارة الأخرى قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْنَا عَنْ قُلُوبِهِمْ إِنْ فَكَّرُوا عَمَّا لَنَا رَبٌّ أَتَسْتَدِينُ وَالْأَرْضِ﴾. وأصل المِرْق ما ارتفق به. وهو مأخوذ من المِرْقَة، وهي التي يرتفق عليها، أي يعتمد عليها بالمِرْق.

ويقال يِرْفَق، ومِرْقَق بمعنى واحد. وقد قرئ بهما جميعاً بمعنى واحد. فكان الشياق: يهين لكم من أمركم ما تعينون عليه وتستندون إليه، ويكون لظهوركم عماداً، ولأعضادكم سناداً.

وقوله سبحانه: ﴿وَنَبِّئْنَا عَنْ قُلُوبِهِمْ إِنْ فَكَّرُوا عَمَّا لَنَا رَبٌّ أَتَسْتَدِينُ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنبياء: ١٤]، وفي هذه الآية

(١) سماخ والصماخ واحد وهو خرق الأذن الباطن الثاني إلى تهريف الرأس.

(٢) الموقود: المصروب ضرباً شديداً حتى أشرف على الموت.

(٣) المأموم: فهو مأموم.

(٤) المشدود: المشدود الرأس.

(٥) القدر: الشئ من الجلد.

(٦) الأزكية: جمع وكاء، وهو رباط القرية أو ما تُشدُّ به.

استعارتان: أولاها قوله تعالى في ذكر الشمس: ﴿تَرْوَدُ عَنْ كَهَنِهِمْ ذَكَتَ آلْيَمِينِ﴾ لأن التزاور أصله الخيل، وهو مأخوذ من الرور، وهو الصدر. فكانه سبحانه قال: إن الشمس تعيل من هذا الموضع، كما يعيل المتزاور عن الشيء بصدرة وجهه.

والاستعارة الأخرى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَرَبْتَ عُقْرُهُمْ ثَبَتَ أَلْسِمَالِي﴾. وفي ذلك قولان: أحدهما أن يكون المراد أنها تقرضهم في ذات الشمال، أي أنها تجوزهم عادلة بمطرح شعاعها عنهم. من قولهم: قرضت الشيء بالمقراض إذا قطعت به. والمقراض متجاوز لأجزائه أولاً حتى ينتهي إلى آخره. والقول الثاني: أن يكون المراد أنها تعطيههم القليل من شعاعها عند مرها بهم، ثم تسترجعه عند انصرافها عنهم، تشبيهاً بقرض المال الذي يعطيه المعطي ليستردّه، ويقدمه ليرتجعه. ومعنى قرض المال أيضاً مأخوذ من القطع، لأن المقرض يعطي للمقرض شقة من ماله، وقطعة من حاله.

وقوله سبحانه: ﴿وَصَكَدَكَ أَغْرَانَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ الآية [٢١]. وهذه استعارة. والمراد - والله

أعلم - وكذلك أطلعنا عليهم. إلا أن في لفظ الإعثار فائدة، وهي مصادفة الشيء من غير طلب له، ولا إحساس به، وهو «أفعلناه» من الإعثار.

وأصله أن الساعي في طريقه إذا صدق قذمه، أو نكب إصبعه شيء، ففي الأغلب أنه يقف عليه متأملاً له، وناظراً إليه. فكانه استعاد علم ذلك من غير أن تتقدم معرفته به. ومن ذلك قول الفائل لغيره: لأعثرن عليك بخطيتك فأعاقبك. أي لأفعلن على ذلك منك.

وعلى هذا قوله سبحانه: ﴿يُنْزِلُ حُجْرَ حَقٍّ أُنْهَسَ اتَّخَلَّ أَفْئَا﴾ [الساند/١٠٧]. أي أطلع على ذلك منهما، واستفاد العلم به من باطن أمرهما.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ حَسْبُ سَادَتِهِمْ كُلُّهُمْ رِجَالٌ وَلَقَدْ هَمَمْنَا﴾ الآية [٢٢]. وهذه استعارة لأن الترجم ههنا هو القذف بالظن، والقول بغير علم. ومن عادة العرب أن تسمي الفائل بالظن راجماً وقاذفاً، وتسمي الساب الشاتم، راجماً راجماً.

ويقولون: هذا الأمر غيب مَرَّجَم. أي يرمي الناس بظنونهم، ويفقدونه بحسابهم.

ومُترجم إنما جاء لتكثير العمل، كأنه يرمي من ههنا، ومن ههنا. وإنما سمي القنّان راجماً، لأنه يوجه القنّ إلى غير جهة مطلوبة، بل يظنّ هذا، ويظنّ هذا، كالرّاجم الذي لا يعلم مواقع أحجاره إذا رمى بها في الجهات. فتارة تقع يميناً، وتارة تقع شمالاً.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُطِيعَنَّ أَهْلَ قُلُوبِهِمْ عَنْ إِحْسَانِهِمْ وَكَانَ أَمْرُهُمْ﴾ وهذه استعارة على أحد التأويلات في هذه الآية. وهو أن يكون المراد بذلك: أننا تركنا قلبه غفلاً من السمات التي تنقسم بها قلوب المؤمنين، فتدل على زكاه أحوالهم، وصلاح أحوالهم. كقوله سبحانه: ﴿أَتُوبُكَ حَتَّىٰ إِذَا تَوَلَّيْتُمْ أَلْبَسَكُمْ لِتُتَبَّرَ مِنْكُمْ﴾ [المجادلة/ ٢٢] وذلك تشبيه بالبعير إذا أغفل فترك بلا سيطرة يُعرف بها، على عادة العرب في إقامة السمات مقام العلامات المميزة

بين أموالهم، في الموارد والمراعي، وتعريف الغوائل.

وفي هذه الآية أقوال أخرى، والقول الذي قدمناه أدخلها في باب الاستعارة. منها أن معنى ﴿أَتُوبُكَ﴾ أي نسيئناه إلى الغفلة كقول القائل:

أَكْثَرْتُ فَلَانًا، إِذَا نَسَبْتُ إِلَى الْكَفْرِ، وَأَبْخَلْتُ إِذَا نَسَبْتُ إِلَى الْبَخْلِ.

ومنها أن يكون المراد: سقيئناه غافلاً، بتعريضه للغفلة، فكان المعنى: حَكَمْنَا عَلَيْهِ بِأَنَّهُ غَافِلٌ. كما يقول القائل: قَدْ حَكَمْتُ عَلَى فُلَانٍ بِأَنَّهُ جَاهِلٌ. أي لما ظهر الجهل منه، وَجَبَ هذا القول فيه.

ومنها أن يكون ذلك من باب المصادفة. فيكون المعنى: صادفنا قلبه غافلاً. كقول القائل أَخَذْتُ فَلَانًا، أَي وَجَدْتُهُ مَحْمُومًا. وذلك يؤول إلى معنى العلم. فكانت تعالي قال: علمناه غافلاً. وعلى هذا قول حمرو بن مغيرة يَكْرِبُ^(١)

(١) حمرو بن مغيرة يَكْرِبُ، كان فارساً من فرسان اليمن، وصاحب غزوات مشهورة. وقد عني السبي عليه السلام سنة ٩ هـ فأسلم وولعه، ولما توفي السبي ارتد عن الإسلام، ثم رجع إليه لمسي إسلامه، وشهد واقعة الجندية وسائر الفتح. ومن شعره قصيدته التي يقول فيها:

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئاً فَدَعِهِ وَجَاهِدْهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ
وتوفي سنة ٢١ هـ على مقربة من مدينة الرّي

لبنى سليم: (الله ذرّكم يا بني سليم والله لقد قاتلناكم فما أجبتناكم، وماجبتناكم فما أفحمتناكم، وسألناكم فما أبخلناكم) أي لم تصادفكم على هذه الصفات، من الجبن عند النزال، والبخل عند السؤال، والعمى عند المقال^(١).

وعلى ذلك قول نافع^(٢) بن خليفة الغنوي:

سَأَلْنَا لَأَحْمَدَ بْنَ كُلٍّ مُرَرًا
جَوَابًا وَأَبْخَلْنَا بِنَّ كُلٍّ بِجِيلٍ
أي وجدنا هذا محموداً، وبوجدنا هذا بخيلاً ممنوماً.

وفيما علفت من قاضي القضاة أبي الحسين عبد الجبار^(٣) بن أحمد - أدام الله توفيقه - عند قراءتي عليه كتابه الموسوم «بتقريب الأصول» في أخريات من الكلام في التعديل

والتحوير، أنه لو لم يكن الأمر على ما قلناه في إغفال القلب، من أن المراد بذلك مصادفته غافلاً، وكان على ما قاله الخصوم، من أنه تعالى صدف به عن أمره، وصرفه عن ذكره، لوجب أن يقول سبحانه: «فَأَتَيْتُ حَوَاهٍ». لقول القائل: أعطيه فأخذ، وبسطه قابسط، وأكرهته فأذل. أي كانت هذه الأفعال منه عسية عن أفعالي به.

لأن هذا وجه الكلام في الأغلب الأصرف. فلما جاء بالواو صار كأنه قال: ولا تلعب من غفل قلبه عن ذكرنا، وأتبع حواه. لأنه إذا وجد غافلاً فهو الذي غفل، والفعل حينئذ له، ومنسوب إليه.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَضَلْنَا لَطَالِيئَ نَاكَ لَمَّا كُنَّا بَيْنَ سُرُوقِهِمَا وَلَئِنْ يَسْتَفِثُوا يَفْتَاوُا يَمْوُ كَالْتَهَلِ يَتَوَى الْوُجُوهُ يَلَسْ

(١) كان مقتضى الترتيب هنا أن يقول من الجبن عند النزال، والعمى عند المقال، والبخل عند السؤال، ليصح التسميم.

(٢) راجع إلى خليفة المصري شاعر روى القائل قطعة من شعره في «نبيل الأمالي» ص ١١٦، كما ذكر الجاحظ في «البيان والبيان» أيضاً من شعره ج ١ ص ١٧٦. وقد تهبث - بعد جهد العلامة عبد المرير القيسي - في معرفة شيء منه فلم أوفق. ويقول عنه في «وسط اللآلي» (ونافع لم أفرقه، ولا ذكره الأمدى) ج ٣ ص ٥٥.

(٣) هو أبو الحسين الشافعي المحنلي. وكان أحد شيوخ المؤلف. قرأ عليه في معجرات القرآن، وفي المعجرات النبوية. وكان شيخ الاعتزال في عصره. ويلقب بقاضي القضاة، ولا يظنون هذا اللقب على غيره. توفي بالزرق سنة ٤١٥. انظر الأحكام للزرقاني، والمختصر ج ٢ للأمامي ص ١٧٣.

الْتَرَابُ وَسَاءَتْ مَرْثَقًا ﴿١٠﴾. وفي هذه الآية استعارتان: أولاهما قوله تعالى: ﴿أَمَلًا يَوْمَ تُرَاوِثُهُا﴾ والسرداق هو الفسطاط المحيط به. فَوَصَفَ - سبحانه - السارَ بالإحاطة والاشتغال فلا ينجو منها ناج، ولا يُطلق منها عاب. وذلك كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَنْحَاظِ الْعَيْنَيْنِ خَيْرًا﴾ [الاسراء] أي حبسًا - نحصرهم، وطولًا نقصصرهم، ومثل قوله سبحانه ﴿أَمَلًا يَوْمَ تُرَاوِثُهُا﴾ قوله: ﴿إِنَّا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ في عَمُو مُنْتَمِةٌ ﴿١١﴾ [الهمزة] والموصلة: المخلقة المطبقة. من قولهم أوصلت الباب وأصدته^(١). إذا أغلقته وأطبقتها. وقرئ: عُمِدٌ وَعُمِدٌ. والمراد بقوله سبحانه: ﴿فِي عَمُو مُنْتَمِةٌ﴾ مثل المراد في قوله: ﴿أَمَلًا يَوْمَ تُرَاوِثُهُا﴾ تشبيهاً بتمديد الأخبية والسراقات بالأطناب، وإقامتها على الأعماد.

والاستعارة الأخرى قوله تعالى: ﴿وَسَاءَتْ مَرْثَقًا﴾ [المعرف] والمعرف: المُنْكَا، وهو ما يعتمد عليه بالعرف،

ومنه المعرفة وهي الميخنة. وذلك نظير قوله سبحانه: ﴿وَسَاءَتْ مَرْثَقًا﴾ [الرعد/١٨]^(٢) فلما جاء سبحانه بذكر السرداق جاء بذكر المرافق، لينشأ به الكلام.

وزوي عن بعضهم أنه قال: معنى مَرْثَقًا، أي مجتمعاً، كأنه دُفِبَ إلى معنى: وماءت مرافقه. والمرافقة لا تكون إلا بالاجتماع جماعةً. وهذا القول يُخرج الكلام عن حد الاستعارة، فيدخله في باب الحقيقة. والوجه الأول أقوى. ويشهد له قوله سبحانه: ﴿فَتَكُونُ فِيهَا عَلَى الْأَعْيَانِ﴾ [التكوير] وَخَسَفَتْ مَرَجًا ﴿١٢﴾ فجاء بذكر الارتفاق لتسا قدم ذكر الاتكاء. وهذا أوضح شاهد.

وقوله سبحانه: ﴿يَكُنَّا لَبَنَيْنِ بَازِلَيْنِ﴾ [البقرة/١٣٠]. وهذه استعارة. لأن الظلم ههنا ليس على أصله في اللغة، ولا على عرفه في الشريعة. لأنه في اللغة اسم لوضع

(١) ويقال أيضاً أصد الباب على وزن الفعل مثل أشد بالتضعيف

(٢) في سورة آل عمران، قوله تعالى ﴿وَسَاءَتْ مَرْثَقًا هَبْ لَنَا مِنْ أَنْحَاظِ الْعَيْنَيْنِ خَيْرًا﴾ فلا بد أن منشأهتان إلا في علمه بدلاً من الولو

الشيء في غير موضعه. وفي الشريعة اسم للفسور المفعول، لا على وجه الاستحقاق، ولا فيه استجلاب نفع، ولا دفع ضرر.

والمراد بقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَنْظُرْ فِي ظُلْمٍ أَمْسَتْ مِنْهُ لَيْلٌ فَأَخَذُ مِنْهُ مَنَافِقَ كَذِبَتْ أَعْيُنُهُمْ فَيَتَنَبَّأُونَ بِمَا يَكُونُ مِنْهُ لَمْ يُلَخِّصْ لَهُمْ آلَاءَهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَكْثَرًا فَغٰٔوِينَ﴾ أي لم تمنع منه شيئاً. وإنما حسن أن يعبر عن هذا المعنى باسم الظلم، من حيث كان نمر تلك الجنة التي هي البستان كالمستحق لمالكها. فإذا أخذ حقه على كماله وتماه حسن أن يقال: إنها لم تظلم منه شيئاً. أي لم تمنع منه مستحقاً، فتكون في حكم الظالم إذ أضرت بمالكها في نقصان زروعها، وإخلاف ثمارها. ومما يقرئ ذلك قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّكَ أَكْثَرُ﴾. أي أعطت أكلها. فلما جاء بلفظ الإعطاء حسن أن يجيء بلفظ الظلم. ومعناه ههنا المنع. فكانه تعالى قال: أعطت ما استحق عليها، ولم تمنع منه شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْرًا﴾ أي لم تكن له كفر. وهذه استعارة. وأصل الذخض الزلق. ومكان دجس: أي مزلق. فكانه سبحانه قال: ليضلوا الحق بعد ثباته، ويضلوه عن مستقراته. فيكون كالكسير بعد قوته، والمائل بعد

استقامته.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْرًا﴾ أي لم تكن له كفر. وهذه استعارة. لأن

المراد بذكر اليدين ههنا ما كسبه الإنسان من العمل الذي يجز العقاب، ويوجب النكال. ومثله في القرآن كثير. كقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا كَفَرْتَ﴾ (ال عمران/ ١٨٢). وذلك على طريقة للمعرب معروفة. وهو أن يقولوا للجاني العقاب: هذا ما جئت به. وهذا ما كسبت به. وإن لم تكن جنايت عملاً بيد، بل كانت قولاً بضم. لأن الغالب على أفعال الماعلين أن يفعلوها بأيديهم، فحُمل الأمر على الأحرار، وخرج على الأكثر؛ وعلى هذا المعنى تستوي النعمة بدءاً، لأن المنعم في الأغلب يُعطي بيده ما يُنعم به، وإن لم يقع ذلك في كل حال، وإنما الحكم للظاهر، والقول على الأكثر.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْرًا﴾ أي لم تكن له كفر. وهذه استعارة. لأن الإرادة على حقيقتها لا تصح على الجماد، والمعنى: يكاد أن ينقض، أي يقارب أن ينقض. على

التشبيه بحال من يُريد أن يفعل في
الباني، لأنه لما ظهرت فيه أمارات
الانقضاء، من ميل بعد انتصاب،
واضطراب بعد ثبات، حَسُنَ أن يطلق
عليه إرادة الوقوع، على طريق
الاتساع.

وتَرُدُّ في كلامهم «كاد» بمعنى
«أراد»، «وأراد» بمعنى «كاد». وجاء
في القرآن العظيم قوله تعالى:
﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ يُثُوثٌ﴾ (يوسف/ ٧٦)
أي أردنا ليوسف.

وقوله سبحانه. ﴿إِنَّ السَّكَانَةَ مَآبَةٌ
أَكَادُ لُنُوبًا﴾ (ط/ ١٥) معناه - على أحد

الأقوال - أريد أخفيها. ومما ورد في
أشعارهم شاعداً على ذلك، قول
عمر بن أبي ربيعة:

كادت وكدت، وتلك خير إرادة
لو عاد من لهر الضباب ما مضى^(١)

فقال: وتلك خير إرادة، والإشارة
إلى كادت، وكدت.

وأوضح من هذا قول الألوه
الأودي^(٢):

لَمِنْ نَجْمُوعِ أَرْثَاءٍ وَأَعْمِدَةٍ
وَسَاكِنٍ بَلَسُوا الْأَمْرَ الَّذِي كَانُوا
أَيُّ الَّذِي أَرَادُوا.

(١) هذا البيت لم ينسب لغاللة في شرح شواهد الكشف المسمى تنزيل الآيات، على الشواهد من الآيات؛
للعلماء محب النبي الأدي، ولم ينسب القرطبي لأحد وإنما نقل عن الأبهري قوله. وشاهد هذا قول التصح من
الشعر - انظر مجمع أحكام القرآن ج ١ ص ١٨٤.

(٢) هو سلام بن عمرو بن مالك وهو شاعر بني جاهلي فاشهر بالشبانة والقيانة. وهذا البيت من تمبذة مشهورة
يقول فيها:

لا يصلح الناس فرسى لأسرة لهم ولا سرقة إلا جهنم سافرا

وقيل بيت الشاعر هذا البيت:

والبيت لا يُنسب إلا له مُشَدَّد ولا جندك إلا لم تُرْسَ أَرْثَاءُ

وقد نُسب صاحب شواهد الكشف للرافد الأودي، وهو تعريف مطفي. لأن بئز هذا لا يحمي على العلامة
محب الدين.

(٣) لم ينسب هذا البيت لغاللة في مجمع أحكام القرآن ج ١ ص ٢٦. وكذلك لم ينسب ابن مطرف الكندي في
كتبه «القرطبي» طبع الحاتمي ص ٢٦٩. وانكسر بنا أشده السجستاني عن أبي حنيفة. وكذا لم ينسب ابن
كثير في «تأويل مشكل القرآن» ولا فاسان العرب. وأبو براء هو عامر بن مالك، ولقد غلبت الآية وترى
أسماره في «الشعر والشعراء» لابن كية صفحات ٣٣١، ٣٣٥، ٣٤٥، ٣٤٠، ٣٤١.

فأما قول الشاعر^(٢٧):

يُرِيدُ الرُّنْحُ حَنْدَرُ أَبِي سِرَاهِ
وَنَزَعَبٌ عَنْ يَمَانٍ نَبِي عَقِيلٍ
فليس يصح حمله على مقاربة
الفعل، كما قلنا في قوله سبحانه:
﴿جَنَارًا لَّيْدٌ أَوْ يَنْقَصُ﴾ لأنه لا يستقيم
على الكلام أن يقول: يكاد الرمح
صدر أبي بره. وإنما ذلك على سبيل
الاستعارة، لأن صاحب الرمح إذا أراد
ذلك كان الرمح كأنه يريد له. فأما قول
الراعي يصف الإبل:

يَسِي مُهْمَوٍ فَلَبِثْتُ بِهِ عَائِلَتَهَا
لَسَلَّ النَّفُوسُ إِذَا أَرَدَتْ نُصُولًا^(٢٨)
فإنه بمعنى مقاربة الفعل، لأن
النفوس إذا فُلقت في نُصْبها قاربت أن
تسقط، فجعل ذلك كالإرادة منها.
والتَّصُولُ لهُنَا مصدر تَصَلَّ نُصُولًا،
مثل وقع وقوها. وهذا البيت من أقوى
الشواهد على الآية.

وقوله سبحانه: ﴿وَرَكْعًا مَّصْنُوعًا يَمْزِيجُ
بَيْنَهُ فِي تَخْنُوعٍ﴾ [الأنعام ٩٩] وهذه استعارة.
لأن أصل المَوْجَان من صفات الماء

الكثير، وإنما عبر سبحانه بذلك عن
شدة اختلاطهم، ودخول بعضهم، في
بعض لكثرة أضدادهم، تشبيهاً بموج
البحر المتلاطم، والتفاف الدنيا^(٢٩)
المتعاطل.

وقوله سبحانه: ﴿أَلَيْسَ كَذَلِكَ أُنْزِلَ فِي
يُحْيَا عَنْ ذِكْرِي﴾ [الأنعام ١٠١]. وهذه
استعارة. وليس المراد، أن حيواتهم
على الحقيقة كانت في غطاء يسترها،
وحجاز يحجزها. وإنما المعنى: أنهم
كانوا ينظرون فلا يعتبرون، أو تُغْرِضُ
لهم العبر فلا ينظرون. ومن اللبيل
على ذلك قوله تعالى: ﴿عَنْ ذِكْرِي﴾
لأن الآمين لا توصف بأنها في غطاء
عن ذكر الله تعالى، لأن ذلك من
صفات ذوي العيون. وإنما المراد، أن
أعينهم كانت تذهب صفحاً عن مواقع
العبر، فلا يفكرون فيها، ولا يعتبرون
بها، فيذكرون الله سبحانه عند إجابة
أفكارهم، وتصريف خواطرهم. وهذا
من غرائب القرآن وعجائبه، وغوامض
هذا الكلام وقناسه.

وقوله سبحانه: ﴿أَلَيْسَ كَذَلِكَ أُنْزِلَ فِي

(٢٧) لم ينسب هذا البيت لقائله في القرطبي ج ١ ص ٢٦

(٢٨) أي الجراد الصغير، أو النمل. والمتعاطل - المتردب بعضه في بعض وفي المعجم الوسيط - الشيء بالآلف
المقصود

لَتَبَرَّكَ اللَّهُ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْشَرُونَ
سُبْحَانَكَ ﴿١٥٠﴾ وهذه استعارة. أصل
الضلال ذهب القاصد عن شئ
طريقه.

فَكَأَنَّ سعيهم لَمَّا كَانَ فِي غير الطريق
المؤدية إِلَى رضا الله سبحانه، حَسُنَ أَنْ
يُوصَفَ بِالضَّلَالِ، والعدول من سنن
الرشاد.

وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ كَفَرُوا
بِآيَاتِي وَآيَاتِي رَفَقُوا لِحَبْلِ أَكْمَلَتْ أَهْلَهُمْ فَلَا تُؤْمِنُ
لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُؤْمِنُونَ﴾. وفي هذه الآية
استمرتان إحداهما قوله سبحانه:
﴿يَأْتِي رَفَقُوا لِحَبْلِ أَكْمَلَتْ أَهْلَهُمْ فَلَا تُؤْمِنُ
لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ وتأويل لفظة
ههنا على وجهين: أحدهما أنه يكون
فيه مضاف محذوف. فكانه تعالى قال:
ولقاء ثوابه وعقابه، أو جلسته وتنازله
والوجه الآخر أن يكون معنى ذلك
رجوعهم إِلَى دَارٍ لَا أَمْرَ فِيهَا لِغَيْرِ اللَّهِ
سبحانه. فيصيرون إِلَهَاءَ مِنْ غَيْرِ أَنْ
يَكُونَ لَهُمْ عَنْهَا مَحِيصٌ، أو دونها
معيد. وذلك مأخوذة من مقابلتك
الشيء من غير أن تصرف عنه وجهك
بمياً ولا شملاً.

يقول القائل: لَقِيتُ فُلَانًا. أي قابلته
بجسملي. وتقول: دَارِي تَلْقَاءَ دَارِي
فُلَانٍ. أي مقابلتها. فكانت كل واحدة
منهما كالمقبلة على الأخرى. فلَمَّا كَانَ
لَا أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسْتَطِيعُ انْتِصَافًا عَنْ
الْوَجْهِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِجَمْعِ
النَّاسِ إِلَيْهَا، وحشرهم نحوها، سُمِّيَ
ذَلِكَ لِقَاءَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى السَّعَةِ
والمجاز.

والاستعارة الأخرى قوله سبحانه:
﴿لَا تُؤْمِنُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُؤْمِنُونَ﴾
والمراد بذلك - والله أعلم - أَنَا لَا نَجِدُ
لَهُمْ أَمْعَالاً صَالِحَةً تَنْقُلُ بِهَا مَوَازِينَهُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ. والميزان إذا كَانَ ثَقِيلًا
سُمِّيَ مُسْتَقِيمًا، وقائماً. وإذا كَانَ خَفِيفًا
سُمِّيَ عَادِلًا، ومائلاً.

وقد يجوز أن يكون معنى ذلك أَنَّهُمْ
لَا احْتِدَادَ بِهِمْ، وَلَا نَبَاةَ لَذِكْرِهِمْ فِي
يَوْمِ الْقِيَامَةِ. كما يقال في التحقير
للشيء: هَذَا لَا وَزْنَ لَهُ وَلَا قِيَمَةَ.
وكما نقول: فُلَانٌ عِنْدِي بِالْمِيزَانِ
الرَّاجِحِ، إِذَا كَانَ كَرِيماً حَلِيكاً، أو
حَيّاً إِلَيْكَ.



سورة مريم





أهداف سورة «مريم» (*)

وحدانية الله، والإلحاح بقضية البعث القائمة على التوحيد.

هذه هي الأهداف الأساسية للسورة. كالشأن في السور المحكية غالباً، **وَالْقَصَصُ** هو مادة هذه السورة. فهي تبدأ بقصة زكريا ويحيى (ع)، فقصة مريم ومولود عيسى (ع)، فطرزف من قصة إبراهيم (ع) مع أبيه. ثم تعقبها بإشارات إلى النبيين: إسحاق ويعقوب، وموسى، وهارون، وإسماعيل، وإدريس، وآدم، ونوح، ويستغرق هذا القَصص حوالي ثلثي السورة، ويستهدف إثبات الوحدانية والبعث، ونفي الولد والشريك وبيان منهج المهتدين ومنهج الضالين من أتباع النبيين.

سورة مريم سورة مكية نزلت بعد الهجرة الأولى إلى الحبشة وقبل الإسراء. وكانت الهجرة إلى الحبشة في السنة السابعة من البعثة، وكان الإسراء في السنة الحادية عشرة للبعثة، قبل الهجرة إلى المدينة سنة وشهران. أي أن سورة مريم نزلت بعد السنة السابعة من البعثة، وقبل السنة الحادية عشرة.

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لذكر قصة مريم فيها، وعدد آياتها: ٩٨ آية، وعدد كلماتها: ١١٩٢ كلمة.

أهداف السورة

الأهداف الأساسية لسورة مريم: تنزيه الله عن الولد والشريك، وإثبات

(*) انظر هذا المبحث من كتاب «أهداف كل سورة ومفادها»، لعبد الله محمود شحاتة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ - ١٩٨٤.

العميقة، وبخاصة في قصة مريم وميلاد عيسى (ع).

القصص في سورة مريم

القصص في سورة مريم استداد للقصص في سورة الكهف. فهناك ظهرت قدرة الله البالغة في حفظ أصحاب الكهف وإحيائهم بعد موتهم، وفي إعطاء الرحمة والعلم للخضر عليه السلام، وفي منح ذي القرنين أسباب الملك والسلطان والسيادة؛ وهنا تظهر رحمة الله وفضله على زكريا، إذ يمنحه يحيى على كبر وشيخوخة، وتظهر قدرة الله البالغة في خلق عيسى من أم دون أب، ثم نعمته السابعة على الأنبياء والرسل ورعاية الله لهم حتى يؤدوا رسالتهم. ويظهر ذلك في قصة إبراهيم مع أبيه، وقصة موسى مع قومه، وقصة إسماعيل الصادق الوعد، وقصة إدريس الصديق النبي.

ذكرت حلقة من هذه القصة في سورة آل عمران، ولكنها في سورة مريم تختلف ماسبق منها في أسلوبها ومناقشتها، وما فيها من زيادة ونقص.

إنَّ السُّنَّةَ الغَالِيَةَ هُنَا، سَمَةُ الرَّحْمَةِ وَالرَّضَا وَالْإِتِّصَالِ، فَهِيَ تَبْدَأُ بِذِكْرِ

ومن ثم بعض مشاهد القيامة، وبعض الجدل مع المنكرين للبعث، واستنكاراً للشرك ودعوى الولد، وعرض لمصارع المشركين والمكذِّبين في الدنيا وفي الآخرة، وكله يتناسق مع اتجاه القصص في السورة، ويتجمع حول محورها الأصيل.

«وَلِلسُّورَةِ كُلِّهَا جَوْ خَاصٌّ يَظَلُّهَا وَيُشِيعُ فِيهَا وَيَتَمَشَّى فِي مَوْضُوعَاتِهَا». إنَّ سياق هذه السورة معرض للانفعالات والمشاعر القوية؛ الانفعالات في النفس البشرية، وفي «نفس» الكون من حولها. فهذا الكون الذي نصوره جماداً لا حِسَّ لَهُ يُعرض في السياق ذا نفس وحس ومشاعر وانفعالات، تشارك في رسم الجوّ العام للسورة، حيث نرى السماوات والأرض والجبال تغضب وتنفعل، حتى لتكاد تفسطر وتنشق وتهتز، استكاراً.

﴿إِنْ دَعَا إِلَى زُرَّاتٍ وَلَقَدْ ﴿١٥﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلزُّرَّاتِ أَنْ يَسْجُدَ وَلَقَدْ ﴿١٦﴾﴾.

أما الانفعالات في النفس البشرية، فتبدأ مع مُفْتَتِحِ السورة وتنتهي مع ختامها. والقصص الرئيس فيها حافل بهذه الانفعالات في مواقفه العنيفة

رحمة الله لعمدة زكريّا، وهو يتناجي ربه
نجاه خفياً.

فَتَصَوَّرَ أَحَاسِيْسَ ذَلِكَ الشَّيْخِ الْهَرَمِ
وَرَغْبَتِهِ فِي الذُّرِّيَّةِ وَالْوَلَدِ وَدَعَاَهُ اللَّهُ
جَنَّةً، بَعِيداً عَنْ زَوْجَتِهِ وَعَنِ النَّاسِ.

ثم تَرُثُمْ لحظة الاستجابة في رعاية
وعطف ورعى. فَأُلْهُ ينادي عبده من
الملا الأعلى ﴿يَرْزُقُنِي﴾، وَيُغْفِلُ له
البشرى: ﴿إِنَّا قَبَّلَهُ إِلَيْنَا﴾.

ويغمره بالعطف فيختار له اسم
الغلام الذي بشره به ﴿أَسْمُهُ يَحْيَى﴾
[الآية ٧]. وهو اسم قَدْ غير مسبوق:
﴿لَمْ يَكُنْ لَوْ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

وكانما أفانق زكريّا، من عمرة الرِّقَبَةِ
وحراة الرجاء، على هذه الاستجابة
الغريبة للدهاء، فإذا هو يواجه الواقع:
إنه رجل شيخ، بَلَغَ من الكِبَرِ جَنَّتًا،
وَوُغِنَ عَظْمُهُ واشتمل شبّه، وامراته
عاقرة لم تلد في فتوته وصباه: فكيف
سيكون له غلام؟

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ
وَصَكَاتِ اسْرَآئِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ
الْكِبَرِ جَبِيًّا﴾.

ثم يأتيه الجواب عن سؤاله: بأن هذا

أمر هَيِّن يسير أمام قدرة الله، فهو
سبحانه الخالق الفعّال لما يريد. وهو
سبحانه الذي جعل العاقر لا تُلِدُ.
وجعل الشيخ الفاني لا يُنْسَلُ. وهو
قادر على إصلاح العاقر، وإزالة سبب
العُقم، وتجديد قوّة الإخصاب في
الرجل، وهو على كلّ شيء قدير.

وتمت ولادة يحيى، وتَجَبَّرَ وترهرع،
وأحكم الله عقله، وهَيَّاهُ لرعاية ميراث
أبيه في حزم وعزم؛ ولم يكن هذا
الميراث مالا أو عقاراً، وإنما كان
رِسالة الهدى، ودعوة الإيمان؛ وناداه
الله سبحانه:

﴿يَبْيِئْهُمُ الْكِتَابُ بِغُرَّةِ الْاٰمَةِ﴾ [١٢].

والكتاب هو الشّوْرة كتاب بني
إسرائيل من بعد موسى (ع)، وعليه
كان يقوم أنبيأؤهم، يحملون به
ويحكمون. وقد نودي يحيى (ع)
ليحمل العبء وينهض بالأمانة في قوة
وعزم. لا يَخْضَعُ ولا يتهاون ولا
يتراجع عن تكاليف الوراثة.

وقد زود الله يحيى بالحكمة في
صباه، وَوَقَّبه الحنان والعطف لتأليف
القلوب واجتذابها إلى الخير، وآتاه
الطهارة والتقوى فكان موصولاً بالله،

الأرض، ليشهدا البشر، ثم تطل في سجل الحياة الإنسانية بارزة فذة، تتلفت إليها الأجيال، إن عز عليها أن تتلفت إلى العجبة الأولى، التي لم يشهدا إنساناً

لقد جرت شئ الله في امتداد الحياة، بالتناسل من ذكر وأنثى في جميع الفصائل بلا استثناء.

حتى المخلوقات التي لا ذكر منها وأنثى، تتجمع في الفرد الواحد منها خلافاً للتذكير والتأنيث. جرت هذه السنة أحقاباً طويلة حتى استقر في تصور البشر أن هذه هي الطريقة الوحيدة، ونُسوا الحوادث الأزل. حادث وجود الإنسان، لأنه خارج من القياس. فأراد الله سبحانه أن يضرب لهم مثل عيسى بن مريم (ع) ليذكرهم بحزنة القدرة وطلاقة الإرادة، وأنها لا تحبس داخل النواميس التي تختارها؛ ولم يتكرر حادث عيسى (ع)، لأن الأصل هو أن تجري السنة التي وضعها الله، وأن ينفذ الناموس الذي اختاره. وهذه الحادثة الواحدة تكفي لبقى أمام أنظار البشرية معلماً بارزاً على حزية المشيئة، وعدم احتباسها داخل حدود النواميس:

عابداً له، مجاهداً في سبيله، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ولا يخشى في الله لومة لائم.

حكمة خلق عيسى (ع)

انشطت السورة من قصة ميلاد يحيى (ع) إلى قصة ميلاد عيسى (ع) وقد تدرج السياق من القصة الأولى، وروّج العَجَب فيها ولادة العاقر من بعلها الشيخ، إلى الثانية، ووجه العجب فيها ولادة العذراء من غير بعل، وهي أعجب وأغرب.

وإذا نحن تجاوزنا حادث إخلق الإنسان أصلاً، وإنشائه على هذه الصورة؛ فإن حادث ولادة عيسى بن مريم يكون أصعب ما شهدته البشرية في تاريخها كله، ويكون حادثاً فذاً لا نظير له من قبله ولا من بعده.

والبشرية لم تشهد خلق نفسها. وهو الحادث العجيب الضخم في تاريخها. إنها لم تشهد خلق الإنسان الأول من غير أب ولا أم. وقد مضت القرون بعد ذلك الحوادث، فشامت الحكمة الإلهية أن تبرز العجبة الثانية، في مولد عيسى من غير أب، على غير السنة التي جرت منذ وجد الإنسان على هذه

﴿وَلَنَحْكُمَنَّاهُ بِآيَةِ الْيَاسَنِ﴾ [الأنعام: ٢٢١].

ونظراً لثراثة الحادث وضخامته، فقد عزز على فِرْقِي من الناس أن تشهروه على طبيعته، وأن تدرك الحكمة في إبرازه. فجعلت تضفي على عيسى بن مريم (ع)، صفات الألوهية، وتعكس الحكمة من خلقه على هذا النحو المعجيب، وهي إثبات القدرة الإلهية المطلقة، تعكسها فتشوه عقيدة التوحيد. والقرآن في هذه السورة، يقص كيف وقعت هذه العجبة ويبرز دلالتها الحقيقية، وينفي تلك الخرافات والأساطير.

قصة ميلاد عيسى (ع)

وهاب الله مريم التقوى واليقين، ورزقها من فضله بغير حساب. وفي يوم ما احتكفت مريم كمادتها. وتولدت من أهلها، واحتجبت عن أنظارهم.

وبينما هي في خلوتها، مطمئنة إلى انفرادها، ظهر أمامها رجل مكتمل سوي الخلقة، فانتفضت انتفاضة العذراء المذعورة يتجأها رجل في خلوتها، فتلجأ إلى الله تستعيد به، وتستنجد، وتستثير مشاعر التقوى في

نفس الرجل، والخوف من الله، والتحرج من رقابته في هذا المكان الخالي. ولكن الرجل السوي هذا من زوعها، وأعاد إليها طمأنيتها، وأخبرها أنه مَلَكُ أرسله الله إليها، لحكمة إلهية، وفضل رباني:

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾.

وتدرك مريم شجاعة الأنثى المهددة في عرضها فتسال في صراحة وحجة:

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ الْبَاطِلِ﴾.

فهي لم تخلط رجلاً في نكاح ولا في بفساح. فأخبرها الملاك، أن هذا الحمل سيكون بقدرة الله وحده، وهو أمر حين أمام هذه القدرة التي تقول للنسيء كن فيكون. وقد أراد الله سبحانه أن يجعل هذا الحادث آية للناس، وعلامة على وجوده وقدرته وحزينة إرادته.

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَذِهِ وَلَنَحْكُمَنَّاهُ بِآيَةِ الْيَاسَنِ وَوَعَدْنا بِنَا وَإِنَّا لَنَرَاهُ لَفِي أَفْئِدَةٍ مَّقْضِيًّا﴾.

ثم مضى الملاك واختفى. وت الحمل بقدرة الله، وجلس مريم حائر

﴿ثُمَّ لِي وَآلِي﴾ [الآية ٢٦] هنيئاً
﴿وَقَرَىٰ عِيسَىٰ﴾ [الآية ٢٦].

واطمعتي قلباً، إما ترين من قدرة الله
التي اخضر بها جذع النخلة اليابسة.
وطيبي نفساً بما حباك الله من جبرهان
الماء في تلك البقعة المغفرة.
واطمأنت مريم إلى فضل الله، وأنه لن
يتركها وحدها، أن حُبَّتْهَا معها، هذا
الطفل الذي ينطق في المهد.

وَرَجَعَتْ مريم إلى قومها وعشيرتها
تحمّل ولدها على كتفها، وسرعان ما
سُيِّع أمرها، وعرف خبرها. وجاء
أقربها يؤنبونها بالأسنة الشفيع
والتائب، ويلومونها على هذه الفعلة
المنكرّة، ويذمّونها بشرف أسرتها
وكرم أصلها. والتزمت مريم الصمت،
وأشارت إليهم أن كلّموا هذا الوليد،
إن أردتم الوقوف على حقيقة الأمر:

﴿كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْبطنِ صَبِيحًا﴾؟

كيف نكلّم ولیداً، لم نكتمل أدوات
نطقه. ولم تتحرّك شفته إلى ثدي أمّه؟
فانطلق الوليد يجيبهم في بيان وحجة
وبرهان:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ مَنَّاسِي الْأَيْمَنُ﴾

تفكر في أمر نفسها، وتخيلت ما
سيقوله الناس عن عذراء تحمل وتلد
من غير أن يكون لها بعل؟ وفي حدة
الآلم ومرارة الخوف نظرت إلى الطفل
في حسرة واكتئاب، وجعلت تتمنى لو
ضمتها القبر وفارقت العالم، قبل أن
تصير أمّاً من غير أن تتزوّج، فقالت
كما ورد في التريل:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قَدْ جَاءَنَا وَصِيٌّكَ نَسِيحًا

ولكنها ما لبثت أن سمعت صوت
وليدها، فبدت مخاوفها، وكفّفت
دموعها، وناداهما من تحتها كما روى
القرآن ذلك، حكاية عنه:

﴿إِنَّا نَحْنُ وَإِبْرَاهِيمُ عَبْدَانِ﴾

أي جدولاً يجري مآؤه في تلك
البقعة الجرداء، والأرجح أنه جرى
للحظته من ينبوع، أو تدفق من سيل
ماء في الجبل. وهذه النخلة التي
تستدين إليها هزبها فتساقط عليك
رطباً. فهنا طعام وذاك شراب،
والطعام الحلو مناسب للثفساء.
والرطب والثمر من أجود طعام
الثفساء.

وَيَعْلَمُ بِمَا ۖ وَجَعَلْنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا
كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْعَمَلِ وَالرَّحْمَةِ مَا كُنْتُ
حَيًّا ۖ وَرَبَّنَا بِإِلَهِهِ وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَارًا
مَدِينًا ۖ وَالتَّلَاسُمَ عَلَى يَوْمٍ وَلَدْتُ وَيَوْمَ
أُمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۖ ﴿١٠﴾ .

وهكذا يعلن عيسى (ع) عبوديته لله سبحانه . فليس هو أبه كما تقول فرقة ، وليس هو ثالث ثلاثة كما تقول فرقة ثالثة ، ويعلم أن الله جعله نبياً لا ولداً ولا شريكاً ، وأن الله أوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته .

أسلوب القرآن

لنحس في كلمات هذه السورة السهولة واليسر ، والرضا والطمأنينة ، فهي كلمات معبرة عن معانيها ، فمعاني السورة تدور حول فضل الله على ذكرنا ومريم ، وغيرهما من الأصفياء .

وتمثل الرضا والسلاسة واليسر في معاني السورة ، كما يتمثل في ألفاظها وفواصلها ، وهي : رَضِيئاً ، سَرِيئاً ، خَفِيئاً ، نَجِيئاً ...

فإنما المواضع التي تقتضي الشدة والمنع ، فتجيء فيها الفاصلة مشددة على حرف الدال في الغالب : مَدَا ،

مَدِينًا ، إِذَا ، هَذَا ، أَوْ زَائِلًا : جَزَاءً ، أَرَأَى ، رَحْمَةً .

ويتنوع الإيقاع والفاصلة بتنوع الجو والموضوع في هذه السورة ، فهي تبدأ بقصة ذكرنا ومريم ، فتسير الفاصلة والقافية هكذا :

﴿وَكُرِّمَتْ ذِكْرَكَ عَبْدُكَ زَكْرِيَّا ۖ﴾
إِذْ نَادَىٰ رَبُّهُ يَا نَبَاةَ هَيْمًا ۖ ﴿١١﴾ وتليها قصة مريم وعيسى فتسير الفاصلة على النظام نفسه :

﴿وَأَذِّنْ فِي الْكُنُوزِ مَدَامَ لَا أَنْبَأْتُ
بَيْنَ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرِيئًا ۖ﴾ فَأَخْبَذْتُ مِنْ
دُونِهِمْ حَمَلًا فَارْتَمَىٰ بِهَا رَبُّهَا فَبَشَلْتُ
لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۖ ﴿١٢﴾ .

إلى أن ينتهي القصص ، ويجيء التعميق ، لتقرير حقيقة عيسى بن مريم ، وللإفصاح في قضية بُشْرَتِهِ ، فيختلف نظام الفواصل . تطول الفاصلة وتنتهي بحرف الحيم أو النون المستقر الساكن ، وكأنما الآيات تميز عن حُكْمٍ بعد نهاية القصة ، مستمد منها ؛ ولهجة الحكم تقتضي أسلوباً تعبيرياً غير أسلوب الاستعراض ، وتقتضي إيقاعاً قوياً وصيحاً ، يدل إيقاع القصة الرضي المسترسل ، فيقول سبحانه :

بعض مشاهد القيامة، وتعرض صورة من استنكار الكون كله لدعوى الشرك. وتنتهي بمشهد مؤثر عميق، من مصارع القرون:

﴿وَرَكَّ أَعْيُنَنَا عَلَىٰ مِثْلِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٧٤].

أي أمة من الأمم الماضية، بتكذيبهم الرسل.

﴿عَلَّ يُشْجِ يَتِيمٌ مِنْ أَسْمَاءٍ أَوْ سَمِعَتْ لَهُمْ دُبُورًا﴾ [الأنبياء: ٧٥].

وقد جاء تفسير الطبري لهذه الآية الأخيرة من سورة مريم بما معناه:

يقول تعالى ذُكِّرُوا: وكثيراً أهلكنا يا محمد، قبل قومك من مشركي قريش ﴿يَنْزِلُ رَبُّنَا﴾ يعني من جماعة من الناس، إذ سلكوا سبيل المعاصي والشرك:

﴿عَلَّ يُشْجِ يَتِيمٌ مِنْ أَسْمَاءٍ﴾.

يقول فهل تحس أنت منهم أحداً يا محمد، فتراه وتعاينه ﴿أَوْ سَمِعَتْ لَهُمْ دُبُورًا﴾ [الأنبياء: ٧٥].

يقول أو تسمع لهم صوتاً، بل بادوا وهلكوا وخلت منهم دورهم، وأوحشت منهم منازلهم، وصاروا إلى دار لا ينفعهم فيها إلا صالح من عمل فتموه؛ فكل ذلك قومك هؤلاء صالرون إلى ما صار إليه أولئك، إن لم يعاجلوا التوبة قبل الهلاك.

وهكذا تنتهي سورة مريم، بعد تقرير قدرة الله العالقة، وحكمته البالغة في خلق يحيى وخلق عيسى (ع)، وتقرير قدرته سبحانه على البعث والخشر والحساب والجزاء، ومكافأة المؤمنين ومعاقبة المعتدين.



مرکز تحقیقات و پژوهش‌های اسلامی

ترابط الآيات في سورة «مريم»^(٥)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة مريم بعد سورة فاطر . ونزلت سورة فاطر بعد تِسْعَ عَشْرَةَ سورة من سورة النجم، وسيأتي أنَّ سورة النجم نزلت عقب الهجرة الأولى للحبشة، وقد كانت الهجرة إلى الحبشة في السنة السابعة من البعثة، فتكون سورة مريم من السور التي نزلت بَيْنَ هذه الهجرة وحادثة الإسراء .

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم، لذكر قصة مريم فيها، وتبلغ آياتها ثمانين آية.

الغرض منها وترتيبها

العرض من هذه السورة، ذِكْرُ ثَلَاثِ

من قصص بعض الرسل المعطاة والقدوة، تكميلاً لما ورد من ذلك القَصَصِ العجيب في سورة الكهف، وتقريراً لما ورد في ختامها من أنَّ كَلِمَاتِ اللَّهِ فِي ذَلِكَ لَا نَفَادَ لَهَا، ولهذا ذَكَرَتْ سورة مريم بعد سورة الكهف .

وقد كُنْهَتْ قِصَصُ أَوْلَئِكَ الرسل ببيان انحراف أتباعهم عن سُبُلِهِمْ، وما يستحقون من الجزاء على انحرابهم .

تتف من قصص بعض الرسل الآيات [١ - ٥٨]

قال الله تعالى . ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهِ ۖ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهِ ۚ نَادَىٰ بِرَبِّهِ ۚ فَجَاءَهُ نَذِيرٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ فَقَالَ إِنِّي عَلَيْكَ مِن نَّازِحَةٍ ۚ فَكُفَّ هَمُّهُ ۚ فَاتَّبَعَهُ رَاقِيَاهُ ۚ ﴾ فذكر ست قصص من قصص الرسل:

(٥) انتهى هذا المبحث من كتاب «العلم الهادي في القرآنية»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الأناضول بالجمهورية السورية - المطبعة الجديدة بالمكتبة الجديدة، القاهرة، غير مؤرخ.

بَيْنَ رَحْمَتِنَا وَبَعَثْنَا لَهُمْ لِسَانَ عِلْمٍ
عَلِيمًا ﴿٥٨﴾ .

والرابعة قصة موسى، وقد ذكر فيها أنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً، وأنه ناداه من جانب الطور الأيمن، وقُرِئَتْهُ نَجِيًّا: ﴿وَرَبُّكَ لَمْ يَنْ رَحِمْتَ أَهْلَهُ هَؤُلَاءِ﴾ .

والخامسة قصة إسماعيل، وقد ذكر فيها أنه كان صادق الوعد، وكان رسولا نبياً ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ مِنْ دُونِ مُشْرِكِيكُمْ﴾ .

والسادسة قصة إدريس، وقد ذكر فيها أنه كان صديقاً نبياً، وأنه رُفِعَ مَكَانًا عَلِيًّا .

ثُمَّ أَتَيْنَا عَلَيْهِمْ عَمُومًا، بعد أن أتى على كل واحد بخصوصه، فقال جلَّ وَعِلا ﴿أَتُوبُكَ إِلَيْنَ أَمِ اللَّهُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبِئِينَ مِنْ قَبْلِكَ يَدْعُونَ إِلَى مَا كُفِّرُوا بِهِ وَيَسْتَخَفُّونَ هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَلَقَدْ كَذَّبْنَا بِآيَاتِنَا لِقَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ .

اتحرف خلفهم عن سنتهم الآيات [٥٩ - ٩٨]

ثم قال تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ خَلْفٌ

الاولى قصة زكريّا وامته يحيى، وقد سَبَقَتْ ورودها في سورة آل عمران، وهي تخالف ما سبق منها في أسلوبها وسياقها وما فيها من زيادة ونقص، وقد ختمت بقوله تعالى في يحيى: ﴿وَمَلَكُمْ عَلَيْهِ يَوْمَ ذَٰلِكَ يَوْمُ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُحْيَىٰ﴾ .

والثانية قصة مريم وابنها عيسى، وقد سَبَقَتْ أيضاً في سورة آل عمران، وهي تخالف ما سبق منها في أسلوبها وسياقها، وما فيها من زيادة ونقص، وقد ذكر سبحانه أن ما قُصِّه فيها من أنَّ عيسى قَبِيْلُهُ لا ابنه، هو الحق؛ وَأَمْرُهُمْ تعالى أن يعبدوه وحده ولا يتخذوا له شريكاً من وَلَدٍ أو غيره، ثم أوعدهم على ذلك بما أوعدهم به، وَأَمْرُهُمْ يوم الحسرة إذ قُضِيَ الأمر وهم في صفة وهم لا يؤمنون: ﴿إِنَّا نَحْنُ رَبُّهُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهِمْ وَلَئِنَّا لَإِيَّائِهِمْ﴾ .

والثالثة قصة إبراهيم مع أبيه، وقد سَبَقَتْ في سورة الأنعام، وهي تخالف ما سبق من جهة أسلوبها وسياقها وما فيها من زيادة ونقص، وقد ذكر في آخرها أنه حين اعتزل قومه وما يعبدون من دونه وهب له سبحانه، إسحاق ويعقوب، وكلاً جعله نبياً: ﴿وَرَبُّكَ لَكُمْ

أَمَّا عَنِ الْقَوْلِ وَالْمَعْرِفَةِ فَتَحَرَّكَ مَوْتٌ يَلْقَى
 عَيْنًا ﴿١٧٧﴾ فذكر سبحانه، أنه خلف من
 بعد هؤلاء الرسل خَلَفَ اتَّحَرَفُوا عَنْ
 شَتَائِبِهِمْ فَأَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا
 الشَّهَوَاتِ، وَأَنَّهُمْ سَوْفَ يُلْقَوْنَ جَزَاءَ
 عَيْبِهِمْ، وَاسْتَشْنَى مِنْ ثَابٍ مِنْهُمْ وَأَمِنَ
 بِالْبَيْتِ (ص) وَوَعَدَهُمْ بِأَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ
 الْجَنَّةَ الْخِ؛ ثُمَّ ذَكَرَ جَلَّ جَلَالُهُ أَنَّهُمْ لَا
 يَنْزِلُونَ فِيهَا إِلَّا بِأَمْرِهِ، لِأَنَّهُ مَالِكٌ كُلِّ
 شَيْءٍ مِمَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَمَا
 بَيْنَ ذَلِكَ، وَمَا كَانَ لِيُنْصِيَ إِحْسَانَ
 الْمُحْسِنِ وَإِسَاءَةَ الْمُسِيءِ فَلَا يَجَازِيهِمَا
 عَلَيْهِمَا؛ ثُمَّ ذَكَرَ بِمُنَاسَبَةٍ هَذَا إِنْكَارَهُمْ
 لِلْمَعَادِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ الْجَوَابُ
 وَالْعِقَابُ، لَا مَسْعَادَهُمْ إِحْيَاءَ الْإِنْسَانِ
 بَعْدَ مَوْتِهِ. وَأَجَابَهُمْ بِأَنَّهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ
 مِنْ قَبْلِ مَوْتِهِ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا، فَهَوَّ قَادِرٌ
 عَلَى إِحْيَائِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ مِنْ بَابِ أَوَّلَى؛
 ثُمَّ أَقْسَمَ لِيَحْضُرْنَهُمُ وَالشَّيَاطِينُ،
 وَلِيَحْضُرْنَهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ بَارِكِينَ عَلَى
 رُكْبِهِمْ؛ وَلِيُزَعِّزَنَّ مِنْ بَيْنِهِمْ مَنْ كَانَ
 مِنْهُمْ أَشَدَّ تَعَزُّدًا، لِيَلْقِيَهُ عَذَابًا أَعْظَمَ
 مِنْ غَيْرِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَوْلَى
 بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِ، وَلَا يَدَّ مِنْ وَرُودِهِمْ
 لَهَا جَمِيعًا عَلَى تَعَاوَتِ عَذَابِهِمْ فِيهَا
 ﴿ثُمَّ نَتَّبِعُ الْأَبْرَارَ أَتَقَرَّبُوا وَتَذَرُ السَّالِفِينَ﴾
 جَنَّاتٍ ﴿١٧٨﴾.

ثم ذكر السبب في عدم إيمانهم
 بذلك، وهو اغترارهم بدينهم، فذكر
 سبحانه أنهم إذا تتلى عليهم آياته في
 ذلك واضحات، ذكروا أنهم أحسن
 حالاً من المؤمنين، ولو كانوا على
 الباطل لكانوا أسوأ حالاً منهم؛ ورد
 عليهم بأنه كم أهلك من قبلهم من قوم
 كانوا أحسن حالاً منهم، وبأنه إنما يُنْعَمُ
 عليهم بذلك ليمدَّ لهم في الصلاة
 ويقطع عنهم العذر، حتى إذا رأوا ما
 يوعدون في الدنيا أو الآخرة علموا
 أنهم شرُّ مكاناً وأضعف جنداً ﴿وَيَزِيدُ
 اللَّهُ أَلْيَبَ كَافِتَرًا هُدًى وَالْبُورِثَ
 كَفَرًا حَتَّىٰ يَرْوِغَ فِي ذَرْوِكَ نَارًا وَتَبَرَّ
 مَرَّةً﴾.

ثم خصَّ شخصاً منهم بلغ به الغرور
 مبلغه حتى قال استهزاء: ﴿لَا أَرَىٰكَ مَالًا
 وَوَلَقَدْ﴾ في المعاد كما أوتيت ذلك
 في الدنيا، وردَّ عليه بأنه لم يطلع على
 الغيب، ولم يتخذ عنده بذلك عهداً؛
 ثم أوعده بأنه سيكتب ما قاله ويرث
 ماله وولده، حتى يأتية يوم القيامة
 فرداً.

ثم ذكر أنهم يعتمدون في ذلك على
 أن آلهتهم مستشفع لهم يوم القيامة، وردَّ
 عليهم بأنهم سيكفرون فيه بعبادتهم

ويكونون عليهم ضداً ثم ذكر أن الشياطين استولت عليهم، فلا فائدة في نصيحهم، ونهى النبي (ص) أن يُعْجَل عليهم العذاب، لأنه يعدّه لهم هذا، ثم ذكر أنه إذا أتى وقته يحشر المُتَّقِينَ وفُدَاءُ، ويسوق المجرمين إلى جهنم، كأنهم نَمَمَ عَطَاشٌ تَسَاقَى إِلَى الْمَاءِ، ولا يكون هناك شفاعَة إلا للمؤمنين الذين اتَّخَلَوْا عند الرحمن بذلك عهداً.

ثم ذكر أن فريقاً يزعمون أن الملائكة بنات الله، فيعبدنها ويزعمون أنها تشفع لهم يوم القيامة، وردّ عليهم بأنهم قد جاءوا بهذا شيئاً إنشأ، ويأثم ما ينبغي له سبحانه أن يتخذ ولداء، ثم ذكر أن كل من في السماوات والأرض يأتيه يوم القيامة عبداً، وأن كل واحد منهم يأتيه

قربداً، لا شفيع له من الملائكة، وغيرهم.

ثم ختمت السورة بآيات الشفاعة للمؤمنين بعد أن نُفِيَتْ عن غيرهم، فذكر سبحانه أنه سيجعل لهم يوم القيامة وُفْدًا يشفع به بعضهم لبعض، ولا يقطع ما بينهم من تواصل كما قطع بين الكفار ومن اتَّخَذُوهُ مِنْ شَرِيكَ وولداً، ثم ذكر سبحانه أنه إنما يُسَرُّ القرآن بلسان الرسول (ص)، لأجل هذا التبشير والإنذار فقال جلّ وعلا: ﴿وَلَمَّا يَسْرِىٰٓكَ إِلَٰهَكَ يَتَّبِعُكَ بِوَلَدِكُمُ الْمَنُونِ وَيُخَيِّرُ بَيْنَ قَوْمَا لَكَ ۖ وَكَمْ أَفْلَحَ قَوْمُهُمْ يَنْ قَرُّوْا عَلَىٰ عُثْرٍ يَسْمُونَ ۚ إِنَّ أَوَّلَ لَوْ سَخَّ لَهُمْ يَكْرًا ۖ﴾.

أصناف ترتيب سورة «مريم» (٥)

وأيضاً قيل: إن أصحاب الكهف يبحثون قبل قيام الساعة، ويبحثون مع عيسى بن مريم حين ينزل^(٢). ففي ذكر سورة مريم بعد سورة أصحاب الكهف مع ذلك، إن ثبت، ما لا يخفى من المناسبة. وقد قيل أيضاً: إنهم من قوم عيسى، وإن قصتهم كانت في الفترة، فتناسب توالي قصتهم وقصة نبيهم^(٣).

أقول: ظهر لي في وجه مناسبتها لما قبلها: أن سورة الكهف اشتملت على عدة أعاجيب: قصة أصحاب الكهف، وطول لبثهم هذه المدة الطويلة بلا أكل ولا شرب، وقصة موسى مع الجفصر عليهما السلام، وما فيها من الخارقات، وقصة ذي القرنين. وهذه السورة فيها أعجوبتان: قصة ولادة يحيى بن زكريا (ع)^(٤)، وقصة ولادة عيسى (ع)، فتناسب تتاليهما.

(٥) أنبئي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن للسيوطي»، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الازهر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) ولادة يحيى كانت عجيبة، لأن أمه كانت قد بلغت سن اليأس، وإليه بلغ من التكبر شيئاً، فليس لملئها أن ينجب أبداً.

(٢) لم يذكر على هذا الرأي فيما بين أيدينا من مصادر.

(٣) قال ابن كثير: الظاهر أنهم كانوا قبل مدة النصرانية، لأن اليهود أشاروا على قريش بقتل النبي (ص) عنهم. (تفسير ابن كثير: ١٣٧/٥)



مكنونات سورة «مريم» (٥)

المكان العلي، هو السماء الرابعة،
كما في «المصحح»^(٣)
١ - ﴿وَقَوْلُ الْإِسْكَنْ﴾ [١٦: ١٦].
هو: أي بن خلف^(٤).
وقيل: الوليد بن المغيرة.
وقيل: أُمَيَّة بن خلف.
٢ - ﴿أَفَرَأَيْتَ أَلَّى كَفَرَّا وَكَانُوا وَقَالُوا
لَأَوْتَيْنَاكَ مَا نَدَّيْنَا﴾.
نزلت في العاصي بن وائل السهمي؛
كما أخرجه البخاري عن حنبل بن
الأزث^(٥).

١ - ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [١٧: ١٧].
قال قتادة، وعطاء، والضحاك:
جبريل؛ أخرجه ابن أبي حاتم^(٦).
٢ - ﴿فَأَدْنَاهَا مِنْ نَحْمِيهَا﴾ [١٧: ١٧].
قال البراء: ملك.
وقال ابن عباس وسعيد بن جبيرة
والضحاك: جبريل، وقال مجاهد
والحسن: عيسى^(٧).
أخرج ذلك ابن أبي حاتم.
٣ - ﴿وَوَقَّعَتْهُ مَكَايِدَ﴾.

- (٥) انتهى هذا البحث من كتاب «نفعات الآثار في منبجات القرآن الشريفي، تحقيق إمام خالد الطنّاج، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ
- (١) انظر «تفسير الطبري» ٢٩/١٦.
- (٢) هذا القول إحداه ابن زيد، كما في «تفسير ابن كثير» ١٧٧/٣، والطبري أيضاً في «تفسيره» ٥٢/١٦.
- (٣) «مصحح البخاري» في بدء الخلق برقم (٣٢٠٧).
- (٤) حكاة الرازي في «أسباب القولة» ٢٢٧، عن الكلبي؛ وانظر «سير ابن هشام» ١/٣٦١.
- (٥) برقم (٤٧٣٢) في «تفسير».



مرکز تحقیقات و پژوهش علوم اسلامی

لغة التنزيل في سورة «مريم» (٥)

وتجاوز الحد قرابة؛ وبشيء من
اللفظ، يصار من هذه إلى تلك.

٢ - وقال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِن
قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝﴾.

قوله تعالى (ولم تكن) حذف النون
للتخفيف، وذلك إذا وليها حرف ذو
حركة، فإن كان ساكناً امتنع الحذف؛
وقد ورد في الشعر ضرورة، ومنه قول
الشاعر:

إذا لم تكن المرأة أبعدت محاسناً

فقد أبعدت المرأة جبهة ضيئهم
ومثل الآية قوله تعالى أيضاً:
﴿وَلَمْ أَكُ يَوْمَئِذٍ شَيْئًا ۝﴾.

٣ - وقال تعالى: ﴿فَأَلْبَسَهَا السَّيَاطِرَ
إِنَّ جَنِّحَ الْمَوْتِ﴾ [الأنعام: ٢٢٣].

قال تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَّغْتَ مِنَ الْعَصَايِرِ
يَوْمَئِذٍ ۝﴾.

قوله تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: اليس
والجساسة في المفاصل والمظام؛
كالعمود الفاحل يقال: عتا العمود وعسا
من أجل الكبر والبطش في السن
العالية.

والفعل «عتا» مصدره «عَوَّ» و«عَيَّ»
بمعنى استكبر وجاوز الحد وقرئ
«عَيَّاه» بضم العين.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَقْرَعَنَّ
بِهِ نَجْمًا لَّهُمْ يَسْمَعُونَ ۝﴾ [الأنعام: ٢٢٣].

أقول: وكان بين اليس والجساسة
في المفاصل والمظام، وبين الاستكبار

(٥) انتهى هذا المبحث من كتاب «في مدح لغة التنزيل»، لأبراهيم القسري، مؤسسة الرسالة العربية، بيروت، غير
مؤرخ

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَتَلَخَّصْ﴾ فعل مزيد
بالهمزة، والثلاثي «جاء» إلا أن
استعمال المزيد قد تغير بعد الزيادة إلى
معنى الإلجاء، تقول: جئت المكان،
وأجاءني زيد، كما تقول: بلغته
وأبلغني.

ونظيره «أني»، حيث لم يستعمل إلا
في الإعطاء. ولم تقل: أتيت المكان
وأتانيه فلان.

أقول: وليس لنا في الحرورية
المعاصرة الفعل المزيد «أجاء».

٤ - وقال تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَشْيَا
مَنْسِيًّا﴾.

وقرئ «نسيأ» بكسر النون وفتحها،
فمن قرأ بالكسر فمعناه: خيضة بلفظة،
أي، خروقة الحيش، ومن قرأ بالفتح
فمعناه شيئاً منسياً.

والنسي أيضاً: ما نسي وما سقط في
منازل المرتحلين من زُخَال أمتعتهم.
وتقول العرب إذا ارتحلوا من المنزل:
انظروا أنساءكم، جمع نسيء وفي
حديث عائشة - رضي الله عنها -
«وددت أني كنت نسياً منسياً أي شيئاً
حقيقاً غطرحاً ولا يلتفت إليه».

(١) القلب. البئر.

(٢) العرب: الذئب العظيمة

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَمَلْنَا رَبَّنَا تَحَنُّنًا
مَرِيًّا﴾.

الشرطي: النهر، عن ثعلب، وهو
الجدول الصغير يجري إلى النحل،
والجمع أسرية وسريان.

وكذلك قال ابن عباس، وهو قول
أهل اللغة.

وروي عن الحسن، أنه كان يقول
كان والله سرياً من الرجال، ويعني
ميسي (ع).

٦ - وقال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا
تَحْمِيْلًا فَأَلْوَا بِسَهْمٍ لَّهٗ جَنَّتْ شَيْئًا
فَرِيًّا﴾.

قال الفراء: الفري الأمر العظيم،
أي: جنت شيئاً عظيماً.

وقيل: جنت شيئاً فرياً، أي مصنوعاً
مختلفاً.

وفلان يفري الفريء إذا كان يائي
بالعجب في عمله.

وقال النبي (ص) في صمر، رضي
الله عنه، ورأه في منامه ينزع عن
قلب^(١) بفرب^(٢): فلم أزع عبقرياً يفري
فريه.

وأقول: وهذا من الكلم الجميل الذي أضعناه، وليس لنا منه شيء.

٧ - وقال تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجِمَنَّكَ وَآتِيتَنِي مَلِيئًا﴾.

قال القرطبي: أي: طويلاً.

والملي: الهوي من الدهر، يقال أقام ملياً من الدهر، ومضى ملي من النهار، أي ساعة طويلة.

ومرّ ملي من الليل، أي من أوله إلى ثلثه.

٨ - وقال تعالى: ﴿سَأَسْتَفِيزُ لَكَ رَوْحًا لَئِنْ كُنْتَ مِنْ حَبِيئًا﴾.

الحفي: البليغ في البر والإلطف، يقال حفي به وتحفى به.

أقول: وليس لنا في هذا المعنى إلا الفعل «احتفى» يقال احتفى به، أي برّ وتلطّف وتكرّم.

٩ - وقال تعالى: ﴿وَإِنَّا نُنْقِطُ حَبِيئًا مَكِيْتُ أَرْجَمَنِي خَوْفًا سَخِيًا وَرِيئًا﴾.

قوله تعالى: ﴿رِيئًا﴾ أي: باكين، وهو جمع باكٍ مثل قاعد وقعود، وساجد ومسجود.

وفي بعض القراءات «بكياً» بكسر

الياء، وهي قراءة من أثر كسرة الكاف لمكان الياء بعدها، وهذا كقوله تعالى:

﴿ثُمَّ لَتَحْمِلَنَّهُ حِمْلًا حَثَمًا﴾.

وقوله جلّ وعلا: ﴿وَلَتَرُ الْفَلِيلِيكَ مِيًا حِيئًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَحْيَا﴾ جمع جاث، وكان يمكن أن تقرأ «يحيّا» بضم الجيم على قراءة من قرأ «يحيّا»، وهي القراءة المشهورة ولكن «يحيّا» بالكسر هي القراءة الغالبة.

١٠ - وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَنُؤُنَّ أَهْلَهُم بِأَلَمٍ مِمَّنْ لَقُوا بِمَا كَانُوا يَكُونُونَ﴾.

والنؤن ثم لنمن أعلم بتصلية هؤلاء، وهم أولى بالصلي من بين سائر الصالين.

والصلي: مصدر صلي. وصلي بالناز وصليها صلياً وصلياً وصلياً وصلياً وصلّى بها وتصلّاها. وفري: «صلياً».

١١ - ﴿وَرَكَّ أَلَمَكَا قَلَمَهُمْ يَنْ قَرْنَهُمْ لَتَسَنَّ لَنَّا وَرَكَّ﴾.

الألث: متاع البيت، وما يجذ من الغرض، وليس منه الحزني^(١).

(١) هزني. لربما المتاع

١٢ - وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا
التَّائِبِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَّابَةً أُولَئِكَ﴾.

الأز والاستغفرلز متقاربان، والمعنى
التبهيح وشدة الإزعاج.
أقول:

ليس شيئاً من ذلك في اللغة
المعاصرة، بل إن الفعل «أَزَّ» يفيد
غريباً من الصورت، كأيزز الشدر
والمرجل ونحوهما.

١٣ - وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُ
الْمُتَّقِينَ إِلَى الْكَافِرِينَ وَلِقَاءَ﴾.

أي: يوم نحشرهم وافئذهم، والوفد
في الآية الركبان المتكرومون.

وكما يكون «الوفد» اسم جمع
للوفد، فهو مصدر أيضاً.

والوفد في لغتنا المعاصرة جماعة
يؤفدون إلى أمر من الأمور، ولكثرة
استعماله في الحياة المعاصرة جمع
على «وفوده».

١٤ - وقال تعالى: ﴿لَعَذَابُكُمْ شَيْنًا
بِئْسَ﴾.

الإذ بالكسر والفتح: الخجيب،
وقيل: العظيم المتكرر، والإذة: الشدة،
وأثني الأمر وأثني: أثقلني وعظم عليّ.

أقول: والأثاث مفرد بخلاف ما يرد
جمعاً في لغة المعاصرين.

إن مادة «أثاث» تشير إلى ما يقابلها
في اللغات السامية، وهي «أيت» كما
في العبرانية، «أيت» في الآرامية،
«أيتش» كما في العربية، ومنه أيضاً
«أيس»، وكلها تشير إلى «شيء»
المعروفة في العربية.

و «أيت» تعني الشيء والوجود
والكينونة، ومن هنا كان من الحسن أن
ننظر إلى «لات» التي قد تكون «لا
أيت» أي لا شيء، ثم رُكبت على
طريقة النحت فصارت «لات» الناقية.

وقد أشرنا في غير هذا المختصر إلى
مادة «أيس» وإنها «لا أيس» في
الأصل، ضد الوجود وهو المدم.

ومن هنا كان «أيس» هو مادة
«إنسان» كما في قولهم «إنسان» ثم إذا
عرفنا أن «أيش» هو الرجل في العبرانية
أدركنا القيم التاريخية لهذه الأصول
العتيقة.

و(الربّي): المنظر والهيئة، وهو على
وزن «فعل» بمعنى مفعول نظير «ذبح»،
أي مذبح أو كما أشرنا إلى هذا البناء
الثلاثي في غير هذا المكان.

١٥ - وقال تعالى: ﴿لَوْ تَسَحَّحَ لَهُمْ
يُكْرًا﴾.

الرُّكْزُ: الصُّرُت الخفي.

وكانَ أصل المعنى في «الرُّكْز» هو
الخفاء، ومنه رُكَّز الرُّمَح إذا غُيِّب طرفه
في الأرض، والرُّكَّاز: المال المدفون.



سازمان اسناد و کتابخانه ملی
جمهوری اسلامی ایران

المعاني اللغوية في سورة «مريم» (*)

الحال^(١)، كأنه أمر في الكف من الكلام صوتاً.

وقال: ﴿يَأْتِي لَا سَبِيلَ الْكَافِرِينَ﴾ [الآية ٤٤] فإذا وقفت قلت: «يا آتة» وهي هاء زيدت، كنحو قولك «يا آتة» ثم تقول «يا لَمْ» إذا وصلت، ولكنه لما كان «الْأَب» على حرفين كان كأنه قد أدخل به، فصارت الهاء لازمة وصارت الياء كأنها بعدها، فلذلك قيل «يَا أَبِ الْقَبْلِ» وجعلت التاء للتأنيث. ويجوز الترخيم لأنه يجوز أن تدعو ما تضيف إلى نفسك في المعنى

قال تعالى: ﴿وَكُرِّهَتْ رَبَّكَ حَبَدُكَ﴾ [سورة ١٠٠] أي: «بِمَا تَقْرَأُ عَلَيْكَ ذِكْرُ وَحْمَةِ رَبِّكَ»^(٢) فانتصب العبد بالرحمة. وقد يقول الرجل «هذا ذِكْرُ ضَرْبٍ زَيْدٍ عَفْرَاءً»^(٣).

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ [سورة ١٠١] يجعله من الإحفاء.

وقال: ﴿سَكَبَ﴾ [الآية ١٤] لأنه مصدر في المعنى ناب عن فعله^(٤). وليس هو مثل «امتلات ماء» لأن ذلك ليس بمصدر.

وقوله تعالى: ﴿سَوَّيَّا﴾ [سورة ١٠٢] على

(١) انظر هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورود، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ

(٢) نقله في المشكل ٤٩/٢، والجامع ٧٥/١١.

(٣) نقله في إعراب القرآن ٦٦٤/٢، ونقله في الجامع ٧٥/١١.

(٤) نقله في الصحاح «ثبته»، وإعراب القرآن ٦٦٤/٢، والجامع ٧٧/١١.

(٥) نقله في إعراب القرآن ٦٦٧/٢.

مضموماً، نحو قول العرب «يَا رَبِّ اغْصِرْ لِي» وتغف في القرآن ﴿يَتَجَبَّرُ﴾ للكتاب وقد يقف بعض العرب على هاء التأنيث^(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ أَشْيَ بَرِيًّا﴾ نحو قولك «ملحفة جديدة»^(٢).

وقال تعالى: ﴿لَسَانَ صِتْقٍ﴾ الآية ٥٠ نحو قولهم: «لساناً غير لسانكم» أي: لساناً غير لغيتكم. وإن شئت جعلت اللسان مقالهم كما تقول «فلان لساناً».

وقال تعالى ﴿إِلَّا سَلَمًا﴾ الآية ٦٢ فهذا كاستثناء الذي ليس من أول الكلام^(٣). وهذا على البدل، إن شئت كانه «لا يَنْقُصُونَ فِيهَا إِلَّا سَلَامًا».

وقال تعالى: ﴿وَرِيًّا﴾ فالرثي

من الرزية، وفستوه من المنطر، فذاك يدل على أنه من «رأيت».

وقال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ أَيْدِيًا وَمَا خَلَقْنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ الآية ٦٤ أي، والله أعلم، «مَا بَيْنَ أَيْدِيَا» قبل أن تُخْلَقَ «وَمَا خَلَقْنَا» بعد الغناء «وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ» حين كنا^(٤).

وفي قوله تعالى: ﴿وَعُرَيْنَا إِلَيْكَ بِمَنْجِ الْأَنْفَقِ﴾ الآية ٢٥ زيدت الباء، وهي تزداد في كثير من الكلام، نحو قوله سبحانه: ﴿تَنْبُتُ وَالْأَنْفَقُ﴾ (المؤمنون/ ٢٠) أي: تَنْبُتُ الدُّهْنُ.

وقال الشاعر^(٥) «من الطويل وهو الشاهد السادس والأربعون بعد الممتين»:

بِرَادٍ يُعَانِي بِنَبْثِ السُّنَرِ صَدْرُهُ

وَأَسْفَلُهُ بِالْمَرْخِ وَالشُّبَّهَانِ^(٦)

(١) هي لغة قوم خيبر شرح المفصل ٨٩/٥، وقيل بل لغة نهمية. اللهجات العربية ٣٩٣ وما بعدها، والمصالح ٣٠٤/١. والمخصص ٧/٩، والفرقة ١٤٨/٢، واللسان: فيصحة وعيبه ٥٥٥.

(٢) قلته في التصحيح «ي»

(٣) قلته في إعراب القرآن ٦٢٧/٢

(٤) قلته في راء السور ٢٥٠/٥، والجملع ١٢٩/١١، والجم ٢٠٣/٦

(٥) هو امرؤ القيس الجمهرة ١٤٥/١ وقيل رجل من بني القيس الساسانية^(٦) وقيل يعني الأحرار، الجمهرة ١/ ٤٥

(٦) في أدب الكاتب ٤١٦، والجمهرة كما سبق ٤١١/٣، واللسان: فيصحة وعيبه ٤٨/٢ به «قشنة» بدل «السرة»، وفي الجمهرة كما سبق «وفي اللسان مادة قشنة فرفعها بدل «صفره».

يقول: «وَأَسْفَلُهُ يُثَبِّتُ الْمَرْخَ
وَالشَّيْبَانَ» ومثله: «زَوْجَتُكَ بَغْلَانَةٌ»
يريدون: «زَوْجَتُكُهَا» ويجوز أن يكون
على معنى «هَزَي رُطْبًا بِجَذْعِ النَّخْلَةِ».

وفي قوله تعالى: ﴿تَصَكَّدُ الْتَكَرُّكَ
يَتَكَّرَنَ يَتَكَّرُ﴾ [٢٩: ٦٩] فالمعنى يردن^(١)
لأنهن لا يكون منهون أن يتفطرن، ولا
يدنون من ذلك، ولكنهن هممن به
إعظاماً لقول المشركين: ولا يكون
على من هم بالشيء أن يدنو منه، ألا
تري أن رجلاً لو أراد أن يبال السماء لم
يدن من ذلك، وقد كانت منه إرادة.

وفي قوله تعالى: ﴿كَانَ الْإِزْمَاجُ
عَوِيًّا﴾ [٢٩: ٦٩] «العَصِي» العاصي، كما

تقول: «عَلِيم» و«عَالِم» و«عَرِيف»
و«عَارِف» قال الشاعر^(٢) [من الكامل]
وهو الشاهد السابع والأربعون بعد
المتين]:

أَزْكُلَمَا وَزَدَتْ عُكَاظَ فَيْسِلَةٍ
بَحَثُوا إِلَيَّ عَرِيفَهُمْ يُنَوِّسُ^(٣)
يقول: «عارفهم»

وقال تعالى: ﴿أَتَلَعَّ﴾ [الأنعام: ٧٨]
فهذه ألف الاستفهام، وزعت ألف
الوصل لتأ دخلت ألف الاستفهام.

وقال تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ عَقِيمَ
ضُئًا﴾ [٢٩: ٦٩] لأن «الضئ» يكون واحداً
ولجماعة، مثل «الزئد» و«الأرصاد»،
ويكون الزئد أيضاً اسماً للجماعة^(٤).

(١) نقله في البحر ٢١٨/٦.

(٢) هو طريف بن نعيم القسري: الكتاب وتعميل حسن اللعب ٢١٥/٢، والماخر ٢٥٨، والأصمعيات ١١٢٧،
والبيت أيضاً في التكميل ٦٦/٣.

(٣) في الأصمعيات: رسولهم بذلك عريتهم.

(٤) نقله في التهذيب ١١/٤٥٥ نسخة.



سازمان اسناد و کتابخانه ملی
جمهوری اسلامی ایران

لكل سؤال جواب في سورة «مريم» (*)

قلنا: المراد بقوله تعالى ﴿يَرْثِي﴾: أي يرثي العلم والنبوة، ويرث من آل يعقوب الملك، وقبل الأخلاق، فأجابه الله تعالى إلى ورثته العلم والنبوة والأخلاق، دون الملك، والمراد بقوله (ص) «لا نورث» المال، ويؤيده قوله (ص) «ما تركناه صدقة». ويعقوب هنا والد يوسف عليهما السلام، وقبل لا بل هو أخو زكريا، وقبل لا بل هو أخو عمران الذي هو أبو مريم.

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿يَرْثِي وَيَرْثِي مِنْ مَّالٍ يَتَّقُونَ﴾ بتعنية الفعل في الأول بنفسه والثاني بحرف الجر، وهو واحد؟

قلنا: يقال ورثه وورث منه، فجمع السياق بين اللمتين. وقبل «مِنْ» هنا

إن قيل: النداء هو الصوت والصياح، يقال ناداه نداء: أي صاح به، فليَمَ وُصِفَ النداء بكونه خَفِيًّا، كما جاء في الآية ٢٣

قلنا: النداء هنا عبارة عن الإهداء، وإنما أخفاه ليكون أقر له إلى الإخلاص، أو لتلا يلام على طلبه الولد بعد الشيخوخة، أو لتلا يعاديه بنو عمه، ويقولوا: كره أن نقوم مقامه بعده، فسأل ربه الولد لذلك.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿يَرْثِي وَيَرْثِي مِنْ مَّالٍ يَتَّقُونَ﴾ [٢٦]؟

والنبي لا يورث لقوله (ص): «نحن معاشر الأنبياء لا نورث». ما تركناه صدقة؟

(*) انظر هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبته» لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة قبايي الحلبي، القاهرة، غير مؤرخ.

للتعويض لا للتعمية، لأن آل يعقوب لم يكونوا كلهم أنبياء ولا علماء.

فإن قيل: كيف طلب الولد بقوله، كما ورد في التنزيل ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾. أي ولداً صالحاً، فلما بشره الله تعالى بقوله: ﴿بِزَكَرِيَّا﴾ إذا جِئْتَهُ (الآية ٧) استبعد ذلك وتعجب منه، وأنكره كما ذكر القرآن، بقوله: ﴿أَنْ يَكُونُ لِي عِلْمٌ﴾ (الآية ٨).

قلنا: لم يقل ذلك على طريق الإنكار والاستبعاد، بل ليجاب إلهاماً أجيب به عن طلبه الولد، وهو قوله تعالى: ﴿بِزَكَرِيَّا إِذَا جِئْتَهُ بِكَلِمَةٍ أَشَدُّ يَمِينًا﴾، فيزداد الموقنون إيقاناً ويرتدع المبطلون، وإلا فمعتقد زكيتها أولاً وأخيراً، كان على مناج واحد في أن الله تعالى عليمٌ عن الأسباب. الثاني: أنه قال ذلك تعجباً فرحاً وسروراً، لا تعجباً إنكاراً واستبعاداً. الثالث: قيل إنه قال ذلك استفهاماً عن الحالة التي يهبه الله تعالى فيها الولد: هل يهبه في حال الشيخوخة أم يرثه إلى حالة الشباب ثم يهبه، ولكن هذا الجواب لا يتناسب ما أجيب به زكريا (ع) بعد استفهامه.

فإن قيل: لم قيل: ﴿وَبَشِّرْهُ بِبَشَرٍ﴾ والآية العلامية، فعلام طلب العلامة على وجود الولد بعد ما بشره الله تعالى به؟ أكان هنئ شك بعد بشارة الله تعالى في وجوده حتى طلب العلامة؟

قلنا: إنما طلب العلامة على وجود الحمل ليلاد إلى الشكر ويتعجل السرور؛ فإن الحمل لا يظهر في أزل العلوق بل بعد مدة، فأراد معرفته أزل ما يوجد، فجعل الله آية وجود الحمل عجزه عن الكلام، وهو سوي الجوارح مأكبه كخرس ولا يتكلم.

فإن قيل: لم قالت مريم، كما ورد في التنزيل: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ فَاعِلًا﴾. وإنما يستعوذ من الفاسق لا من التقى.

قلنا: معناه إن كنت ممن يفتي الله ويخشاه فأنثى عتي بتعوذي به منك؛ فمعنى أعوذ أحصل على ثمرة التعوذ. وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه كان في زمانها رجل اسمه تقى، ولم يكن تقياً بل كان فاجراً، فظنته إناه فتعوذت منه؛ والقول الأول هو الذي عليه المحققون؛ وقيل هو على المبالغة، معناه: إني أعوذ منك إن

كنت نقيّاً؟ فكيف يكون حالّي في القرب منك إلى الله تعالى إذا لم تكن نقيّاً؟ قالوا: وبظير هذا ما جاء في الحيرة نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه معناه: أنه إذا كان بحال لو لم يخف الله تعالى لا يوجد منه عصيان، فكيف يكون حاله إذا خاف الله تعالى. وفي قراءة أبي رجاء وابن مسعود: «إلا أن تكون نقيّاً».

فلن قيل: اتفق العلماء على أن الوحي لم ينزل على امرأة ولم يرسل جبريل (ع) برسالة إلى امرأة قط، ولهذا قلوا في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسِلْ إِنْ شِئْتَ رُسُودًا أَنْ تُبَيِّنَ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقُوا﴾ [القصص/ ٧] أنه كان وحي إلهام، وقيل وحي منام، فلم قال تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رَسُولًا﴾ [الأنبياء/ ١٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّي﴾ [الأنبياء/ ١٩]؟

قلنا: لا نسلم أن الوحي لم ينزل على امرأة قط، فإن مقاتلاً قال في قوله تعالى ﴿وَأَرْسِلْ إِنْ شِئْتَ رُسُودًا أَنْ تُبَيِّنَ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقُوا﴾ [القصص/ ٧] أنه كان وحيّاً بواسطة جبريل (ع)، وإنما المتفق عليه بين العلماء أن جبريل (ع) لم ينزل بوحى الرسالة على امرأة لا بمطلق الوحي. وهنا لم ينزل على مريم بوحى

الرسالة بل بالبشارة بالولد، ولهذا جاء على صورة البشر ﴿فَتَنَزَّلَ لَهَا بِشَرَا سَوِيًّا﴾.

فلن قيل: ما وجه قراءة الجمهور: ﴿يَأْتِيَنَّكَ﴾ [الأنبياء/ ١٩] والواهب للولد الله تعالى لا جبريل (ع)؟

قلنا: قال ابن الأنباري: معناه إنما أنا رسول ربك، بقوله لك أرسلت رسولاً إليك لأهب لك، فيكون حكاية عن الله تعالى لا عن قول جبريل (ع)، فيكون فعل الهبة مسنداً إلى الله تعالى لا إليه. الثاني: أن معناه لاكون سبباً في هبة الولد بواسطة النفخ في الدرع، فالإضافة إليه بواسطة السببية.

فلن قيل: لم قالت كما ورد في القرآن: ﴿وَلَمْ يَأْتِ الْبَيِّنَاتِ﴾. ولم نقل بغيّة، مع أنه وصف مؤثّر؟

قلنا: قال ابن الأنباري: لما كان هذا الوصف غالباً على النساء، وقلما تقول العرب رجل بغي، لم يلحقوا به علامة التأنيث إجراء له مجرى حائض وعافر وقال الأزهرى: لا يقال رجل بغي، بل هو مختص بالمؤنث، ولأم الكلم ياء، يقال بنت بغي، وهو فعول عند الميزد أصلها بغيوي، قلبت الواو ياء وأدغمت، وكسرت الغين إنشباعاً، فهو

كصبور وشكور في عدم دخول التاء؛ وقال ابن جني في كتابه التمام: هي فعيل، ولو كان معمولاً ل قيل بفعل، كما قيل هو نهو عن المنكر، ثم قيل هي فعيل بمعنى فاعل، فهي كقوله تعالى ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ كَرِيمٌ﴾ [التغوين: ١٠١] [لا امرئ] وقال الأحفش: هي مثل ملحفة جديدة، فجعلها بمعنى مفعول. وقيل إنما لم يُقْلَ بغية مراعاة لبقية رؤوس الآيات.

فإن قيل: ما كان حزن مرهم في قوله تعالى: ﴿يَكْنِيهِ مِثْلَ قِلْدٍ مِّنَّا وَكَفَّ كَسَا تَسِيًّا﴾ [التيس: ٣٠] أليست الطعام والشراب حتى تسلت بالشرابي والرطب، أم كان لخوف أن يتهمها قومها بفعل الفاحشة؟

قلنا: كان حزنها لمجموع الأمرين، وهو ما ذكرتم، وجذب مكانها الذي ولدت فيه، فإنه لم يكن فيه طعام ولا شراب ولا ماء تتطهر به؛ وكان لإجراء النهر في المكان اليابس الذي لم يمهّد فيه ماء، وإخراج الرطب من الشجرة اليابسة دافع لجهتي الحزن. أما دفع الجذب فظاهر، ولما دفع حزن التهمة، فمن حيث أنهما معجرتان تدلان قومها على عصمتها وبرائتها من سوء، وأن

الله تعالى قد خصّها بأمر إلهية خارجة عن العادة، خارقة لها؛ فتبين لهم أن ولادتها من غير فعل ليس بيدع من شأنها، ولا بعيد في قدرة الله تعالى، المخرج في لحظة واحدة، الرطب المجني من النخلة اليابسة، والمجبري للماء بجنة، في مكان لم يمهّد فيه.

فإن قيل: لم أمرها جبريل (ع) إذا رأت إنساناً أن تكلمه بعد النذر بالسكوت، في قوله تعالى: ﴿فَمَا تَوَدَّ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ لِّلَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ [النور: ٢٤]؟ قلنا: لأن أكلهم خلق في النذر؟

قلنا: إنما أمرها بذلك لأنه تمام نذرها، فإنها لم تكن مأمورة بنذر مطلق السكوت حتى يتلذّج فيه الكف من الذكر والتسبيح والدهاء ونحوها، بل بنذر السكوت عن تكليم الإنس، وإذا كان تمام نذرها كما ورد في قوله تعالى: ﴿مَنْ أَكْفَرُ مِنَ الْيَوْمِ إِسِيًّا﴾ [التيس: ٣٠] لا تكون مكلمة لإسي بعد تمام النذر.

فإن قيل: لم قال تعالى ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالُوا كَيْفَ تُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي النَّهْرِ تَسِيًّا﴾ [التيس: ٣٠] وكل أحد كان في النهدي صيباً؟

قلنا: كان هنا زائدة، وصيباً منصوب

على الحال لا على أنه خبر كان،
تقديره: كيف نكلم من في المهد في
حال صباه. وقيل كان بمعنى وقع
ووجد، وصبيّاً منصوب على الوجه
الذي مرّ.

إن قيل، خطاب التكليف في جميع
الشرائع إنما يكون بعد البلوغ أو بعد
التمييز والقدرة على فعل المأمور به،
وعيسى عليه السلام كان رضيعاً في
المهد، فكيف خطب بالصلوة
والزكاة، في قوله تعالى: ﴿وَأَوْصِي
بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتَ حَيًّا﴾.

قلنا: تأخير الخطاب إلى غاية البلوغ
وغيرها، إنما كان ليحصل للعقل
والتمييز، وعيسى (ع) كان واحد العقل
والتمييز التام في تلك الحالة، فتوجه
نحوه الخطاب أن يفعلهما إذا قدر على
ذلك، ولهذا قيل إنه أعطي النبوة في
صباه أيضاً.

إن قيل الزكاة إنما تجب على
الأغنياء، وعيسى عليه السلام لم يزل
فقيراً لا يلبس كساء مدة مقامه في
الأرض، وعلم الله تعالى ذلك من
حائه، فلم أوصاه بالزكاة؟

قلنا: المراد بالزكاة هنا تركية النفس
وتطهيرها من المحاصي، لا زكاة
المال.

إن قيل: لم جاء السلام في قصة
يحيى عليه السلام منكراً، وفي قصة
عيسى عليه السلام معروفاً؟

قلنا: قد قيل إن النكرة والمعرفة في
مثل هذا سواء لا فرق، بينهما في
المعنى. الثاني: أنه سبق ذكره في قصة
يحيى عليه السلام مرة، فلما أعيد ذكره
أعيد معرفة، كقوله تعالى ﴿كَأَنَّمَا أُنْزِلَتْ
إِلَى رَسُولِهِ رُسُلًا ۝ فَصَبَّحَهُ فَتَوَاتَّ الرُّسُلُ﴾
الهمز! كأن ذلك السلام الموجه إلى
يحيى عليه السلام، في المواطن
الثلاثة، موجه إلى عيسى عليه الصلاة
والسلام.

إن قيل: كيف تكون الألف واللام
في السلام للعهد، والأول سلام من الله
تعالى على يحيى (ع)، والثاني سلام
من عيسى على نفسه؟

قلنا التعريف راجع إلى ماهية السلام
ومواطنه، لا إلى كونه وارداً من عند
الله تعالى.

إن قيل: ما معنى قوله تعالى ﴿وَأَذْكُرْ

فِي الْكِتَابِ ﴿٤١﴾ [الآية ٤١] وما أشبهه. ومثل هذا، إنما يستعمل إذا كان الأمور مختاراً في الذكر وعلمه؛ كما تقول لصاحبك وهو يكتب كتاباً: اذكرني في الكتاب، أو اذكر فلاناً في الكتاب؛ والسبب (ص) ما كان على سبيل من الريادة والنقصان في الكتابة، ليوصى بمثل ذلك؟

قلنا: هذا على طريق التأكيد في الأمر بالإبلاغ، كتأكيد الملك على رسوله بإعادة بعض فصول الرسالة وتخصيصها بالأمر بالإبلاغ.

فإن قيل: الاستغفار للكافر لا يجوز، فلم يعد إبراهيم أباه بالاستغفار له، في قوله تعالى: ﴿سَأَسْتَغْفِرَ لَكَ رَبِّي﴾ [الآية ٤٧] مع أنه كافر؟

قلنا معناه: سأسأل الله تعالى لك توبة تنال بها مغفرته، يعني الإسلام؛ والاستغفار للكافر بهذا الطريق جائز، وهو أن يقال: اللهم وفقه للإسلام، أو: اللهم ثب عليه وأغويه وأزينه، وما أشبه ذلك. الثاني: أنه وعده ذلك، بناء على أنه مسلم فيستغفر له بعد الإسلام. الثالث: أنه وعده ذلك قبل

تحريم الاستغفار للكافر؛ فإن تحريم ذلك قضية شرعية، إنما تعرف بالسمع، لا عقلية، فإن العقل لا يمنع ذلك.

فإن قيل: الطور، وهو الجبل ليس له يمين ولا شمال، فلم قال تعالى: ﴿يَمِينُ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [الآية ٥٢].

قلنا: خاطب الله تعالى العرب، بما هو معروف في استعمالهم، فزعم يقولون عن يمين القبلة وشمالها، يحنون مايلي يمين المستقبل لها وشمالها، لأن القبلة لا يَد لها لتكون لها يمين وشمال. وهذا اتساع منهم في الكلام لعدم التمسك، فالمراد بالأيمن هنا، ما عن يمين موسى (ع) من الطور. لأن النداء جاءه من قبلي يمينه، هذا إن كان الأيمن ضد الأيسر من اليمين. وإن كان من اليمين، وهو البركة، من قولهم: يَمَنَ فلان قومه فهو يامن: أي كان مباركا عليهم، فلا إشكال، لأنه يصير معناه: من جانب الطور المبارك.

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لَّكَ مِنْ رَبِّكَ لِمَا هُوَ عَنِكَ﴾ وهارون كان أكبر من موسى (ع) فما معنى هـ له؟

فلما: معناه أن الله سبحانه أتمم على موسى عليه الصلاة والسلام، بإجابة دعوته فيه، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَنصَلَ إِلَيْهِ بِرُوحِ رَبِّهِ مِنَ الْبَيْتِ ۖ فَكَانَ الْحَوَابُ: ﴿سَمِعْتُ عَبْدَكَ بِأَمْرِكَ﴾ (القصص/ ٢٥) فالمراد إذاً، بالهبة أنه سبحانه جعله عضداً له وناصراً ومعيناً، كما فسره ابن عباس رضي الله عنهما.

فإن قيل: لم وصف الله تعالى النبيين المذكورين في قوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن قَبْلِكَ﴾ الآية ٥٨ بقوله تعالى ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يُحِبُّونَ مَا كَانُوا يَدْعُونَ﴾ الآية ٥٩؟

فلما آيات الرحمن غير مخصوصة
بالقرآن، بل كل كتاب أنزله الله تعالى
ففيه آياته ٤ ولو سلمنا أن المراد بها
القرآن، فنقول: إن المراد بقوله تعالى:
﴿وَمِنْ هَدْيَا وَتَنْبِيْهِ﴾ (الأنعام: ٥٨)
محمد (ص) وأئمة.

فَإِنْ قِيلَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ تَخْرُجُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ ۖ فَكَيْفَ خَرَجَ مِنْهَا مَنْ خَرَجَ مِنْهَا بِغَيْرِ حَتَّىٰ؟

قَسَوْا بِقُرْبَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ كَانَتْ وَهْمًا ﴿١٠٠﴾
يدل على أن ترك الصلاة وإضاعته كفر، والإيمان شرط في توبة مضجعه؟
قلنا: قال ابن عباس رضي الله
عنهما: المراد بهؤلاء الخلف هنا
اليهود تركوا الصلاة المفروضة،
وشربوا الخمر، واستحلوا نكاح الأخت
من الأب.

فان قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ عَلَيْهِ أَشِدَّاءُ لُغْوِيكُمْ﴾ ولم يقل آتِيَاءٌ، كما قال جلَّ شأنه ﴿إِنَّكُمْ كَانْتُمْ عَلَيْهِ أَشِدَّاءُ لُغْوِيكُمْ﴾ (الأنعام/ ١٣٤).

قلنا المراد بوعده تعالى، هنا، بوعده وهو الجنة، وهي مأتية بأثنيها أولياؤه. الثاني: أن مقولاً هنا بمعنى فاعل، كما في قوله تعالى: ﴿يَهْبِطُ سَاطِرًا﴾ [الأنعام: ١١٠].

فإن قيل: قوله تعالى ﴿يُنْفَخُ كُفُّهُ أَيْ قُوَّتُهُ مِنْ جِهَتِكَ مَا كَانَ يَتَّكِبُ﴾، وقوله تعالى ﴿وَجَعَلُوا عَمَلُهُمُ التَّكْوِينُ وَالْأَرْضُ أَوْدَتْ قَتْلَهُمْ﴾ (المراد: يدلان من حيث المفهوم، على أن غير المتقين لا يدخلون الجنة؟

قلنا: المراد بالتقوى هنا التقوى من:

لأنَّ الحصر لا يكون إلا بعد معرفة
العدد؟

قلنا: الإحصاء قد جاء بمعنى العلم
أيضاً، ومنه قوله تعالى ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكَ
شَيْءٌ عَدًّا﴾ [الجر] أي علم عدد كل
شيء؛ قال الشاعر:

وَكُنْ لِلَّذِي لَمْ تُحْصِهِ مُتَعَلِّمًا

وأما الذي أَخَصَّيْتَ مِنْهُ فَعَلَّمْ
وهو المراد هنا؛ فيصير المعنى لقد
علمهم، أي علم أفعالهم وأقوالهم،
وكل ما يتعلَّق بذواتهم وصفاتهم
وعندهم؛ فلا تكرار، ولا استثناء من
ذكر العدد.



مرکز تحقیقات کتاب و اسناد اسلامی

المعاني المجازية في سورة «صريم» (١٠)

قوله سبحانه: ﴿عَلَّ رَبِّي إِلَيَّ وَعَنَ النَّظْمُ إِلَيَّ وَأَشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [الآية ١١].

وهذه من الاستعارات المعجبية والمراد بذلك، التعبير عن تكاثر الشيب في الرأس حتى يظهر بياضه، ويفصل سواده.

وفي هذا الكلام دليل على سرعة تضاعف الشيب وتزايده وتلاحق مددّه، حتى يصير في الإسراع والانتشار كاشتعال النار، يُشجّر مطفيه، ويُغلب مثاليه.

وقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَهَا أَلْحَاشُ

إِنَّ يَنْجُ أَلْحَاشُ﴾ [الآية ١٢]. وهذه استعارة، والمعنى: فجاء بها المخاض، إلى جذع النخلة، لتجعله سناداً لها، أو عماداً لظهرها. وهي التي لجأت إلى النخلة؛ ولكن ضربت المخاض، لما كان سبباً لذلك، حُسن أن ينسب الفعل إليه في إلجائها، والمجيء بها.

وقوله سبحانه: ﴿وَوَجَّهْنَا لَمْ يَنْ رَحْمَتَنَا وَجَّهْنَا لَمْ يَسَنْ صِلَتِي عَلَيْكَ﴾.

وهذه استعارة، والمراد بذكر اللسان ههنا، والله أعلم، الثناء الجميل الباقي في أعقابهم، والخالف في آباؤهم^(١)، والحرب تقول: جاءني لسان فلان،

(١) انقضي هذا البحث من كتاب: التلخيص البيان في معجزات القرآن للشريف الرضي، تحقيق: محمد عبد الحميد حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) الباقي في آباؤهم

حيث ﴿٥٦﴾، بإضافة اللسان إلى أفضل حالاته، وأشرف منصرفاته؛ لأن أفضل أحوال اللسان أن يخبر صدقاً، أو يقول حقاً.

يريد مدحه أو ذمه. ولما كان مصدر المدح والذم عن اللسان، عبروا عنهما باسم اللسان.

وإنما قال سبحانه: ﴿لِسَانٌ

سورة طه





سازمان اسناد و کتابخانه ملی
جمهوری اسلامی ایران

أهداف سورة طه (*)

معنى طه

قبل معناها يا رجل، وقبل معناها يا إنسان، وقال آخرون هي اسم من أسمى الله تعالى وقد أسمى سبحانه به، وقال آخرون هي حروف مقطعة مكونة من الحاء والهاء يدل كل حرف منها على معنى. واختلعا في ذلك المعنى اختلافاً في التفسير. وقد ذكرنا ذلك في التعريف بسورة الأعراف، قال ابن جرير الطبري «والذي هو أولى بالصواب عندي من الأقوال فيه قول من قال: معناها: يا رجل، لأنها كلمة معروفة في عك، فيما بلغني، وأن معناها يا رجل».

«وقيل أصله طأها، على أنه أمر لرسول الله (ص) بأن يطأ الأرض

نزلت سورة طه بعد سورة مريم، ونزلت سورة مريم فيما بين الهجرة إلى الحبشة وحادثة الإسراء، فيكون نزول سورة طه في ذلك التاريخ أيضاً. أي بعد السنة السابعة من البعثة وقبل السنة الحادية عشرة من البعثة.

وفي المصاحف المطبوعة بالقاهرة، سورة طه مكتبة إلا الآيتين ١٣٠ و ١٣١، فهما مدينتان، وآياتها ١٣٥ آية نزلت بعد مريم.

وقال الفيروزآبادي «السورة مكتبة إجمالاً، وكلماتها ١٣٤١ كلمة، ولها اسمان «طه» لافتتاح السورة بها، و«سورة موسى» لاشتغالها على قصته مفضلة

(*) انتهى هذا المبحث من كتاب «أهداف كل سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ - ١٩٨٤

بقدميه، فإنه كان يقوم الليل، حتى ورمت قدماء من طول القيام. وقد أبدلت الألف من الهمزة، والهاء كناية عن الأرض.

والمعنى طأ الأرض بقدميك يا محمد، وهون على نفسك في القيام، وارأف بنفسك؛ ما أنزلنا عليك القرآن لنشقى به ثعباً، بل لتسعد به، وتذكر به الناس.

أهداف السورة

من أهداف سورة طه:

تيسير الأمر على رسول الله (ص) وبيان فضل الله الواسع على رسله وأصفيائه وبيان وظيفة الرسول وحصرها في الدعوة والتذكير والإنذار؛ ثم ترك أمر الخلق بعد ذلك إلى الله الواحد الذي لا إله غيره، المهيمن على ظواهر الكون وباطنه، الخبير بظواهر القلوب وخوافيها، الذي تحو له الجباه، ويرجع إليه الناس: طائعتهم وعاصيهم.

ثم تعرض السورة قصة موسى (ع) من حلقة الرسالة إلى حلقة اتخاذ بني إسرائيل للعجل بعد خروجهم من مصر

مفضلة معزولة، وبخاصة موقف المناجاة بين الله سبحانه وكليمه موسى، وموقف الجدل بين موسى وفرعون وموقف المباراة بين موسى والسحرة. وتتجلى في غضون القصة، رعاية الله لموسى، الذي صمعه على عينه واصطنعه لنفسه؛ وقال له ولأخيه:

﴿قَالَ لَا تَحْزَنْ إِنِّي مَعَكَا أَسْمَعُ وَأَنُفِّثُ﴾ (٣٠).

ثم تعرض السورة قصة آدم (ع) سريعة قصيرة؛ تبرز فيها رحمة الله لأدم بعلم خطيئته، وهدايته له، وترك البشر من أبنائه لما يختارون من هدى أو ضلال بعد التذكير والإنذار.

وتحيط بقصة آدم مشاهد القيامة، وإنما هي تكملة لما كان أول الأمر في الملا الأهل من خلق آدم؛ حيث يعود الطائعون من ذريته إلى الجنة، ويذهب العصاة من ذريته إلى النار، تصديقاً لما قبل لأبيهم آدم، وهو يهبط إلى الأرض بعد خروجه من الجنة.



ونلاحظ أن السياق يمضي في هذه السورة في شوطين اثنين:

﴿وَعَسَىٰ أَلْوَجُوهُ لَكُمْ أَتْيَبَرًا﴾ الآية
(١١١).

وليفاق السورة كلها يستطرد في مثل هذا الجو من مطلقها إلى ختامها، رَجِيًّا شَجِيًّا تَدِيًّا، بذلك المَدِّ الذاهب مع الألف المقصورة، في أواخر الفواصل كلها تقريباً.

قصة موسى (ع) في القرآن

بدأت سورة طه بمقدمة مؤثرة من القرآن، وعن صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى.

ثم قصَّ الله على رسوله حديث موسى في نموذجاً لرعايته للمختارين لحمل دعوته. وقصة موسى، هي أكثر القصص وروداً في القرآن. وهي تعرض في حلقات تناسب السورة التي تعرض فيها وجوهاً وظلها. وقد وردت حلقات منها حتى الآن في سورة البقرة، وسورة المائدة، وسورة الأعراف، وسورة يونس، وسورة الإسراء، وسورة الكهف، وذلك غير الإشارات إليها في سورٍ أخرى.

وما جاء منها في المائدة كان حلقة واحدة: حلقة وقوفه بني إسرائيل أمام

الشروط الأول: يتصتن مطلع السورة بالخطاب إلى الرسول (ص).

﴿طه﴾ مَا لَمْ نَكُنْ بِكَ الْقَرِينَا
يَتَشَكَّى إِلَّا تَحَكُّرًا لِّمَن يَتَشَكَّى ﴿١﴾.

ثم تتبعه قصة موسى نموذجاً كاملاً لرعاية الله سبحانه لمن يختارهم لإبلاغ دعوته، فلا يَشْكُرُونَ بها وهم في رعايته.

والشروط الثاني: يتصتن مشاهد القيامة، وقصة آدم، وهما يسيران في اتجاه مطلع السورة، وقصة موسى، ثم ختام السورة بما يشبه مطلعها، ويتناسق معه ومع جو السورة.

وللسورة ظل خاص، يعمِّر جُوهها كله. ظل علوي جليل تخشع له القلوب، وتسكن له النفوس، وتعتو له الجباه. إنه الظل الذي يخلعه تجلّي الرحمن على عبده موسى بالوادي المقدس، في تلك المناجاة الطويلة، والليل ساكن وموسى وحيد، والوجود كله يتجاوب بذلك التجاء الطويل. وهو الظل الذي يخلعه تجلّي القيوم في مرقب الحشر العظيم:

﴿وَحِصَّتِ الْأَنْفُسُ لِرَبِّهِنَّ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾.

الأرض المقدسة، لا يدخلون فيها لأن فيها قوماً جبارين.

وفي سورة الكهف كانت كذلك حلقة واحدة: حلقة لقاء موسى للعبد الصالح، وصحبته فترة. وقد سبق الحديث عنها في سورة الكهف، بعنوان قصة موسى والخضر.

فأما في «البقرة» و«الأعراف» و«يونس»، وفي هذه السورة، سورة طه، فقد وردت منها حلقات كثيرة، ولكن هذه الحلقات تختلف في سورة عنها في الأخرى. تختلف الحلقات المعروضة، كما يختلف الجانب الذي تعرض منه، تنسيقاً له مع اتجاه السورة التي يعرض فيها.

في «البقرة»، سبقتها قصة آدم (ع) وخلقه وتكريمه في الملا الأعلى. فجاءت قصة موسى وبني إسرائيل تذكيراً لبني إسرائيل بنعمة الله عليهم وعهده إليهم وإنجائهم من فرعون وملته، واستغاثهم وتغجير الينابيع لهم، وإطعامهم المن والسلوى. وذكرت عدوانهم في السبت، وقصة البقرة، وفي «الأعراف» سبقها الإنذار وعواقب المكذبين بالآيات قبل موسى عليه السلام، فجاءت قصة موسى

تعرض ابتداء من حلقة الرسالة، وتعرض فيها آيات العصا واليد والظوفان والجراد والقمل والضفادع، وتعرض حلقة السحرة بالتفصيل، وخاتمة فرعون وملته المكذبين؛ وفي يونس، سبقها عرض مصارع المكذبين؛ ثم عرض منها حلقات ثلاث:

حلقة الرسالة؛ وحلقة السحرة؛ وحلقة خرق فرعون.

أما هنا، في سورة طه، فقد كان مطلع السورة يشف عن رحمة الله وعنايته لمن يصطنعهم لحمل رسالته وتبليغ دعوته؛ فجاءت القصة مظللة بهذا الظل، تبدأ بمشهد المناجاة، وتضمن نماذج من رعاية الله لموسى في طفولته وشبابه ورجولته؛ وتثبيته وتأويله وحراسته وتمهده.

قصة موسى في سورة طه

ولد موسى في مصر، ولما وترعرع في بيت فرعون، ثم قتل رجلاً من طريق الخطأ، فخرج هارباً إلى أرض مدين وهناك تزوج بنت نبي الله شعيب (ع)، ومكث في أرض مدين عشر سنين، ثم عاد بأهله إلى مصر.

يُغْلِبُ نَوْرَ الشَّمْسِ، لَيْسَ فِيهَا نُهَاقٌ^(١)
أَوْ يَرَى^(٢) أَوْ مَرَضٌ؛ وَتَمَّتْ لِمُوسَى
مُعْجَزَتَانِ هُمَا الْيَدُ وَالْعَصَا، فَرَأَى آيَاتِ
اللَّهِ الْكُبْرَى. وَأَطْمَأَنَّ لِلنَّهْوَسِ بِالتَّيْبَعَةِ
الْعَظْمَى.

أَمَرَ اللَّهُ مُوسَى، أَنْ يَذْهَبَ إِلَى
فِرْعَوْنَ رَسُولًا وَدَاعِيًا إِلَى الْهُدَى،
وَيُبَشِّرَ بِالْجَنَّةِ، لِمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَبِالنَّارِ
لِمَنْ عَصَاهُ.

فَطَلَبَ مُوسَى مِنْ رَبِّهِ أَنْ يَشْرَحَ لَهُ
صُكْرَهُ، وَأَنْ يَبَشِّرَ لَهُ أَمْرَهُ، وَأَنْ يَحُلَّ
حُبْنَةً فِي لِسَانِهِ لِيَفْقَهُ النَّاسُ قَوْلَهُ، وَأَنْ
يَمُنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِمُعِينٍ مِنْ أَهْلِهِ، هُوَ أَخُوهُ
هَارُونَ.

وَاسْتَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَ مُوسَى وَحِبَاهِ
بِفَضْلِ زَائِدٍ، وَذَكَرَهُ بِأَفْضَالِهِ عَلَيْهِ صَغِيرًا
وَنَاشِئًا، حَيْثُ نَجَّاهُ عِنْدَمَا قُتِلَ قَتِيلًا
خَطَأً، وَأَلْقَى عَلَيْهِ الْمَحَبَّةَ، وَرَبَّاهُ
بِرَهَابَتِهِ، وَصَنَعَهُ بِعَيْنِ عَنَابَتِهِ. قَالَ
سُبْحَانَهُ:

﴿وَالَّذِينَ عَلَيْكَ حَبَّةٌ يَتَى وَلَوْصَعَ عَلَنَ
عَيْنِي﴾.

وَفِي الطَّرِيقِ أَدْرَكَتْهُ عَنَابَةُ اللَّهِ وَمِنْ اللَّهِ
عَلَيْهِ بِالرَّسَالَةِ وَالْعَنَابَةِ. وَنَادَاهُ:

﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاتَّخِذْ سَمْعَكَ لِقَائِكَ وَأَلْوَكَ
الْمُقَدَّسَ طَوْى^(١) وَإِنَّا أَسْرَعُكَ فَاسْتَوْعِ لَنَا
يَوْمَ^(٢)﴾.

وَهَذَا الْوَحْيُ بِمُتَعَلِّقٍ بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ
مُتَرَابِطَةٍ: الْإِعْتِقَادُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ؛ وَالتَّوَجُّهَ
بِالْعِبَادَةِ؛ وَالْإِيمَانُ بِالسَّاعَةِ؛ وَهِيَ أَسَسُ
رِسَالَةِ اللَّهِ الْوَاحِدَةِ. وَمِنْ نِدَاءِ اللَّهِ
لِمُوسَى:

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي
وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِزِكْرِي^(١) إِنَّ الْكَفَاةَ
عَلَيْهِ أَكَادُ أُعْيِيهَا لِتُزَيَّرَ كُلُّ نَفْسٍ يَمَّا
كُنْتُمْ^(٢)﴾.

وَلَخَسَ اللَّهُ مُوسَى بِمُعْجَزَاتِ ظَاهِرِهِ،
وَآيَاتِ بَاهِرَةِ. أَمَرَهُ أَنْ يَلْقَى هَمَّاهُ
فَالْقَاهَا، لِإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى؛ ثُمَّ نَمَتْ
وَعُظِّمَتْ حَتَّى غَدِثَتْ فِي جِلْدَةٍ
الشَّعْبَانَ، وَضَخَامَةِ الْجَانِّ. لِمَحَبَّتِهَا
مُوسَى، فَاشْتَدَّ خَوْفُهُ، فَنَادَاهُ اللَّهُ:

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْزَنْ سَوِّيلَهَا
يَسِيرُهَا الْأَوَّلَى^(١)﴾ ثُمَّ أَدْخَلَ مُوسَى
يَدَهُ تَحْتَ إِطْبَعِهِ، فَخَرَجَتْ بِيَضَاءٍ بِيَضَاءً

(١) الْهَيَّاقُ مَرَضٌ يَدْبَحُ بِلَوْنِ الْبَطَلِ، فَتُخَفُّ بِهِ بِلَوْنِ يَضَعُ يَدَهُ

(٢) الْبَرَسُ يَضَعُ يَدَهُ فِي الْجَنْدِ، لَمَّا

وهي إحابة تلحّص أكمل آثار
الأكوّهية الخالقة المبدّرة لهذا الوجود:
هبة الوجود لكل موجود، وهمة خلقه
على الصورة التي خلق بها، وهمة
هدايته للوظيفة التي خلق لها.

وثنى فرعون بسؤال آخر:

﴿عَالَمًا مَّا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ۖ﴾

ما شأن القرون التي مضت من
الناس؟ أين ذهبت؟ ومن كان ربّها؟
وما يكون شأنها؟ وقد هلك لا تعرف
إلهاها هنا؟

وأجاب موسى: إنّ علمها عند الله
الغنى لا تخفى عليه خافية، وقد سجل
عملها في كتاب، لا يفاخر صغيرة ولا
كبيرة إلا أحصاها.

وقد تفضل الله على الناس بالنعيم
المتعددة؛ فمهّد لهم الأرض، وذلل
سبلها، وأنزل السماء من السماء،
فأجرى به نهر النيل وغيره من الأنهار،
ليخرج الماء أزواجاً متعدّدة من
النباتات، يستفيد منها الإنسان
والحيوان.

وقد خلّق الانسان من الأرض، ثم
رَزَق من نباتها ومائها، ثم يعود إليها،
ثم يبعث منها يوم القيامة.

وكانت عناية الله معه في شبابه حين
نجاه من كيد أتباع فرعون، وكانت
عناية الله معه في رحلته إلى أرض
مَدْيَن، ثم في هودته إلى أرض مصر،
على موعد وتنبير إلهي. قال تعالى:

﴿وَقُلْتُ نَسًا فَنَجَيْتَكَ مِنَ الْعَمْرِ وَقَتَّكَ
قُرْبًا بَلَيْتَ مِيرِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ
عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْؤُونَ ﴿١٧١﴾ وَاسْمَعْتَكَ
إِنِّي ۖ﴾

وكلف الله موسى أن يذهب مع أخيه
هارون إلى فرعون، بعد أن طغى
فرعون وتجبّر، ليقولا له قولاً ليتأبلا
بهتيج الكبرياء الزائف ولا يثير العزة
بالإثم؛ لعل قلبه، أن ينعظ أو يتفكر.

أدلة موسى (ع) على

وجود الله تعالى

توجه موسى وهارون إلى فرعون
ليبلغاه رسالة الله رب العالمين، فقال
فرعون، كما ورد في التنزيل:
﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمْؤُونَ ۖ﴾

فأجاب موسى، كما ورد في التنزيل
أيضاً:

﴿رَبُّكَ الَّذِي عَلَّمَ كُلَّ شَيْءٍ حَقَّهُ ثُمَّ
هَدَىٰ ۖ﴾

عرض موسى هذه الآيات الكونية أمام فرعون، وأراه المعجزات الظاهرة الملموسة، من اليد والعصا.

ولكن فرعون قابل هذه المعجزات الواضحة، والحجج البالغة، بالجهود والكُنُود^(١) وأخذ فرعون يكبل التهم لموسى، ويسفه دعوته، ويصفه بالطمع في الملك، ويصف معجزاته بأنها سحر ظاهر مبین.

موسى والسحرة

توعد فرعون موسى بأن يجمع له السحرة من كل مكان، ليبطلوا سحره ويظهروا عجزه. وقيل موسى التحقّق، وحذد يوم العيد واجتماع الناس في زينتها الجديدة موعداً للمبارزة، حتى يشيع الحق ويظهر ظهور الشمس.

وجميع السحرة في يوم العيد، ولم يتخلّف واحد منهم؛ فإذا بهم آلاف، مع كل واحد منهم حبل وعصا، وحيزوا موسى. ﴿قَالُوا يَسْرِى إِتَا أَن تَكْفَى وَلَئِنَّا لَكُونُ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾.

فترك لهم موسى فرصة البهت، واستقى لفسه الكلمة الأخيرة.

(١) الكُنُود: كبر التهمة وجعلها.

فتقدّم السحرة وألقوا ما في أيديهم من حبال فتحرّكت الحبال وماجت بها الساحة، وسخرت عيون المشاهدين، وملأتهم بالرهبة والإجلال لهذا العمل العظيم.

وخشي موسى أن يُخدع الناس عن الحق، وأدركه خوف الناحية على دعوته، فذكّره الله سبحانه، بأنه معه، وبأنه على الحق وعدّه على الباطل، وبأنه رسول مؤيد بالمعجزة؛ وعدّه ساحر، مضلل مخادع:

﴿قُلْنَا لَا تَقْتِ إِلَٰهَكَ أَنَّ الْأَعْيُنَ ۖ وَالَّذِي مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّ مَا صَعَّرَ إِلَٰهًا صَعَّرَ كَيْدَ سَاحِرٍ وَلَا يُلَٰغِ الْكَتَائِرُ حَيْثُ لَنَ ۖ﴾.

وألقي موسى عصاه، فابتلعت أعمال السحرة في سرعة مذهلة، وأدرك السحرة أنّ حمل موسى ليس سحراً، ولكنه معجزة وبرهان من الله على صدق رسالته؛ فإذا بهم يهزؤون لله ساجدين توبة عما صنعوا، وخشوعاً لهيبة الحق، وإكباراً لذلك الأمر الحطير، وإيماناً بالله ربّ العالمين.

وعندئذ غلبت مراحل الحقد

والحفيظة في صدر فرعون، ولا م
السحرة على إيمانهم بموسى، قبل أن
يأذن لهم.

وقال: إنه أستاذكم وكبيركم الذي
علمكم السحر، فاتفقتم معه على
فعلكم ومزمتكم:

﴿فَلَا تَلْمِزْ لَهُمْ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ حَافِظٌ
وَلَا نَصِيرٌ فِي شَيْءٍ آتَيْنَا لَكَ الْبَيِّنَاتُ
أَنْتَ عَلَيَّكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾.

ولكن ذلك جاء بعد فوات الأوان.
بعد أن تخلل صدورهم نور الإيمان،
فوصلهم بخالقهم فزهدوا في مَرَضِ
الدنيا وسلطانها، وتطلعت قلوبهم إلى
مَرَضَةِ الله، وفضلوا ثواب الإخرة على
كل ما عداه:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا إِنَّمَا نَحْنُ
أَكْرَفَتْنَا عَلَيْهِ مِنْ الْخَيْرِ وَأَلْفَهُ سِرٌّ
وَأَمَّا﴾.

غرق فرعون ونجاة موسى

استمر موسى في أداء رسالته وقيامه
بواجب دعوته، وقد اشتد إيذاه فرعون
وأتباعه للمؤمنين، فاستغاثوا بموسى،
فخرج موسى بهم ليلاً إلى الأرض
المقدسة، وقد سهل الله إليها طريقهم،

واعترض البحر مسيلهم، فاستغاثوا
بموسى قائلين: البحر أماننا وفرعون
ورامنا. فأوحى الله إلى موسى أن
أضرب بعصاك البحر، فضربه بعصاه،
فتولت قدرة الله أن تيسر لهم في البحر
اثني عشر طريقاً يابساً ممهداً للسير،
فسار كل فريق في طريق، وحفظتهم
عناية الله من فرعون، وحينما حاول
فرعون اللحاق بهم، أطبق عليه وعلى
جنوده مياه البحر، وأدركهم الغرق
والهلاك. ونجى الله المؤمنين، وأذل
الكافرين. وجعل من ذلك عظة وعبرة
لمن اعتبر، فمن آمن بالله وجاهد في
سبيله كان في كف الله ورعايته، ومن
كفر بأيات الله وخرج عن طريق هدايته
أهداه الله العذاب والنكال. ونظر بنو
إسرائيل في دحشة إلى مصرع الجبابرة
المتعاق، ثم نجى الله فرعون ببشرته،
ليكون آية لمن خلفه، ودليلاً على أن
الله يملئ للظالم، حتى إذا أخذه لم
يفتنه.

موسى والسامري

ترك موسى قومه وذهب لبعثاد ربه
عجلاً مشتاقاً لما جاته، وانتهر السامري
الفرصة، فصنع لبني إسرائيل عجلاً من

الذهب، بطريفة فنية، تجعل الريح تمر فيه، فتحدث صوتاً وحُوراً.

وقال لهم: إن موسى لن يعود إليكم. لقد ذهب لمقابلة ربّه فضل الطريق إليه، وهذا هو إلهكم وإله موسى.

وفُتِنَ بنو إسرائيل بعبادة العجل، فقد أَلْفُوا الذِّلَّ وطاعة فرعون.

وعاد موسى غضباناً أبيضاً يلوم هارون على تباطئه من إخماد هذه الفتنة، فاعتذر له بأنه صبر حتى يعود، فيلتنم الشمل وتعود الوحدة إلى الجماعة.

وتوحد موسى السامري بالعذاب والشكّال، وأمر بطرده من محلة بني إسرائيل. فخرج طريداً هو وأهله إلى البراري، ثم أتى موسى بالعجل فحرقه بالنار، وسف رماده في اليوم، ليبين لغومه أن مثل هذا لا يصح أن يتخذ إلهاً:

﴿أَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُجْعِلُونَ أَثَافِيلًا لِلَّهِ وَقَدْ قِيلَ لَهُمْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَاطِلٌ فِي الْبَصَرِ ۚ﴾

مشاهد القيامة وختام السورة

بدأت سورة طه بمقدمة في بيان

جلال الله وقدرته وعلمه الواسع في الآيات ١ - ٨.

ثم تحدّثت عن رسالة موسى وجهاده في مصر، وجهوده مع بني إسرائيل في الآيات ٩ - ٩٨.

ويعد قصة موسى تجيء الآيات ٩٩ - ١١٤ تعقيباً على هذه القصة ببيان فضل القرآن، وعاقبة من يُغْرِض عنه وترسم الآيات هذه العاقبة في مشهد من مشاهد القيامة، تتضاد فيه أيام الحياة الدنيا، وتتكشف الأرض من جبالها وتغري، وتخشع الأصوات للرحمن، وتمنوا الوجوه للنعيم القيوم؛ لعلّ هذا المشهد وما في القرآن من وعيد يثير مشاعر التقوى في النفوس، ويذكرها بالله ويصلها به. وينتهي هذا المقطع، بإراحة بال الرسول (ص) من الفلق من ناحية القرآن الذي ينزل عليه، فلا يعجل في ترديده خوف أن ينساه، ولا يشقى بذلك فاه ميسره وحافظه، وإنما يطلب من ربه أن يزيده علماً.

وفي مناسبة حرص الرسول (ص) على أن يردّد ما يوحى إليه قبل انتهاء الوحي خشية النسيان، تعرض الآيات ١١٥ - ١٢٢ نسيان آدم لعهد الله وتنتهي بإعلان العداوة بينه وبين

إيليس، وعاقبة من يتذكرون عهد الله ومن يعرضون عنه من ولد آدم. وترسم الآيات هذه العاقبة في مشهد من مشاهد القيامة، كأنما هو نهاية الرحلة التي بدأت في الملأ الأعلى، ثم تنتهي إلى هناك مرة أخرى... وفي ختام السورة تسليية للرسول (ص) من إعراض المعرضين وتكذيب المكذبين فلا يشقى بهم، فلهم أجل معلوم. ولا يخجل بما أوتوه من منافع في الحياة الدنيا فهو فتنه لهم، وينصرف إلى عبادة الله وذكره فترضى نفسه وتطمئن، ولقد هلكت القرون من قبلهم، وشاء الله سبحانه أن يغليز إليهم بالرسول الأخير، ليعلن إليهم: ﴿ذَكَرْنَا أَعْلَقْتَهُمْ بِمَذَاقٍ مِنْ قَبْلِهِ فَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ ﴿١٠٠﴾ قل سَكَلَتْ فَرَصَاتُ فَرَصَاتٍ فَسَتَمَلُوكَ مِنْ أَدْنَى الْأَنْبُوتِ وَمِنْ أَمْتَانِ ﴿١٠١﴾



وبذلك تختم السورة التي حددت وظيفه القرآن في بدايتها:

﴿إِلَّا نَحْكُمُكُمْ إِلَّا بِالْقُرْآنِ﴾ ﴿١٠٢﴾

وأكدت هذه الوظيفة في نهايتها، فهي التذكير الأخيرة لمن تنفعه التذكير؛ وليس بعد البلاغ إلا انتظار العاقبة، والعاقبة بيد الله.

وقد كانت قصة موسى ونهاية فرعون، خلال السورة، تحقيقاً لهذا المعنى وتأكيذاً لفوز المؤمنين ومصرع المكذبين؛ وبذلك يتناسق المطلع والختام، وتكون السورة أنسب بموضوع، له مقدمة، ثم قصة تؤيد المقدمة، ثم خاتمة تؤكد الموضوع. وظهر أن بين أجزاء السورة وحدة فكرية خلاصتها:

شمول فضل الله ورحمته وعطفه، لأحبابه المؤمنين، وإيقاع نقمته وعذابه بالكافرين والمكذبين.

ترابط الآيات في سورة طه (*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة طه بعد سورة مريم، ونزلت سورة مريم فيما بين الهجرة إلى الحبشة وحادثة الإسراء فيكون نزول سورة طه في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سُميت هذه السورة بهذا الاسم لابتدائها به، وتبلغ آياتها خمساً وثلاثين ومائة آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة، حث النبي (ص) على الصبر على ما يلقاه من إغراء قوم من دعوته؛ ولهذا افتتحت بأنه لم ينزل عليه القرآن ليشقى إذا لم يؤمنوا به، لأنه ليس عليه إلا أن

يذكر به من يخشى، فإذا لم يؤمنوا به فلا شيء عليه من عدم إيمانهم؛ ثم قص عليه بعد هذا قصة موسى من أولها إلى آخرها، ليتأسى بما كان من ثباته أمام فرعون، ومن صبره على عناد بني إسرائيل؛ ثم قص عليه بعدها قصة آدم، ليحذر من وقوع فيه بسبب التمجّل وعدم الصبر على الابتلاء والاختبار؛ ثم ختمت السورة بحث النبي (ص) على الصبر كما افتتحت به.

وقد ذكرت هذه السورة بعد سورة مريم، لأنها تشبهها في غلبة الأسلوب القصصي عليها. فهي نمد من هذه الناحية كأنها تكميل لها وللسورة الكهف، وتقرير لما ورد في آخر سورة

(*) انتهى هذا المبحث من كتاب «النظم الذي في المراكب» للشيخ عبد الشعال الصبيدي، مكتبة الأنطاب بالجمهورية العربية السورية، مكتبة الجعينة، القاهرة، غير مؤرخ.

الكهف، من أن كلمات الله في ذلك لا تقاد لها.

الحث على الصبر

[الآيات ١ - ٨]

قال الله تعالى: ﴿طه﴾ مَا تَرَىٰ
مَلَيْكَ الْقُرْآنَ يَتَفَتَّحُ ﴿١﴾ فذكر سبحانه
أنه لم ينزل عليه القرآن ليشفى إذا
كفروا به أسفاً على كفرهم، لأنه لم
ينزل عليه إلا ليدكر به من يخشى
عقابه، فهو الذي يرجى إيمانه به؛ ثم
نوة بشأن هذا القرآن الذي يُغرضون
عنه، فذكر أنه تنزيل من عند خلق
السموات والأرض، إلى غير هذا من
صفات العظمة التي ذكرها في حتمها
تعالى بقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ
الْأَسْمَاءُ كُلُّهَا﴾.

قصة موسى

[الآيات ٩ - ١١٤]

ثم قال تعالى ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ
مُوسَى﴾ فذكر قصة موسى حين
رجع من مدين إلى مصر، وأنه رأى
باراً فذهب إليها، وهناك ناداه ربه أنه
اختاره لرسالته، وأنه أعطاه آيتين: آية
عصاه يلقاها فتكون حية تسعى، وآية

يده يصمها إلى جناحه فتخرج بيضاء
من غير سوء. ثم أمره أن يذهب إلى
فرعون، لأنه طغى وادعى الألوهية
فقبل الرسالة، ودعا الله أن يشرح له
صدره حتى لا يضيق بما يلاقه في
تلك الدعوة، وأن يُشرك معه أخاه
هَارُونَ، فأجابه سبحانه إلى طلبه؛ ثم
أمرهما أن يذهب إلى فرعون، وأن
يقولا له قولاً لئناً، لعله يتذكر أو
يخشى. فلما أتياه، قال له إنا رسولا
ربك إليك، وطلبنا منه أن يرسل معنا
بني إسرائيل، ويكف عن عذابهم،
وأخبراه بأنهما قد جاءه بآية من ربه،
تدل على صدقهما. ثم ذكر سبحانه أن
فرعون سأل موسى عن ربه، فأجابه
بأنه جل جلاله هو الذي أعطى كل
شيء خلقه ثم هدى، وأنه سأل عن
حال القرون الأولى كيف يحيط بها
علمه مع تمادي كثرتها، فأجابه بأن كل
ما سلف مُلئت عنده في كتاب فلا يفل
عه ولا يشاء. ثم ذكر تعالى أن موسى
أرى فرعون الآيتين السافيتين فكذب
وأبى، وزعم أنهما يخترن بره موسى
أن يُخرج به فرعون وقومه من أرضهم،
وأخبره بأنهم سيأتونه بسحر مثله؛
وطلب منه أن يجعل بينهم وبينه موعداً
يجتمعون فيه، فضرب لهم موسى يوم

الزينة موعداً، وهو يوم عيد لهم؛ فجمع فرعون سحرته في هذا اليوم، وكانوا قد أثروا بحبال وعصي لطموها بالزنبق، فآلقوها في الشمس، فاضطربت واعتزت، وخيل إلى الناس أنها حيات تسعى، فالتقى موسى عصاه، فإذا هي أعظم من حياتهم، ثم أخذت تزداد عظماً حتى ملأت الوادي، وذهبت إلى حياتهم فأكلتها؛ فعرف السحرة أن هذا ليس بسحر، وآمنوا برّب موسى وهارون؛ وقد هدّهم فرعون بما تهدّهم به، فلم يرجعوا عن إيمانهم.

ثم ذكر سبحانه أنه أوحى إلى موسى أن يسير ببني إسرائيل ليلاً، وأن فرعون يبعثهم بجنوده حينما علم بهريهم، وأنه جلّ وعلا، شق البحر لبني إسرائيل فاجتازوه، وأن فرعون أدركهم وهم يجتازونه، فتبعهم بجنوده ﴿فَمُتِّبَهُمْ يَنْزِيلَهُمْ مَا كَفَبَهُمْ﴾ وَأَسْبَلَ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿١٥٥﴾ هَدَىٰ.

ثم انتقل الكلام إلى ما كان بعد ذلك من بني إسرائيل، فذكر أنه أنجاهم من فرعون عدوهم، إلى غير هذا مما ذكره من نعمه عليهم؛ ثم أمرهم أن يأكلوا من طيبات ما رزقهم، ونهاهم أن يطنوا

فيه ثلثاً يحلّ غضبه عليهم، ثم ذكر ما كان من فتنتهم بعبادة العجل بعد ذهاب موسى لميعاد ربه، وأن موسى حينما رجع إليهم لامهم على ما كان منهم، فذكروا له أن السامريّ هو الذي أغواهم بعبادة العجل، إذ صنع لهم من جلّتهم عجلاً جسداً له خوار، وزعم لهم أنه إلههم وإله موسى، فافتتنوا بذلك وصدّقه في زعمه؛ ثم ذكر أن هارون نهاهم عن ذلك، فذكروا له أنهم سيقبلون عليه إلى أن يرجع موسى إليهم. وأن موسى لام هارون على أنه لم يقبلهم هو ومن لم يعبد العجل، فالتجابه بأنه خشي أن يفرق بينهم بالقتال، فاكفى بنصحهم وعظهم؛ ثم ذكر أن موسى سأل السامري بعد ذلك عما دهاه إلى فتنة قومه، فأخبره بأنه كان قد أخذ بعضاً من سئته ودبته، ثم بدا له فنبذها ودعا إلى تلك العبادة، فأمر موسى بطرده من خلوة بني إسرائيل، فخرج طريداً هو وأهله إلى البراري. ثم أتى بالعجل فحرقه بالنار ونسف رماده في اليم، ليبين لهم أن مثل هذا لا يصح أن يتخذ إلهاً ﴿وَكَسَا إِلَهُكُمْ اللَّهُ أَلْيَسَ لَا إِلَهَ إِلَّا مَرْءٌ رَجِيحٌ كَسَلٌ تَوَكَّلَ﴾.

يُضَيِّعُ إِلَيْكَ وَتَعْبَهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي
عِلْمًا ﴿١٢٧﴾ .

قصة آدم

الآيات [١١٥ - ١٢٧]

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ
مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾
فذكر سبحانه أنه عهد إلى آدم في الجنة
ألا يأكل من الشجرة فضاق صدره
بذلك التكليف، وَضَعَفَ عن تعمله،
فموجب على ذلك بالخروج من الجنة،
وقد أتى السياق بذلك من أول الأمر،
ليدل على موضع العبرة من ذكر قصة
آدم؛ ثم ذكر تفصيل ذلك من أمر
الملائكة بالسجود له جلّ جلاله، وأنهم
أطاعوه فسجدوا إلا إبليس أبى، إلى أن
ذكر ما كان من أمر آدم وخزاه بالهبوط
من الجنة، وعهده إليهما وإلى
ذرّيتهما، أنه إذا أتاهم منه هدى فمن
اتبعه فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض
عنه فإنه يقضي دنياه في ضلّك وشدة؛
لأن الكفر لا اطمئنان معه، ثم يكون
حاله في الآخرة أسوأ من الدنيا،
وَيُحْشَرُ فيها أعمى؛ فإذا سأل ربه لِمَ
حشره أعمى وقد كان بصيراً، أجابه
بأنه كذلك أتته آياته فَنَسِيَهَا وكذلك

ثم ذكر أنه يقصّ عليه ذلك ليكون
عظة له ولقومه؛ وأنه أنزل القرآن بمثل
ذلك لِيَذْكُرَهُمْ به، وانتقل السياق من
ذلك إلى تهديد من يُعْرِضُ عن سبيله
تعالى بما هداه به من العقاب الذي
يُنْقَلُ حمله عليهم، وَمِنْ حَشَرِهِمْ رُزْقًا
يوم ينفخ في الصور، فيقومون من
قبورهم، ويتساءلون بينهم عن مدة
لَبِثِهِمْ قبل قيامهم، فيذكر بعضهم أنهم
لم يلبثوا إلا عشرة أيام ويذكر بعضهم
أنهم لم يلبثوا إلا يوماً؛ لَأَنَّ شدة
الاهوال، تنسيهم مدة لَبِثِهِمْ؛ ثم ذكر
أن الجبال تُنْثَفُ بعد النفخ في الصور،
وَأَنَّ الأرض تكون ملساء ملساء لا
نبات فيها، وأنهم يُدْفَنُونَ إلى الحشر
فيسير الداعي بهم لا يُعْرِضُ هنا أو
هناك، فإذا وقفوا للحساب خشعت
الاصوات للرحمن، فلا يشفع عنده إلا
من أذن له ورضى قوله. ثم ذكر
سبحانه أن وجوههم تُنْثَرُ له جلّ جلاله
وتنضج لحكمه، فيحرم من الثواب من
حمل ظُلماً في الدنيا، وينال من عمل
صالحاً ثوابه، ولا يخاف ظُلماً ولا
هضماً، ثم ذكر أنه أنزل القرآن، وكرّر
فيه هذا الوعيد، لعلهم يتفكرون، أو
يُخَيِّدُ لهم ذِكْرًا: ﴿فَتَنفَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ
الْحَقُّ وَلَا تَمَلُ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ

اليوم يُنسى: ﴿وَكَيْفَ تَتَذَكَّرُونَ﴾ وَمَنْ لَمْ يَحْذَرِ اللَّهَ لَعَنَ اللَّهُ عَذَابَهُ الَّذِي لَكَ الْآخِرَةُ وَلَئِنَّكَ لَآتٍ بِهَا ﴿١٣٥﴾

الخاتمة

الآيات (١٢٨ - ١٣٥)

ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَيْنِ فَظَنَّا أَنَّ يَدَ اللَّهِ مَبْسُوطَةٌ عَلَيْنَا فَنَحْنُ فِي سَبِيلِهِ﴾ ﴿١٢٨﴾ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَكَ الْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ لَعَلَّكَ تَرْجِعُ﴾ ﴿١٢٩﴾ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَكَ الْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ لَعَلَّكَ تَرْجِعُ﴾ ﴿١٣٠﴾ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَكَ الْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ لَعَلَّكَ تَرْجِعُ﴾ ﴿١٣١﴾ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَكَ الْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ لَعَلَّكَ تَرْجِعُ﴾ ﴿١٣٢﴾ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَكَ الْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ لَعَلَّكَ تَرْجِعُ﴾ ﴿١٣٣﴾ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَكَ الْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ لَعَلَّكَ تَرْجِعُ﴾ ﴿١٣٤﴾ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَكَ الْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ لَعَلَّكَ تَرْجِعُ﴾ ﴿١٣٥﴾

الصلوات في أوقاتها، ونهاه أن يمد عينيه إلى ما متع به بعضهم من زينة الدنيا، لأن ما عنده من الثواب خير وأبقى؛ ثم ذكر أن من تعشتم، أنهم اقترحوا على النبي (ص) آية تدل على نبوته، واجابهم بأنهم قد اتهموا أخبار الأمم السابقة في الصحف الأولى، إذ طلبوا من الآيات مثل طلبهم ولم يؤمنوا بها، فأهلكهم الله وعجل لهم عذابهم، ولو أنه جل وعلا أهلكهم قبل أن يرسل إليهم رسلهم، وجيبهم إلى ما اقترحوا من الآيات، ﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَقُولَ وَنَحْزَنَ﴾ ﴿١٢٨﴾ ﴿قُلْ سَكُنْ مَدِينَتَكَ﴾ ﴿١٢٩﴾ ﴿قُلْ سَكُنْ مَدِينَتَكَ﴾ ﴿١٣٠﴾ ﴿قُلْ سَكُنْ مَدِينَتَكَ﴾ ﴿١٣١﴾ ﴿قُلْ سَكُنْ مَدِينَتَكَ﴾ ﴿١٣٢﴾ ﴿قُلْ سَكُنْ مَدِينَتَكَ﴾ ﴿١٣٣﴾ ﴿قُلْ سَكُنْ مَدِينَتَكَ﴾ ﴿١٣٤﴾ ﴿قُلْ سَكُنْ مَدِينَتَكَ﴾ ﴿١٣٥﴾



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

أسرار ترتيب سورة طه (*)

والإيجاز، وقصة موسى، وهي موجزة بجملة^(١)، فقد أشير إلى بقية النبيين إجمالاً^(٢). وذكر في هذه السورة شرح قصة موسى، التي أجملت هناك، فاستوعبت غاية الاستيعاب وتوسّعت أبلغ بسط^(٣) ثم أشير إلى تفصيل قصة آدم، الذي وقع مجرد اسمه هناك^(٤) ثم ورد في سورة «الأنبياء» بقية قصص من لم يذكر في مريم، كنوح، ولوط، وداود، وسليمان وأيوب وذو الكفل،

أقول: روينا عن ابن عباس وجابر بن زيد، في ترتيب النزول: أن طه مزلت بعد سورة مريم، بعد ذكر سورة أصحاب الكهف. وذلك وحده كافٍ في مناسبة الوضع، مع التأخي بالافتتاح بالحروف المقطعة.

وظهر لي وجه آخر، وهو: أنه لما ذكرت في سورة مريم قصص الأنبياء، زكريا، يحيى، وعيسى، مبسوط، وقصة إبراهيم، وهي بين البسط

(١) انظر هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الانصاف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(٢) وردت قصة موسى في ثلاث آيات فصار من مريم (٥١ و ٥٢ و ٥٣).

(٣) وذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنَّا أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْعُرُونَ بِكُلِّ قَوْلٍ نُنَزِّلُ فِيهِ وَلَقَدْ فَتَنَّاكَ مِنْ تَحْتِ الْوُجُوهِ فَقَالَ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكَ وَرَبِّ الْجَبَرُوتِ﴾ [مريم/٥٨].

(٤) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كُنَّا أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [١٠] إلى ﴿ثُمَّ لَقَيْنَاهُ فِي الْبَرِّ فَتَنَّا﴾ [١١].

(٥) وقع مجرد ذكر اسم آدم في مريم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ إِنَّكَ كَانَ نَقِيصًا مِمَّا كَانَتْ تُعْبَدُ لَهُ أَفَتَكْفُرُ﴾ [مريم/٥٨]. وذكرت قصته مفصلة في طه من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنَّا أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [١١٦] إلى ﴿قَالَ أَتَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْكُمْ لَعْنًا عَلَيْهِمُ يَوْمَئِذٍ﴾ [١١٧].

وذي النون، وأشير إلى قصة من ذكرت قصته إشارة وجيزة، كـموسى، وهارون، وإسماعيل، وزكريا، ومريم، لتكون السورتان كالمقابلتين.

وبسطت في سورة «الأنبياء» قصة إبراهيم البسط التام فيما يتعلق به مع

قومه، ولم تذكر حاله مع أبيه إلا إشارة^(١). كما أنه في سورة مريم ذكر حاله مع قومه إشارة، ومع أبيه مبسوطاً^(٢). فانظر إلى عجيب هذا الأسلوب، ويدع هذا الترتيب.

(١) قصة إبراهيم (ع) في الأنبياء وردت في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ أَنْ لَا يَنْتَهِزَ عَلَىٰ الْمَذْبُوحِ ۖ وَأَنَّهُ يُخَصِّصُهَا لِيُؤْتَىٰ مِنْهَا خَمْسُ مِائَاتٍ وَلِيُذَبِّحَ بِهَا بَنِيهِ وَبَنَاتُهُ ۖ وَكَانَ بَيْنَهُمْ فِي الْوُجُوهِ ۝١٠١﴾ [الأنبياء/ ١٠١] هي ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ أَنْ لَا يَنْتَهِزَ عَلَىٰ الْمَذْبُوحِ ۖ وَأَنَّهُ يُخَصِّصُهَا لِيُؤْتَىٰ مِنْهَا خَمْسُ مِائَاتٍ وَلِيُذَبِّحَ بِهَا بَنِيهِ وَبَنَاتُهُ ۖ وَكَانَ بَيْنَهُمْ فِي الْوُجُوهِ ۝١٠١﴾ [الأنبياء/ ١٠١]

(٢) وردت قصة إبراهيم وأبيه في مريم: من قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لَأُضِلُّكُمْ وَلِلْكَافِرِينَ ۖ وَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٢﴾ [مريم/ ١٢] هي ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لَأُضِلُّكُمْ وَلِلْكَافِرِينَ ۖ وَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٢﴾ [مريم/ ١٢]. وجاءت الإشارة إليه مع قومه في قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٢﴾ [مريم/ ١٢]

مكتونات سورة طه (*)

أبي حاتم عن ابن عباس، وأخرج عنه: أنه كان من أهل كرمان، ومن وجه آخر عنه: من أهل باجرقة^(١).

وعن قتادة: كان من قرية اسمها حاتم، سامرة.

١ - ﴿يُنْزِلُ الرُّسُلَ﴾ [الآية ٩٦]. هو جبريل، كما أخرج ابن أبي حاتم، عن علي، وابن عباس، وغيرهما.

١ - ﴿قُلْتُ مَبِينٌ لِّيَ أَهْلِي مَدِينٌ﴾ [الآية ٤٠]

قال قتادة: مَبِينٌ. أخرجه ابن أبي حاتم.

٢ - ﴿يَوْمَ الْيَنبُوتِ﴾ [الآية ٥٩].

قال ابن عباس: هو يوم يمشون^(٢). أخرجه ابن أبي حاتم.

٣ - ﴿الْأَيْدِ﴾ [الآية ٨٥].

اسمه: موسى بن ظفر. أخرجه ابن

(٥) نفي هذا المبحث من كتاب المنجيات الأثراني في منجيات القرآن للشيوعي، تحقيق إبد خالد العبد، مؤسسة

الرسالة، بيروت، غير مؤرخ

(١) ولعلها باجرمة، وهي قرية من أعمال البليح قرب الرقة من أرض الجزيرة في شمال الشام، كذا في مجمع البيان، ٣١٣/١. قال ابن كثير هي ابن عيسى، وكان من قوم يمشون الفرس.



سازمان اسناد و کتابخانه ملی
جمهوری اسلامی ایران

لغة التنزيل في سورة «طه» (٥)

﴿إِلَيْهِ أَمْسُوا لِلّٰهِ تَتَوَكَّلُونَ﴾
(يوس/٢٦).

﴿وَصِفَ الْيَسْمُ الْكَيِّبَ أَيْ لَهُ
لِلّٰهِ﴾ (نحل/٦٢).

﴿وَكَيْنَ تُجِثُّ إِنْ رَوَّيَ إِنْ لَمْ يَسْمُ
لِلّٰهِ﴾ (الفك/٥٠).

وآيات أخرى، وكنا نحرصنا إلى شيء
من هذا في آية سابقة.

٣ - وقال تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاتَّقِ
تَعْلِيكَ إِلَيْكَ وَالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾.

وقوله تعالى: ﴿طَوًى﴾ بالضم
والكسر منصرف وغير منصرف يتأويل
المكان والبقعة، وقيل: مرتين نحو
تُتَّى، أي: نلدهين، أو قُدَّسَ الوادي
كثرة بعد كثرة.

١ - وقال تعالى: ﴿تَبَرَّأَ مِمَّنْ خَلَقَ
الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْفَلَّ﴾.

ووصف السماوات به (الغلى) دلالة
على عظم قدرة من يخلق مثلها، في
خلوها وبعد مرتقاها.

أقول: ﴿وَالسَّمَوَاتِ الْفَلَّ﴾، أي:
العالية وهو من باب الوصف بالمصدرة
ومعناه اسم الفاعل، كقولهم: شاهد
حذل، والمعنى عادل أو ذو عدل.

٢ - وقال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ لِلّٰهِ﴾.

(الحسن): تأنيث الأحسن.

أقول: وقد تحولت «الحسن» إلى
مصدر، كالنقوى والبقيا والبلوى ونحو
ذلك؛ ومنه قوله تعالى:

(٥) انتهى هذا المبحث من كتاب من بدع له التنزيل، لإبراهيم المازني، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ

٤ - وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَلْكَاهَةَ كَلِيَّةٌ أَكَادُ أَحْفِيهَا﴾ [الآية ١٥].

أي: أكاد أحفيها فلا أقول هي آتية لغرض إيرادتي إحقاقها، ولولا ما في الإخبار بإتيانها، مع تسمية وقتها من اللطف، لما أخبرت به.

وقيل: معناه أكاد أخفيها من نفسي.

٥ - وقال تعالى: ﴿وَالْقِتُّ عَلَيْكَ حِمَّةٌ نِيٌّ وَتَشْتَعُ عَلَى عَيْتِي﴾ [٢١].

وقوله تعالى: ﴿وَتَشْتَعُ عَلَى عَيْتِي﴾ [٢١] أي: بشرى وتعدى بسرأى متى، أي يجري أمرك على ما أريد بك من الرفاهة في غذائك. والكلام إلهي موسى (ع).

٦ - وقال تعالى: ﴿فَلْيَنْتَفِعْ بِهِنَّ قَتْلُهُنَّ فَالْعَمَلُ بَيْنَا وَبَيْنَكَ مَرِيدًا لَا تَحْلُمُهُمْ هُنَّ وَلَا أَنتَ مَكَا مَوْءٍ﴾ [٢٢].

قروا (مبوى) بالكسر أيضاً، وهو منون وغير منون ومعناه: منتصفاً بيننا وبينك، عن مجاهد.

وهو من الاستواء، لأن المسافة من الوسط إلى الطرفين مستوية، لا تفاوت فيها.

وقيل معناه مكان عدل بيننا وبينك؛ عن قتادة.

وهذا من الكلم الذي لولا القرآن لكان من الضائع من مادة العربية القديمة.

٧ - وقال تعالى: ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَى وَيَلَكُمْ لَا تَقْرَأُوا عَلَى النَّاسِ حِكْمًا يَتَّبِعُكُمْ بِمَكْرٍ﴾ [الآية ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُكُمْ بِمَكْرٍ﴾، أي: يستأصلكم بعذاب، عن قتادة والسدني.

وقيل: «يهلككم» عن ابن عباس، وغيره.

أقول: وأصل الشحت: استقصاء الخلق، يقال شحت شعره إذا استأصله. وشخته الله وأشخته إذا استأصله وأهلكه.

أقول أيضاً: ومث قول العزدي:

وحض زمان يا ابن مروان لم يدع من الحال إلا مشحناً أو مجلف قال الزمخشري:

والبيت لا تزال الركب تصطك في تسوية إعرابه.

أقول: وليس من هذا كلمة «الشحت» التي وردت في القرآن في سورة المائدة في قوله تعالى:

﴿سَتُفَوِّتُكَ الْكَلْبُ أَصْحَابُكَ﴾
 ﴿تَشْتَبِي﴾ [المائدة/٤٢].

٨ - وقال تعالى: ﴿فَتَنَزَّلُوا أَمْ رَأَيْتُمْ﴾
 ﴿يَهْتَمُّ وَشَرًّا لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَتَنَزَّلُوا أَمْ رَأَيْتُمْ﴾،
 أي: ألهم تشاوروا في الشر، وتجاوزوا
 أهداف القول. وهذا معني جميل
 لكلمة «التنازع».

٩ - وقال تعالى: ﴿فَقِيَّتِهِمْ يَنْ أَلِيمٌ مَا﴾
 ﴿غِيَّتِهِمْ﴾.

أقول: في الآية الكريمة ضرب من
 الإيجاز البليغ في قوله تعالى: ﴿مَا﴾
 ﴿غِيَّتِهِمْ﴾ من باب الاختصار، وهذا من
 جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها
 بالمعاني الكثيرة.

أي غشيهم ما لا يعلم كنهه إلا الله.
 وإذا كانت البلاغة بالإيجاز، فإن
 ذلك واضح، كل الوضوح، في هذه
 الآية، التي جاء الإيجاز فيها مؤدناً
 للكثير من المعاني، التي ينصرف إليها
 الذهن تصوراً وتحققاً.

١٠ - وقال تعالى: ﴿فَلَمَّحَ لَّهُمْ﴾
 ﴿عَجَلًا جَسَدًا لَّمْ يَكُنْ لَّهُمْ خَبَرٌ﴾ [الأنعام/٨٨].

وقوله تعالى: ﴿عَجَلًا جَسَدًا﴾ أي:
 عجلًا جسماً.

أقول: وهذا من باب الوصف
 بالاسم الجامد، على التأويل والمعنى:
 عجلًا ذا جسد أو جسم، أو مجسداً
 مجسماً كما نقول بلغة هذا العصر.

١١ - وقال تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ﴾
 ﴿عَلَيْهِ عَنكِيدِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوقِنٌ﴾.

أقول: هذا شاهد في أن (لن) النافية
 الناصبة لا تقتضي التأيد، ذلك أن عدم
 البراح موقوت بالمدة التي هي قبل
 رجوع موسى.

وقد أردت التنبيه على هذه المسألة
 التي أشار إليها الشعاء، وأنكروا على
 الزمخشري في «مفصله» أنها تفيد
 التأيد، أقول: أردت التنبيه على هذه
 اليساسة، لأؤكد ما درج عليه
 المعاصرون من استعمال هذه الأداة
 إرادة التأيد، كقولهم: لم أقل هذا ولن
 أقوله.

١٢ - وقال تعالى: ﴿فَقَبَضْتُ يَمِينِي﴾
 ﴿مِنْ أَمْرِ الرُّسُلِ قَبْضَتُهُا﴾ [الأنعام/٩٦].

قرأ الحسن: (قُبْضَةً) بضم القاف،
 وهي اسم المقبوض كالقرفة والمُضَفَّة.

وأما (القُبْضَةُ) بفتح القاف فهي المرة
 من القبض، وإطلاقها على المقبوض
 من باب تسمية المفعول بالمصدر.

وَقُرِئَ أَيْضاً: فَقَبِضْتُ قَبْضَةً بِالضَّادِ
المهمله.

وقيل: من قرأ بالضاد فهو بجميع
الكف، ومن قرأ بالضاد قباطراف
الأصابع. أقول: ليس هذا التفريق
وجيهاً، وذلك لأنه لم يزيد في كلام
العرب، وأرى أن الفعل بالضاد كالفعل
بالضاد، وتلك مسألة تنصل
به «اللهجات».

ويؤيد هذا ما ورد في الآية الكريمة:
﴿إِنْ كُنْتُمْ وَمَا قَبِلْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
حَسْبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء/٩٨].

وقرئت حَضَبٌ بالضاد المعجمة،
كما قرئت: حَطَبٌ بالطاء.

١٣ - وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ
الْقُرْآنَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَىكَ كَتَبْنَاهُ قَدْ
قُرِئَ لَنَسِيكَ فِي الْآنِ نَسِيًّا﴾.

قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَاهُ﴾، والأصل
«كَتَبْنَاهُ»، فحذفت اللام الأولى،
ونقلت حركتها إلى الظاء.

أقول: أرى أن اللام قد حذفت،
وليس من نقل للحركة، والحذف
للتخفيف ليس غير.

ولم نجد نظير هذا الحذف، في
نظائر الفعل من المضاعف.

وقوله تعالى: ﴿لَنَسِيكَ﴾ بمعنى
لَنَسِيْتَهُ.

وفي عربيتنا المعاصرة، يقال: نَسَفَ
البناء، أي أزاله وأفناه.

١٤ - وقال تعالى: ﴿قَالَ يَهَكُونَ مَا
مَلَكَ لَهُمْ لَأَنَّهُمْ كَلَمًا إِلَّا نَتَبَّهَتْ
أَصْمِيَّتُ أُمِّي﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا نَتَبَّهَتْ﴾ بالون
المكسورة، وحققنا أن تكون «نَتَبَّهَتْ»
بالياء.

أقول: وحذف الياء، يعني قصر المد
قليلاً والاجتزاء عنه بالكسرة القصيرة،
ليس عمالة من مسائل رسم المصحف،
بل إن هذا الرسم الذي يباح فيه حذف
ما لا يحذف، يؤذي غرضاً صوتياً
يتصل بحسن الأداء؛ وذلك أن المد
القصير، أي: الكسرة أنسب إلى المد
القصير بعدها، أي: العنحة في قوله
تعالى: ﴿أَصْمِيَّتُ﴾، وهذا عند
الوصل، الذي هو أولى في هذا
الموضع الذي يباح فيه الوقف الجائز.

المعاني اللغوية في سورة «طه» (*)

وقال سبحانه ﴿تَكَادُ نُفُوسٌ﴾ [الأنبياء: ١٨] وواحدتها: «نُفُوسَةٌ».

وقال: ﴿مَاءَهُ لَذِينُ﴾ [الأنبياء: ٢٢] أي: أخرج آية أخرى يجعله بدلاً من قوله ﴿يَسْلُكُ﴾ (١) [الأنبياء: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ [الأنبياء: ٢٢] من «وَيْسُ» و «نَيْسُ» و «وَيْسَاءُ» و «وَيْسَاءُ».

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَنُفُوسٍ﴾ [الأنبياء: ٦٣] «إِنَّ» خفيفة في معنى ثقيلة، وهي لغة لقوم يرفعون ويدخلون اللام ليفرقوا بينها وبين التي تكون في معنى «ماء» (٢)، ونقرأها ثقيلة،

قال تعالى: ﴿طه﴾ منهم من يرسم أنها حرفان مثل ﴿حم﴾ ومنهم من يقول ﴿طه﴾ يعني: يا رجل في بعض لغات العرب.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا نَحْنُ وَإِنَّ يَحْشُرُونَ﴾ بدل من قوله ﴿يَحْشُرُونَ﴾ أي: «ما أنزلنا القرآن عليك إلا تذكيراً» (٣).

وقال تعالى: ﴿تَكْرِيلاً﴾ [الأنبياء: ٤] أي: أنزل الله ذلك تنزيلاً.

وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ [الأنبياء: ٥] أي: هو الرحمن (٤).

(*) اتبني هذا المبحث من كتاب صفاتي القرآنية للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ.

(١) قوله في زاد المسير ٢٧٠/٥.

(٢) قوله في الجامع ٢٢٦/١١.

(٣) قوله في إعراب القرآن ٦٤٧/٢ والجامع ١٩١/١١.

(٤) هي في السبعة ٤١٩ قراءة عاصم في رواية، وفي حجة ابن خلدون ٢١٧ إلى ابن كثير وحظي من عاصم وفي الكشف ٩٩/٢، والتيسير ١٥١ إلى ابن كثير وحظي، وفي الجامع ١٢٦/١١ زاد الرمزي والخطيب بن أحمد والمنتقى وابن ميسر، ورد في البحر ٢٥٥/٦ في سبيلك وأبنا حيرة، وأبنا الحرية وعبد الوبي سعدان

وهي لغة لبني الحارث بن كعب^(١).

وقوله تعالى ﴿الَّذِينَ﴾ [الآية ٦٣]
نائبث «الأمثل»^(٢) مثل: «الغصوى»
و«الأقضى»

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَخْلُجْ لَكَ لِيَرُ حَيْثُ
أَنْتَ﴾ [الآية ٦٩] وتقول العرب:
«جئتكَ من أين لا تعلم» و«من حيث
لا تعلم».

وقال تعالى: ﴿وَعَصَى آلُ مُوسَى﴾ [الآية
١١١] من: «عَصَتْ» فَعَمُوا «عَتَوْا».

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كُنْتُمْ سِبْطًا مِنْ
رَبِّكَ لَكُنْ إِرْكَامًا﴾ [الآية ١٢٩] كأنه يريد:
ولولا «أجل مسمى» [الآية ١٢٩] لكان
إِرْكَامًا.

وقال تعالى: ﴿وَالنَّفِثَةُ تَنْفَثُونَ﴾
أي: والعاقبة لأهل النوى.

وقال تعالى: ﴿عَلَى الْمَرْشَى

أَسْتَوِي﴾ أي قبر ولم يرل قدوا،
ولكن أخير بقدرته.

وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الآية
٤٤] نحو قول الرجل لصاحبه: «إِلْزَعْ
لَعَلَّنَا تَتَعَذَّى» والمعنى: «إِثْنَعْدَى»
و«حَتَّى تَتَعَذَّى» وتقول للرجل: «إِغْمَلْ
عَمَلَكَ لَعَلَّكَ تَأْخُذَ أَجْرَكَ» أي:
تَأْخُذْهُ^(٣).

وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ تَبَايَعْتَ
شَيْئًا﴾ يريد: «أَرَأَيْتَ إِنْ تَبَايَعْتَ شَيْئًا مِنْ
نَبَاتٍ» أَوْ يَكُونُ النَّبَاتُ هُوَ شَيْءٌ كُلُّ
ذَلِكَ مُسْتَعِيمٌ^(٤).

وقال تعالى: ﴿لَنْ تُؤْزِرَكَ عَنْ مَآ جَاءَنَا
بِرَكِّ الْيَتِيمِ وَالَّذِي يَفْرُقَا﴾ [الآية ٧٢]
يقول: «لَنْ تُؤْزِرَكَ عَلَى الَّذِي فُطِرْنَا».

وقال تعالى: ﴿لَا تَحْصُفْ دَرْكًا﴾ [الآية
٧٧] أي «فَاصْبِرْ هُمْ طَرِيقًا» [الآية ٧٧]

(١) في الطبري ١٨٠/١٦ إلى حاشية قوله الأصناف، وفي السبعة ١١٩ إلى ملاحق وإلى حاشية وحيرة والكسائي، إلى
حاشية في رواية، وفي حجة ابن خلدون ٢١٧ إلى غير ابن كثير وحاشية، وكذلك في التيسير ١٥١، وفي الجامع
٢١٦/١١ إلى العنبرين والكوفيين، وفي البحر ٢٥٥/٦ إلى لمي جسر والحسن وشبهه والأعمش ومطلة وحيد
وأبوب وخلف في اختياره وأبي عبيد وأبي حاتم وابن عيسى الأصبهاني وابن جرير وابن جبير الانطاكي
والأخوين والصائين من السبعة

(٢) نقله في الشهاب ٩٨/١٥ مثل.

(٣) نقله في الأشتوني ٢٨٠/١

(٤) نقله في الجامع ٢٠٩/١.

قَسَّ عَنْ نَفْسِي شَيْئًا ﴿[البقرة/ ١٧٣]﴾ أَي
لَا تُجِزِي فِيهِ.

﴿لَا تَحْتَفُ﴾ فِيهِ ﴿دَرْكًا﴾ وَحَلَفَ «فِيهِ»
كَمَا نَقُولُ: «زَيْدٌ أَكْرَمْتُ» نُرِيدُ:
«أَكْرَمْتُهُ» وَكَمَا قَالَ ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَجْرِي



سازمان اسناد و کتابخانه ملی
جمهوری اسلامی ایران

لكل سؤال جواب في سورة طه، (٥)

هو نهي موسى عن التكذيب بها. فهل
بوسعكم شرح ذلك؟.

قلنا: معناه كن شديد الشكيمة في
الدين، صليب المتعجب^(١) لئلا يطمع
في صدك عن الإيمان بها من لا يؤمن
بها، وهذا كقولهم: لا أزنك فهنا؟
مبينه لا يبدؤ مني ولا تقرب من
حضرني لئلا أراك؟ ففي الصورتين
النهى متوجه إلى المسبب، والمراد به
النهى عن السبب، وهو القرب منه
والجلوس بحضرته، فإنه سبب رؤيته،
وكذلك لين موسى (ع) في الدين
وسلاسة قياده سبب لصنهم إياه.

فإن قيل: ما الحكمة من السؤال في
قوله تعالى: ﴿وَمَا يَلَكَ رَبِّي﴾

إن قيل: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ أَتَنْكَ
حَدِيثُ مُوسَى﴾ لا ريب أنكره.

لأن حكى الله تعالى قول موسى (ع)
لأهله عند رؤية النار في هذه السورة؛
وفي سورة النمل وفي سورة القصص،
بعبارات مختلفة، وهذه القضية لم يقع
إلا مرة واحدة؟

قلنا: قد سبق في سورة الأعراف،
في قصة موسى (ع) مثل هذا السؤال؛
والجواب المذكور، ثم هو الجواب
هنا.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَلَكَ رَبِّي﴾
عَنْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ الآية ١٦ ظاهر
اللفظ نهى من لا يؤمن بالساعة عن
صد موسى عن الإيمان بها. والمقصود

(٥) انتهى هذا البحث من كتاب «الأسئلة القرآنية المجددة» لأحمد بن أبي بكر القراري، مكتبة أبي الحلبي،
الطبعة: غير مؤرخ.

(١) صليب المتعجب والمعجبة. حرر القسيسة إذا اعتنق ويطع عزيزاً صلباً

يَتَوَكَّنُ ﴿١٧﴾، وهو أعلم بما في يده
جملة وتعصيلاً؟

قلنا: الحكمة فيه، تأنيسه وتخفيف
ما حصل عنده من دهشة الخطاب
وهيبة الإجلال وقت التكلم معه؛ كما
يرى أحدهنا طفلاً قد داخلته هيبة
وإجلال وخوف، وفي يده فاكهة أو
غيرها، فيلاطمه ويؤتسه، بقوله ما هذا
الذي في يدي؟ مع أنه عالم به. الثاني:
أنه تعالى أراد بذلك أن يقرّ موسى عليه
السلام، ويعترف بكونها عصاً، ويزداد
علمه بكونها عصاً رسوخاً في قلبه، فلا
يحوم حوله شك إذا قلبها ثعباناً أنها
كانت عصاً، ثم انقلبت ثعباناً؛ بقدرته
الله تعالى. وأن يقرر في نفسه المباعدة
البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه
فيتنبه على القدرة الباهرة. ونظيره أن
يريك الحداد قطعة من حديد ويقول
لك ما هذه؟ فتقول زينة من حديد، ثم
يريك بعد أيام درعاً واسعة مسرودة
ويقول: هذه تلك القطعة صيرتها إلى
ما تراه من عجيب الصنعة، وأنيق
الرد.

فإن قيل: قد ذكر الله تعالى عصا
موسى (ع) بلفظ الحية والثعبان
والجان؛ وبين الثعبان والجان تناقض،

لأن الجان الحية الصغيرة كذا قاله ابن
عروة، والثعبان الحية العظيمة، كذا
نقله الأزهري عن الزجاج وقطرب.

قلنا: أراد سبحانه أنها في صورة
الثعبان العظيم، وخفة الحية الصغيرة
وحركتها؛ ويؤيد ذلك قوله جل وعلا:
﴿فَلَمَّا رَكَعَا فَتَمَنَّوْا كَأَنَّهُمَا جَنَّاتٌ﴾ (النمل/١٠).
الثاني أنها كانت في أول انقلابها تنقلب
حية صغيرة صفراء دقيقة، ثم تنوزم
ويتزايد جرمها حتى تصبح ثعباناً؛ فأريد
بالجان أول حالها، وبالثعبان مآلها.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله
تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنَّهُ مَا
يُؤْتِيكَ﴾ (١٨) وهذا لا بيان فيه، لأنه
مجهول؟

قلنا: الحكمة هي الإشارة إلى أنه
ليس كل الأمور مما يوحى إلى النساء،
كالنبوة ونحوها، بل بعضها. الثاني:
أنه للتأكيد، كقوله تعالى: ﴿مَسَّنَهَا مَا
عَنَّا﴾ (١٩) [الجم] كأنه قال: إذ أوحينا
إلى أمك إباحة. الثالث: أنه أبهم أولاً
للتفخيم والتعظيم، ثم بيّنه وأوضحه،
بقوله تعالى: ﴿لِيُتَزَيَّدَ﴾ (٢٠) الآية ٣٩.

فإن قيل: لم قدم هارون على موسى
عليهما السلام، في قوله تعالى ﴿فَأَتَيْنِ
أَسْرَرَ جُنْدًا قَالُوا مَاذَا يَرِيكَ كُرُونِ

وَيَوْمَئِذٍ ﴿٧٥﴾ وهارون كان وزيراً لموسى (ع) وتعالى له؛ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ هَارُونَ هَنُوتًا وَيُوزَارًا﴾ (المراة: ٩)

قلنا: إنما قدمه ليضع موسى مؤخرأ في اللفظ فيناسب الفواصل، أعني رؤوس الآيات.

فإن قيل: ما المراد في قوله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَسِينُ﴾ ﴿٧٦﴾؟

قلنا: المراد: لا يموت فيها موتأ بشرح به، ولا يحيا حياة تضمه ويستلذ بها. الثاني: أن المراد لا يموت فيها موتأ متصلاً، ولا يحيا حياة متصلة؛ بل كلما مدت من شدة العذاب؛ أبعد حياً ليدوق العذاب، هكذا سبعين مرة في مقلد كل يوم من أيام الدنيا.

فإن قيل: الخوف والخشية واحد في اللغة، فلم قال تعالى: ﴿لَا تَخَفْ دُرُكًا وَلَا مُتَحَسِّنًا﴾ ﴿٧٧﴾.

قلنا: معناه لا تخاف دُرُكاً؛ أي لحاقاً من فرعون، ولا تخشى غرقاً في البحر.

كما تقول: لا تخاف زيدا ولا تخشى غمراً، ولو قلت ولا غمراً صح وكان أوجز؛ ولكن إذا أعدت الفعل،

كان أكد؛ وأما في الآية فلما لم يكن مفعول الخشية مذكوراً، وذكر الفعل ثانياً ليكون دليلاً عليه، وخولف بين اللفظين رعاية للبلاغة. وقيل معناه لا تخاف دُرُكاً على نفسك، ولا تخشى دُرُكاً على قومك؛ والأول عندي أرجح.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَأَضَلُّ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ﴾ (الأنعام: ٧٩) يُعني عن قوله تعالى: ﴿وَمَا هَدَيْتُ قَوْمَهُ﴾ (مفيد فوق فائدته فلم ذكر معه؟

قلنا: معناه: وما هداهم بعد ما أضلهم، فإن المضل قد يهدي بعد إضلاله. الثاني: أن معناه: وأضل قومه وما هدى نفسه. الثالث: أن معناه: وأضل فرعون قومه عن الدين، وما هداهم طريقاً في البحر. الرابع: أن قوله تعالى: ﴿وَمَا هَدَيْتُ قَوْمَهُ﴾ (مفيد فوق فائدته فلم ذكر معه؟ كما ورد في التنزيل: ﴿وَمَا أَهْلِيكَ إِلَّا سَبِيلُ الرَّسُولِ﴾ (غافر).

فإن قيل: لم قال الله تعالى: ﴿يَتَّبِعْ أَتْرَافَكَ قَدْ أَهْلَيْتُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ وَوَعَدْتُكَ سَبِيلَ الطُّبْرِ الْآخِرِ﴾ (الأنعام: ٨٠) أضاف المواعدة إليهم؛ والمواعدة، إنما كانت

لموسى (ع)، وَاَعَدَّ اللهُ تَعَالَى جَانِبَ
الطُّورِ الْأَيْمَنَ لِإِتْيَانِهِ التُّورَةَ؟

قلنا: المواءمة، وإن كانت
لموسى (ع)، ولكنها، لما كانت لإتزال
كتاب بسبب بني إسرائيل، وفيه بيان
شريعته وأحكامهم وصلاحيات معاشهم
ومعادهم، أضيف إليهم المواءمة بهذه
الملازمة والاتصال.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَمَا
أَعْمَلُكَ مِنْ قَوْمِكَ يَمُوتُونَ﴾ سؤال
عن سبب العجلة، فإن موسى (ع) لما
وأعد الله تعالى بإتزال التوراة هديه
بجانب الطور الأيمن، وأراد الخروج
إلى ميقات ربه لمختار من قومه سبعين
رجلاً يصحبونه إلى ذلك المكان، ثم
سيقهم شوقاً إلى ربه وأمرهم بلحاظه،
فعموت على ذلك، وكان الجواب
المطابق أن يقول: طلبت زيادة رضاك
أو الشوق إلى لقائك وتنجيز وعدك،
فلم قدم مالا يطابق السؤال، وهو قوله
تعالى: ﴿ثُمَّ أَوَّلَاهُ عَلَى آثَرِي﴾ [البقرة: ٨٤]؟

قلنا: ما واجهه ربه به تضمن شيئين:
إنكار العجلة في نفسها، والسؤال عن
سببها؛ فبدأ موسى (ع) بالاعتذار عما
أنكره تعالى عليه، بأنه لم يوجد منه إلا
تقدم يسير لا يعتد به في العادة، كما

يتقدم المقدم جماعته وأتباعه؛ ثم عقب
المعذر بجواب السؤال عن السبب،
بقوله كما ورد في التنزيل: ﴿وَعَسَيْتُ
إِلَيْكَ رَبِّي بِإِذْنِكَ﴾.

فإن قيل: أليس أن أنفة اللغة قالوا:
العوج بالكسر في المعاني، وبالفتح في
الأعيان، ولهذا قال ثعلب: ونقول في
الأمر والدين عوج، وفي العصا
ونحوها عوج، كالجبال والأرض،
فكيف صح فيها المكسور، في قوله
تعالى: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِصْيًا وَلَا
أَشْجًا﴾؟

قلنا: قال ابن السكيت: كل ما كان
مما ينتصب كالحائط والعمود، قيل فيه
عوج بالفتح، والعوج بالكسر ما كان
في أرض أو دين أو معاش، فعلى هذا
لا إشكال. الثاني: أنه أريد به نفي
الاهوجاج الذي يدرك بالقياس الهندسي
ولا يدرك بحاسة البصر، وذلك
اهوجاج لا جح بالمعاني، فلذلك قال
فيه عوج بالكسر، ومما يوضح هذا
أنك لو سويت قطعة أرض غاية
التسوية، بمقتضى نظر العين، بموافقة
جماعة من البصراء، واتفقت على أنه
لم يبق فيها عوج قط، ثم أمرت
المهندسين أن يعتبروها بالمقاييس

الهندسية، وَجَدَ فِيهَا عَوْجاً فِي غير موضع، ولكنه عَوْجٌ لَا يَدْرِكُ بِحَاسَةِ الْبَصَرِ، فَتَنَى اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ الْعِوَجَ لِمَا لَعُفَ وَدَقَّ عَنِ الْإِدْرَاكِ، فَكَانَ لِدَقِّهِ وَخَفَاةِ مَلْحَقاً بِالْمَعَاتِي.

هَذَا قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّ آدَمَ (ع) نَسِيَ عَهْدَ اللَّهِ وَوَعِيَّتَهُ، وَأَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا لَكَ إِذْ أَدَمْنَا مِنْ قَبْلِ فَدَسَّ﴾ [١١٥] وَإِذَا كَانَ قَتْلُ ذَلِكَ نَاسِئاً، فَكَيْفَ وَصِفَ بِالْعَصِيَانِ وَالْعَوَايَةِ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَعَدْنَا آدَمَ رَبَّهُمْ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ [١١٦] فَعَاقِبَهُ عَلَيْهِ بِأَعْظَمِ أَنْوَاعِ الْعُقُوبَةِ، وَهُوَ الْإِخْرَاجُ مِنَ الْجَنَّةِ؟

قُلْنَا: النِّسْيَانُ هُنَا بِمَعْنَى التَّوَلَّى كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَبَيِّنَاكُمْ﴾ [السجدة/١١٤] أَيْ تَرَكْنَاكُمْ فِي الْعَذَابِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُنُوا لِلَّهِ غُلَامًا يَذُكَّرُونَ﴾ [التوبة/١٢٧] لِمَعْنَاهُ أَنَّهُ تَرَكَ عَهْدَ اللَّهِ وَوَعِيَّتَهُ، فَكَيْفَ يَكُونُ مِنَ النِّسْيَانِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الذِّكْرِ؟ وَقَدْ جَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِبْلِيسَ مِنَ الْمَجَادَلَةِ وَالْمَاطَرَةِ فِي أَكْلِ الشَّجَرَةِ، فَصُولٌ كَثِيرَةٌ؛ مَا ذَكَرَهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿يَا نَبِيَّانَا إِنَّكَ كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ نَكُفِّرُ بَنِيَ آدَمَ﴾ [التوبة/١٠٩] نَكُفِّرُ بَنِيَ آدَمَ أَوْ نَكُفِّرُ بَنِيَ آدَمَ؟ كَيْفَ يَبْقَى مَعَ هَذَا نِسْيَانٌ؟

فَإِنْ قِيلَ: لَيْسَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا لَكَ إِذْ أَدَمْنَا مِنْ قَبْلِ فَدَسَّ﴾ [١١٥] وَلَمْ يَقُلْ فَتَشَقَّى، وَالْخُطَابُ لِآدَمَ وَحْدَهُ (ع)؟

قُلْنَا: لَوْجُوه: أَحَدُهُمَا أَنَّ الرَّجُلَ قَتَلَ أَهْلَهُ وَأَمِيرَهُمْ، فَتَشَقَّى بِتَشَقُّي شَقَاءِهِمْ، كَمَا أَنَّ مَعَادَاتِهِ تَتَشَقَّقُ مِنْ مَعَادَاتِهِمْ؛ فَاتَّخَصَّرَ الْكَلَامُ بِإِسَادِ الشَّقَاءِ إِلَيْهِ دُونَهَا، لَمَّا كَانَ مُتَشَقِّقاً لَهُ. الثَّانِي: أَنَّهُ إِنَّمَا أَسْنَدَ إِلَيْهِ دُونَهَا لِلْمَحَافِظَةِ عَلَى الْفَاصِلَةِ. الثَّالِثُ: أَنَّهُ أَرَادَ بِالشَّقَاءِ الشَّقَاءَ فِي طَلَبِ الْقُوَّةِ وَإِصْلَاحِ الْمَعَاشِ، وَذَلِكَ وَطِيفَةُ الرَّجُلِ دُونَ الْمَرْجُو، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ: أَهْبَطَ إِلَى آدَمَ (ع) ثَوْرٌ أَحْمَرٌ، فَكَانَ يَحْرَثُ عَلَيْهِ، وَيَنْسَحُحُ الْمَرْقُ عَنْ جَبِينِهِ، فَذَلِكَ شَقَاؤُهُ.

فَإِنْ قِيلَ: هَلْ يَجُوزُ أَنْ يَقَالَ: كَانَ آدَمُ حَاصِئاً غَاوِئاً، أَخْذَلاً مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَعَدْنَا آدَمَ رَبَّهُمْ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ [١١٦]؟

قُلْنَا: يَجُوزُ أَنْ يَقَالَ: حَصَى آدَمَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقَالَ كَانَ آدَمُ حَاصِئاً، لِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ جَوَازِ إِطْلَاقِ الْفِعْلِ جَوَازَ إِطْلَاقِ اسْمِ الْفَاعِلِ؛ أَلَا تَرَى أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَقَالَ تَبَارَكَ اللَّهُ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ،

ويجوز أن يقال تاب الله على آدم، ولا يجوز أن يقال الله تائب؛ ونظائره كثيرة.

فإن قيل: أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية لا مدخل للقياس فيها؛ ولهذا يقال الله عالم، ولا يقال علامة، وإن كان هذا اللفظ أبلغ في الدلالة على معنى العلم؛ فأما أسماء البشر وصفاتهم، فقياسية؛ فلم لا يجري فيها على القياس المطرد؟

قلنا: هذا القياس ليس بمطرد في صفات البشر أيضاً، ألا ترى أنهم قالوا ذره ودعه بمعنى أثره، وفلاّج يذو ويدع، ولم يقولوا منهما وذر ولا وادع ولا وذغ ولا زادع، فاستعملوا منهما الأمر والمضارع فقط. ولتأمل أن يقول: هذا شاذ في كلام العرب ونادر، فلا يترك لأجله القياس المطرد، بل يجري على مقتضى القياس.

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَمَرْتُ عَنْ وَصْطِي﴾ [الآية ١٢٤] أي عن موعظتي، أو عن القرآن، فلم يؤس به ولم يتبعه ﴿إِنَّ لَكُمْ مَيْمَنَةً مِّنكُمْ﴾ [الآية ١٢٤] أي حياً في ضيق وشدة، ونحن نرى المعرضين عن الإيمان والقرآن، في أخصب معيشة وأرغحها؟

قلنا: قال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد بالمعيشة الضنك الحية في المعصية، وإن كان في رخاء ونعمة. ودوي عن النبي (ص) أنها عذاب القبر. الثاني: أن المراد بها عيشته في جهنم في الآخرة. الثالث: أن المراد بها عيشه مع الحرص الشديد على الدنيا وأسبابها؛ وهذه الآية في مقابلة قوله تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ سَلِماً إِنَّ كَسْرَ لِّئْسٍ لَهُ وَفِى مَوْزِنٍ فَتَنْبِئُهُ نَبِيُّهُ﴾ [التعليل ١٩٧]. فكل ما ذكرناه في تفسير الحياة الطيبة، ففضله وارد في المعيشة الضنك.

فإن قيل: أي كلمة سبقت من الله سبحانه، فكانت جامعة من تعذيب هذه الأمة في الدنيا عذاب الاستئصال، حتى قال جل شأنه: ﴿وَلَوْلَا كُنْتُمْ سَبَّحْتُمْ مِنْ رَبِّكُمْ لَكُنَّ رِجَالاً﴾ [الآية ١٢٩]؟

لا اختصاص لهذه الأمة بهذه الكلمة، وقيل هي قوله تعالى للنبي (ص): ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ يَتَوَبَّعُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنعام ٢٣] وقيل هي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْمُتَلَكِّينَ﴾ [الأنعام ٢٣] وقيل لعالمى أنه بتأخير العذاب عنهم؛ وقيل في الآية تقديم وتأخير تقديره: ولولا

كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ وَأَجَلَ مُنْشَى،
وهو الأجل الذي قَدَّرَ الله تعالى بقاء
العالم وأهله إلى انقضاءه، لكان
العذاب لازماً: أي لازماً لهم كما لزم
الأمم التي قبلهم.

فإن قيل: أصحاب الصراط السوي
والمهتدون واحد، فما الحكمة من
التكرار في قوله تعالى: ﴿مَسْتَقِيمُونَ مِّنْ
أَصْحَابِ الْوَيْبِ أَسْوَىٰ وَمَيِّ أَفْتَنَّا﴾ ؟

قلنا: المراد بأصحاب الصراط
السوي، السالكون الصراط المستقيم،

الساكنون عليه؛ والمراد بالمهتدين
الواصلون إلى المنزل. وقيل أصحاب
الصراط السوي، هم الذين مازالوا على
الصراط المستقيم؛ والمهتدون هم
الذين لم يكونوا على الطريق
المستقيم، ثم صاروا عليه. وقيل
المراد بأصحاب الصراط السوي، أهل
دين الحق في الدنيا؛ والمراد بمن
اهتدى، المهتدون إلى طريق الجنة في
الحق؛ فكانه سبحانه قال: فستعلمون
من المحقق في الدنيا، والفائز في
الآخرة.



المعاني المجازية في صورة حظه^(١)

خفاء^(٢) القرية، وهو الغشاء الذي يكون عليها.

فإذا سلب عن الساعة غطاؤها المانع من تجليها، ظهرت للناس، فأروها؛ فكأنه تعالى قال: أكاد أظهرها. قال لي: وأشدني أبو علي^(٣) منذ أهام بيتاً هو من أنطق الشواهد على الغرض الذي ومينا. وكان صماعي ذلك من أبي الفتح رحمه الله، وأبو علي حينئذ باقي لم يمض، وهو قول الشاعر^(٤):

قوله سبحانه: ﴿إِنْ أَكَادُ أُكِيدُ﴾ (الآية ١٥) وهذه استعارة على أحد التأويلين. وهو مما سمعته من شيخنا أبي الفتح النحوي^(٥)، عفا الله عنه. قال: الذي عليه خلّلق أصحابنا: أن «كاد» معناها على بابها من معنى المقاربة. إلا أن قولاً تعالى: ﴿أُفْهِمَ﴾ يؤول إلى معنى الإظهار. لأن المراد به: أكاد أسلبها خفاءها. والخفاء الغشاء والغطاء مأخوذة من

(١) انقضي هذا المبحث من كتاب «تلخيص البيان في معاني القرآن» للشيخ الرضي، تحقيق محمد عبد العلي حسني، دار مكتبة الحياة، بيروت، طبع مؤرخ

(٢) هو أبو الفتح عثمان بن جني، إمام النحو المشهور، ولقد المؤلف، وقد سبق تعرضنا به في عواش معاني سورة التوبة

(٣) البصير: الغطاء وجمعه أحمية.

(٤) أبو علي، هو أبو علي الفارسي، واسمه الحسن بن أحمد بن عبد الطاهر، كان إماماً في المروية وكان يقال في كل بلد يحمل فيه من مسائل من اللغة والنحو والصرف، فيجيب إجابات مفيدة. وصنف في أسئلة كل بلد كتاباً وقد تعاشر المؤلف وابن جني وأبو علي الفارسي. وكان المؤلف شاعراً ماثلاً، حين تقفمت السن بقي علي الفارسي، الذي توفي سنة ٣٧٧هـ. جلي حين أن الشريف الرضي ولد سنة ٣٥٩هـ.

(٥) هذا البيت لم يذكر له قائل. وهو من أبيات الشوافع في «لسان العرب» ولم يصب لذلك

لقد عَلِمَ الأَيْقَاطُ أَحْفِيَةَ الكَرَى
تَرْجُبُهَا مِنْ خَالِكٍ وَكَيْتَعَالُهَا
ومعناه لقد علم الأيقاط عيوناً.
فجعل العين للنوم في أنها مشتملة
عليه، كالخفاء للقرية في أنه مشتمل
عليها.

وقول الشاعر: «أخفية الكرى» من
الاستعارات المعجبة، والبدائع الغريبة.
وقوله: «تَرْجُبُهَا مِنْ خَالِكٍ
وَكَتَعَالُهَا»، يعود على العيون، كأنه
قال تَرْجُبُ العيون وَكَتَعَالُهَا من سواد
الليل. وهذا لا يكون إلا مع البهر
وامتناع النوم، لأن العيون لا تَبْشُرُ
بانفتاحها تكون كالمباشرة لسواد
الظلماء، فيكون كالكحل لها.

والتَرْجُبُ: اسوداد العينين من
الكحل. يقال رَجِبَتْ^(١) المرأة عَيْنُهَا
وحاجِبُهَا. إذا سودت بالامتد.

وعلى التأويل الآخر يمد الكلام عن

طريق الاستعارة، وهو أن يكون أكاد
ههنا بمعنى أريد، كما قلنا فيما
مضى^(٢). ومن الشواهد على ذلك قول
الشاعر:

أَسْخَرْتُ شَعْبَانٌ لَمْ تُغْفَرْ حَاجَةُ
مِنَ الْحَاجِ كُنَّا فِي الْأَصَمِ^(٣) نَكِيدُهَا

أي كنا نريدُها في رجب، ويكون
«لَتُنْيِيهَا» على موضوعه، من غير أن
يمكس عن وجهه. ويكون المعنى: إن
الساعة آتية أريدُ أَشْرُ وقت مجيئها، لما
في ذلك من المصلحة. لأنه إذا كان
المراد بإقامتها المجازاة على الأفعال،
والمواخذه بالأعمال، كانت الحكمة
في إخفاء وقتها ليكون الخلق في كُلِّ
حين ورجان على حذرٍ من مجيئها،
وَيُجَلِّ من يفتتنها، فيستعدوا قبل
حلولها، ويهتدوا قبل نزولها.

ويقوّي ذلك قوله سبحانه: ﴿لَتُنْيِيَنَّ
كُلَّ نَفْسٍ مِّنَّا شَرًّا﴾.

(١) وبت قول الشاعر الرامي البصري:

إِنَّمَا مَا الْخَفِيَّةُ بِشَرِّ زَيْنٍ يَوْمًا وَرَجِبَتْ الْحَوَاجِبُ وَالْعَيُونَا

وهذا البيت من شواهد التصرف في اللفظ مع. انظر «الشرح للمالك» إلى آية ابن مالك شاهد ٢٥٩

(٢) في الآية رقم ٧٧ من سورة الكهف.

(٣) الأصم: شهر رجب، وسمي بذلك لأنه كان لا يُسمع فيه صوت السلاح، لكونه شهراً حراماً انظر لسان
العرب وقال الحليل إنما سمي بذلك، لأنه كان لا يُسمع فيه صوت مستغيث، ولا حركة قتال ولا قسعة
سلاح، لأنه من الأشهر الحرم.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ واستعارة. لأن المراد بالسيرة ههنا الطريقة والعادة. وأصل السيرة مضي الإنسان في تدبير بعض الأمور، على طريقة حسنة أو قبيحة. يقال: سار فلان الأمير فينا سيرة جميلة. وسار بنا سيرة قبيحة. ولكن موسى (ع) لما كان يصرف عصاه - قبل أن تنقلب حية - في أشياء من مصالحه، كما حكى سبحانه عنه، بقوله: ﴿بِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي إلى الحال التي كنت تصرفها معها في المصالح المذكورة، لأن تصرفها في تلك الوجوه كالسيرة لها، والطريقة المعروفة منها؛ والمراد منبذها إلى سيرتها الأولى، فانتصبت السيرة بإسقاط الجار.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَنصَبْ فِيهَا الْحَمِيمَ﴾ وهذه استعارة، المراد بها، والله أعلم، وأدخل يدك في قميصك مما يلي إحدى جهتي يديك. وسميت تلك

الجهتان جناحين، لأنهما في موضع الجناحين من الطائر. ويوضح ما ذكرنا قوله سبحانه في مكان آخر: ﴿وَأَنصَبْ فِي يَدَيْكَ فَتَرَبَّسُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (الشمس/ 112)، والجيب في جهة إحدى اليدين.

قوله سبحانه: ﴿وَأَنصَبْ فِيهَا الْحَمِيمَ﴾ (الشمس/ 112) واستعارة. والمراد بها إزالة لُغْب⁽¹⁾ كان في لسانه، فغُتِرَ عنه بالعقدة، وغُتِرَ عن مسألة إزالته بحل العقدة؛ للملازمة بين اللُغْمِ، والمناسبة بين الكلام.

ولقد يجوز أيضاً أن يكون المراد بذلك، إزالة اللغية عن لسانه، وكفايته بسطوة فرعون وفواته، حتى يؤدي عن الله سبحانه آمناً، ويقول متمكناً، فلا يكون معقود اللسان بالتقية، معكوم القم بالخوف والمراقبة. وذلك كقول القائل: لسان فلان معقود، إذا كان خائفاً من الكلام؛ ولسان فلان منطلق، إذا كان مقدماً على المقال.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَنصَبْ فِيهَا الْحَمِيمَ﴾ (الشمس/ 112) وفي هذه الآية استعارتان. إحداهما قوله

(1) اللُغْمُ: القم. القم: عصب في اللسان، يسلك من الكلام.

سبحانه. ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ تَحْمِلُهُ نَفْسِي﴾
وليس المراد أن هناك شيئاً يلقى عليه
في الحقيقة؛ ولكن المعنى أنني جعلتك
بحيث لا يراك أحد إلا أحبك، ومالَ
قلبه نحوك، حتى أحبك فرعون
وامرائه، فتبلياك وربيالك، واسترضعا
لك، وكفلاك. وهذا كقول القائل:
على وجه فلان قول. وليس هناك على
الحقيقة شيء يؤتمن إليه. إلا أن كل ناظر
ينظر إليه بقلبه وتسرُّبه نفسه.

والاستعارة الأخرى، قوله سبحانه:
﴿وَلَقَدْ صَنَعَ عَلَيَّ صَبْرًا﴾ والمراد
بذلك، والله أعلم، أن تترتب به حيث
أرهأك وأراك. وليس أن ههنا شيئاً
يفيب عن رؤية الله سبحانه، ولكن هذا
الكلام يفيد الاختصاص بشدة الرعاية،
وفرط الحفظ والكلام؛ ولما كان
الحافظ للشيء في الأغلب يديم مراعاته
بعينه، جاء تعالى باسم العين بدلاً من
ذكر الحفظ والحراسة، على طريق
المجاز والاستعارة.

ويقول المربي لغيره: أنت مني
بمرأى وسماع. يريد بذلك أنه متوفر
عليه برعايته، ومنصرف إليه بمراعاته.
وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ تَحْمِلُهُ نَفْسِي﴾
لنفسى ﴿٥٠﴾ وهذه استعارة. والمراد

بها: واصطنعتك لتبلغ رسالتي،
وتنصرف على إرادتي ومحبتى؛ وقال
بعضهم: معنى لنفسي ههنا، أي
لمحبتى؛ وإنما جاز أن يوقع النفس
موقع المحبة، لأن المحبة أحص شيء
بالنفس، فحسُن أن تسمى بالنفس
وقد يجوز أن يكون ذلك على معنى
قول القائل: اتخذت هذا الغلام
لنفسى، أي جعلته خاصاً لخدمتي، لا
يشاركني في استخدامه أحد غيري.
وسواء قال اتخذته، أو اشغلته لنفسي،
في فائدة الاختصاص، ليس أن هناك
شيئاً يتعلق بالنفس على الحقيقة.

وقوله سبحانه: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَمَلَنَّ
كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ وهذه
استعارة على أحد التأويلين. والمراد
بها، والله أعلم، أنه أكمل لكل شيء
صورته، وأتقن خلقته، وهذا يعم كل
مصور من حيوان وجماد وغير ذلك.
فلا معنى لحمل من حملة على الحيوان
فقط.

وعندي في ذلك وجه آخر، وإن كان
الكلام يخرج به من باب الاستعارة؛
وهو أن يكون في الكلام تقدير
وتأخير. فكأنه سبحانه قل. ربنا الذي
أعطى خلقه كل شيء، ثم هداهم إلى

والفراش. إِلَّا أَنَّ الْمَهْدَ رُبَّمَا اسْتَعْمَلَ
 فِي رَسْمِ الْأَكَّةِ الَّتِي يُجْعَلُ فِيهَا الصَّبِيُّ
 الصَّغِيرَ لِيَحْفَظَهُ، وَهُوَ يَزُولُ إِلَى مَعْنَى
 الْفِرَاشِ. وَالْمَهْدُ أَيْضاً: مُصَدَّرٌ مَهْدٌ،
 يَمْهَدُ، مَهْدًا. إِنْفَاكٌ مَوْضِعًا لِقَدَمِهِ،
 وَمُضْجَعًا لِحَنِيهِ.

وقوله سبحانه: ﴿وَعَسَى أَنْ تَمُوتَ أَوْ تُكْفَّرَ
 فَتُبَيِّرَ وَفَدَّ حَبَابٌ مِّنْ حَمَلٍ عَلْتًا﴾
 وهذه استعارة. والمراد بها ما يظهر في
 الوجوه يوم القيامة من آثار الضرع،
 وأعلام الجزع. وذلك مأخوذ من
 تسميتهم الأسير «العاني» ومنه ما جاء
 في بعض الكلام: النساء حَوَانٌ عِنْدَ
 أَرْوَاجِهِنَّ، أي أسيرات في أيدي
 الأزواج. وعلى ذلك قولُ القائل: هذه
 المرأة في حبال فلان، لأنه بما عَقْدُهُ
 من نكاحها كالأسر لها، والممالك
 لرُفْها. فكأن الوجوه خضعت من خشية
 الله تعالى، خضوع الأسير للذليل في يد
 الأسر العزيز.

مطاعهم ومشاريهم، ومناكحهم،
 ومساكنهم، وغير ذلك من مصالحهم.
 ويكون ذلك تطهير قوله تعالى:
 ﴿وَنَافِثَتُكُمْ يٰٓبْنَ سَكَلٍ مَّا سَأَلْتُمُوهُ﴾
 [إبراهيم/ ٣٤] ويكون المراد أنه سبحانه
 أعطى خلقه في أزل خلقهم كل ما تَوَاح
 به حللهم، ويتكامل معه خلقهم، من
 سلامة الأعضاء، واعتدال الأجزاء،
 وترتيب المشاعر والحواس، ومواقع
 الأسماع والأبصار، ثم هدام من بعد
 لمصالحهم، ودلهم على مناكحهم،
 وأجرامهم في مضمار التكليف إلى
 غاياتهم.

وقوله سبحانه: ﴿الَّذِي يَحْكُمُ لَكُمْ
 الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [الأنعام/ ٥٣]. وهذه
 استعارة. والمراد بها تشبيه الأرض
 بالمهاد المفترش، ليتمكن الاستقرار
 عليها، والتقلب فيها. وقد مضى نظير
 هذه الاستعارة فيما تقدم. ومعنى المَهْدُ
 واليهاد واحد. وهو مثل القَرْشِ



مرکز تحقیقات کتاب و اطلاع‌رسانی

سورة الأنبياء





مرکز تحقیقات کتاب و اطلاع‌رسانی

أهداف سورة الأنبياء^(*)

هَفَفَرْتُ مَرُشَرًا ﴿١﴾

ثم ساقَت السورة الأدلة، على
الألوهية والتوحيد والرسالة والبعث.
وهي الموضوعات التي عُنِيَتْ بها
السُورُ المكية، من أجل تقرير العقيدة
والدفاع عنها.

ونلاحظ، هنا، أن السورة قد عالجت
الموضوعات، بعرض النوايس الكونية
الكبرى، وَزَيَّنَت العقيدة بها.

فالعقيدة، في سورة الأنبياء، جزء
من بناء هذا الكون ونوايسه الكبرى.

وهذه العقيدة، تقوم على الحق الذي
فُصِّلَ عليه السماوات والأرض،
وليست لُجْباً ولا باطلاً؛ كما أن هذا

سورة الأنبياء سورة مَكِّيَّة بالإنفاق
وأياتها ١١٢ آية، وقد نزلت فُجِيل
الهجرة إلى المدينة، أي حوالي السنة
الثانية عشرة من البعثة؛ وسُنِّيت بسورة
الأنبياء، لأنه اجتمع فيها، على
قِصَصِها، كثير من قِصَصِ الأنبياء،
فُسِّمَت السورة باسمهم.

الغرض منها وترتيبها

هي سورة مَكِّيَّة، نزلت في آخر
العهد المَكِّي، أي في ذروة تجرُّ أهل
مَكَّة، وَغُلَّتْهم، وانصرافهم عن
الإسلام.

فنزَلَتْ تُنذِر هؤلاء الكُفَّار باقتراب
العذاب ففي بدايتها:

﴿أَقْرَبَ لِلَّائِسِ بِجَاهَتِهِمْ وَعَمَّ فِي

(*) انتهى هذا المبحث من كتاب «أهداف كل سورة ومقاصدها»، آميد الله سبحانه، الهيئة العامة للكتاب،
القاهرة، ١٩٧٩ - ١٩٨٤

الكون لم يُخلَق شيئاً، ولن يُشرك
شئى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
لِغَيْرِهَا﴾ (٢١).

وبلغت السياق الناس إلى مظاهر
الكون الكبرى، في السماء والأرض،
والرواسي والفجاج، والليل والنهار،
والشمس والقمر، موجهاً الأنظار إلى
وحدة النواميس التي تحكمها
وتُصرّفها، وإلى دلالة هذه الوحدة على
وحدة الخلق المدبر المالك، الذي لا
شريك له في الملك، كما أنه سبحانه،
لا شريك له في الخلق:

﴿أَوَ كَانَ فِیْهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ فَسَدَّ لَهُ
الْأَبْصَارُ﴾ (٢٢).

ثم تحدثت السورة عن وحدة
الناویمس، التي تحكم الحياة في هذه
الأرض، وعن وحدة مصدر الحياة:

﴿وَبَدَّلْنَا مِنْ أَمَلِهِ كُلِّ فَوْزٍ حَتَّىٰ
الْآخِرَةِ﴾ (٣٠).

وعن وحدة النهاية التي ينتهي إليها
الأحياء:

﴿كُلُّ نَفْسٍ نَّاطِقَةٌ مَّرْجُومٌ﴾ (٣٥).

والعقيدة وثيقة الارتباط بملك
الناویمس الكونية، فهي واحدة كذلك،

وإن تَعَدَّ الرُّسُلُ على مدار الزمان.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا
مُؤْتَىٰ إِلَيْهِ لَقَدْ لَأَ إِلَهَ إِلَّا أَنَا
فَاعْبُدْنِي﴾ (٢٥).

وكما أن العقيدة وثيقة الارتباط
بنواميس الكون الكبرى، فكذلك
ملازمات هذه العقيدة في الأرض.
فالتة التي لا تتخلف: أن يُلَبَّ الحق
في السهابة، وأن يَزْهَقَ الباطل، لأن
الحق قاعدة كونية، وغلبة شئة إلهية:

﴿عَلَّ قَفْیُكَ يَلْمُوكَ عَلَى الْبَيْتِ قَدِمْتُمْ
لَنَا هُوَ رَافِقٌ﴾ (الآية ٦٨).

وأن يُحْلَلَ الهلاك بالظالمين
المكذّبين، ويُجْجِي الله الرسل
والمؤمنين:

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ
نَشَاءُ وَأَمْلَأْنَا السَّعِيرِينَ﴾ (١٠).

وأن يَهِرَّتْ الأرض هبلاً الله
الصالحون:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُرِ مِنْ بَعْدِ
أُولَئِكَ لَكُمْ الْأَرْضُ بِرِثَتِهَا وَسَاءَ
الْمَكْرُورُونَ﴾ (١١).

ومن ثم يستعرض السياق أمة الرُّسُل
الواحدة، في سلسلة طويلة، استعراضاً
سريعاً، يطول بعض الشيء، عند

استقبال الرسالة، ولا مجال لطلب الآيات الحارقة، وإن آيات الله في الكون، وسُنَّ الكون كلها تُوحى بأنه سبحانه الخالق القادر الواحد، والرسالة من لدُنْ ذلك الخالق القادر الواحد.

نظم السورة

التَّظَنُّمُ في سورة الأنبياء، يختلف عن النظم في سورتي مريم وطه. هناك كان النظم سهلاً، والختم رَجِيئاً، يُحْتَمُّ في الغالب بالألف اللينة.

أما في سورة الأنبياء، فالنظم نَظْمُ التقريض، الذي يتناسق مع موضوعها، ويصاحبه السياق في عَرْضِ هذا الموضوع، ولذلك خُتِمَتْ آياتها بالميم أو بالنون.



وإذا نظرنا إلى الجانب الذي عُرِضَ من قصّة إبراهيم (ع) في سورة مريم، وجدنا أن الحلقة التي عُرِضَتْ هناك، حلقة الحوار الرَجِيء بين إبراهيم وأبيه. وقد خُتِمَتْ آيات الحوار هناك، بالألف اللينة مثل نبيأ، صفيأ، عليأ.

أما هنا، فجاءت حلقة تحطيم الأصنام، وإلقاء إبراهيم في النار، ولكي يتحقق التناسق في الموضوع،

عُرِضَ خَلْقُهُ من قصّة إبراهيم (ع) وعند الإشارة إلى داود وسليمان (ع).

وَيَتَقَصَّرُ عند الإشارة إلى قصص نوح، وموسى، وهارون، ولوط، وإسماعيل، وإدريس، وذو الكفل، وذو النون، وزكريا، ويحيى وعيسى (ع).

وفي هذا الاستعراض تتجلى المعاني التي سبقت في سياق السورة، تَتَجَلَّى في صورة وقائع في حياة الرسل والدعوات، بعد ما تجلّت في صورة قواعد عامة ونواميس.

كذلك يتضمن سياق السورة بعض مشاهد القيامة، وتتمثل فيها تلك المعاني نفسها في صورة واقع يوم القيامة.

وهكذا تتجمع الأساليب المتنوعة في السورة على هدف واحد، هو استجاشة القلب البشري لإدراك الحق الأصيل في العقيدة، التي جاء بها خاتم الرُّسُل (ص) فلا يتلقاها الناس غافلين، مُعْرِضِينَ لاهين، كما تصفهم السورة في مطلعها.

إن هذه الرسالة حق، كما أن هذا الكون حقٌ وَجِدٌ. فلا مجال لِلْهُوَ في

ونواميس الوجود، ووحداية المعاني
 المثير وحدة الرسالة والعقيدة،
 ووحدة قصدر الحياة ونهايتها
 ومصيرها، على النحو الذي أسلفنا،
 ويمتد هذا الشوط من أول السورة إلى
 الآية ٣٥.

الشوط الثاني

أما الشوط الثاني، فيزجج السبق
 بالحديث إلى الكفار، الذين يواجهون
 الرسول (ص) بالسخرية والاستهزاء،
 والأمر جدّ وحق، وكل ماحولهم
 يحكي باليقظة والاحتمام، وهم
 يستعجلون العذاب، والعلاب منهم
 قريب. وهنا يفرض مشهداً من مشاهد
 القصاص، وليفتهم إلى ما أصاب
 المستهزئين بالرسل قبلهم؛ ويقزر أن
 ليس لهم من الله من عاصم، ويوجه
 قلوبهم إلى تأمل يد القدرة، وهي
 تنفض الأرض من أطرافها، وتروي
 رقعتها وتطويها، فلمل هذا أن يوقظهم
 من غفلتهم، التي جاءتهم من طول
 النعمة وامتداد الرخاء.

وينتهي السياق في هذا الشوط
 بتوجيه الرسول (ص) إلى بيان وظيفته:
 ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْرِيكُمْ بِالنَّاسِ﴾ (الأنبياء: ٤٥)

والجود والنظم، والإيقاع، فقد ختمت
 قصة إبراهيم هنا، بالنون أو الميم،
 التي تفيد التغير والتأكيد، أو ما يشبه
 أحكام القضاة بعد تفكير وتأمل
 وترتيب.

أشواط أربعة

يمكن أن نقسم سورة الأنبياء إلى
 أربعة أقسام، يغطي السياق خلالها من
 قسم إلى آخر، ويمهد كل شوط للذي
 يليه.

الشوط الأول

يبدأ الشوط الأول بمطلع قوي
 الضربات، يهز القلب هزاً وهو
 يُلقيها إلى الخطر القريب المخلق،
 وهي عنه غافلة لاهية:

﴿أَقْرَبَ بِشَأْنِ رِبِّكَمْ وَهُمْ فِي
 غَمَلٍ مُّشْرَبٍ﴾ (١).

ثم يهزها هزة أخرى، بمشهد من
 مصارع الغابرين، الذين كانوا عن آيات
 ربهم عاجلين.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظِلْمَةً
 وَأَنَّا نَبْذُلُهَا قَوْمًا فَجُورٍ﴾ (٢).

ثم يربط بين الحق والجذ في
 الدعوة، نظام الكون، عقيدة التوحيد

والى الخطر الذي يتهددهم في غفلتهم:

﴿وَلَا يَسَّخِ اللَّهُ الذُّلَّةَ إِنْ مَا يُنْذِرُكُمْ﴾.

حتى تُثَقِّبَ الموازينَ القسطَ، وهم في غفلتهم سادرون. ويمتدُّ هذا الشوط من الآية ٣٦ إلى الآية ٤٧.

الشوط الثالث

ويتضمن الشوط الثالث استعراضاً أُمِّ النبيين، وجهاد الرُّسُل، وتلائم في سبيل الحق. ويبدأ الشوط بموسى وهارون (ع) وقد أنعم الله عليهما بالفرقان، وهو التوراة، لأنها تفرِّق بين الحق والباطل؛ ثم ذكر إبراهيم (ع) وقد أعطاه الله الرشَد والهداية، فأَنكَر على قومه عبادة الأصنام، ثم حطَّمها، فأَلْقَى في النار، فجعلها الله برداً وسلاماً عليه؛ ثم ذَكَر نَجاة لوط (ع) من قومه المعتدين، ونجاة نوح (ع) وأتباعه من الطوفان؛ ثم ذكر جثَم سليمان (ع) ودعاه يونس (ع) وسؤال زكريَّا (ع) وصلاح مريم (ع). ويعقب الشوط بأنَّ هناك وحدةً بين هذه الرسائل، في العقيدة والإيمان والهدف والقيم والسلوك:

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾.

وتتجلى في رسالة الأنبياء عناية الله بهم، ورعايته لأُمَّل رسالته وتوَلِّيهم بالعناية والرعاية، وأخذ المكلفين والظالمين، أخذ عزيز مقتدر، ويمتدُّ هذا الشوط من الآية ٤٨ إلى الآية ٩٥.

الشوط الرابع

أما الشوط الرابع والآخر، فيعرض لِنِهَايَةِ والمصير، في مشهدٍ من مشاهد القيامة الكثيرة، حينما يُفْتَحُ سُدٌّ بِأَجْوَجٍ ومَأْجُوجٍ، ويعرض ذلُّ الكفار في عذاب جهنم، ونعيم المؤمنين في الجنة. ثُمَّ طَيَّ السَّمَاوَاتِ فِي سَاعَةِ الْقِيَامَةِ. ثم تَوَجَّهَ السِّبَاقُ إِلَى الرُّسُولِ (ص) بِالْخُطَابِ، فذَكَرَ أَنَّ اللَّهَ مَبْحَاثُهُ أَرْسَلَهُ بِالرَّحْمَةِ وَالْإِحْسَانِ، لِتُبْلِيغِ رِسَالَتِهِ إِلَى النَّاسِ. ثم خَتَمَتِ السُّورَةُ بِمِثْلِ مَا بَدَأَتْ: لِإِقَامَةِ قَرِيْبًا، وَإِنْفِرَافًا صَرِيْحًا. ويمتدُّ هذا الشوط من الآية ٩٦ إلى ١١٢.

وفي آخر آية من السورة ونين يتحدَّى الكفار، ويتوَعَّدُهُمْ بِحُكْمِ اللَّهِ الْعَادِلِ: ﴿فَكُلِّمُوا الَّذِينَ يَلْمِزُونَ رَبَّهُمْ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ لَكُم مَّا يَكُونُ لَكُمْ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ لَكُم مَّا يَكُونُ لَكُمْ﴾.



سازمان اسناد و کتابخانه ملی
جمهوری اسلامی ایران

توابط الآيات في سورة «الأنبياء» (*)

من ذلك الصراط السوي. ولهذا ذكرت هذه السورة بعد السورة السابقة، وتصورها إنذارهم باقتراب حسابهم، فجاء أولها في هذا الإنذار، وجاء آخرها في ذكر قصص أولئك الأنبياء، وبيان اجتماعهم على «دين التوحيد»، وهو ذلك الصراط السوي.

إنذارهم باقتراب حسابهم الآيات (١ - ٤٧)

قال الله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلزَّالِمِينَ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (١).
فإنذارهم بأن حسابهم قد اقترب بتسليط المسلمين عليهم؛ وذكر أنهم، مع هذا، في غفلة مُّعْرِضُونَ، وأنهم ما يأتينهم من عقلة جديدة من عظات

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة الأنبياء بعد سورة إبراهيم، وقد نزلت سورة إبراهيم بعد الإسراء وتبئيل الهجرة، فيكون نزول سورة الأنبياء في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سُميت هذه السورة بهذا الاسم، لأنه اجتمع فيها على قصصها، كثير من قصص الأنبياء، فسُميت سورة الأنبياء باسمهم، وتبلغ آياتها اثني عشرة ومائة آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة، إثبات قُرْب ما أُمروا بِتَرْجِيئِهِ من العذاب في آخر السورة السابقة، وبيان ما جاء فيه

(*) انتهى هذا المبحث من كتاب «الظلم الذي في القرآنة»، للنسح عبد الشمال العميدي، مكتبة الآداب بالحمير المطبعة النموذجية بالمكتبة الجديدة، القاهرة، غير مؤرخ.

به يُتَأْتُونَ بالويل، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين؛ ثم ذكر أن ما ينزل بهم من ذلك يكون عدلاً، لأنه لا يكون إلا بعد حساب توزن فيه الأعمال ﴿وَلَا تُظْلَمُ عَنْ شَيْءٍ وَلَا عَلَيْكَ كَيْفٌ مِنْ رَبِّكَ إِنَّمَا يُنِيبُ الْإِنْسَانُ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

قصص الأنبياء الآيات (٤٨ - ٩١)

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّا مُوسَىٰ وَفَارُوقَ الْفَرَقَانِ وَنَبِيَّكَ وَذَكَرَ الْكُتُبِ﴾ فذكر من أولئك الأنبياء موسى وهارون (ع) وأنه آتاهما الفرقان، وهو الثروة لأنها تفرق بين الحق والباطل؛ وأنه سبحانه أنزل القرآن، يزيدها في ذلك، فلا يصح أن ينكروه.

ثم ذكر أنه أتى إبراهيم (ع) الرشد إلى الحق، قبل موسى وهارون (ع) فأنكر على قومه عبادة الأصنام، وبين لهم أن ربهم رب السماوات والأرض، لأنه هو الذي خلقها؛ ثم بين، بالعمل، أن هذه الأصنام ليست بألوهة، فغضب في جفينة إليها فكسرها وترك صنماً كبيراً لهم فلم يخبروه. فلما ذهبوا

كانتا زنتاً ففتقهما، إلى غير هذا مما ذكره من الأدلة على هذه الوجدانية.

ثم رجع السياق إلى ما ذكره، من أنه بشرٌ مثلهم، فذكر سبحانه أنه لم يجعل لبشرٍ من قبله الحلف حتى يجعله بشراً لا يأكل الطعام ولا يموت؛ فهو يموت كما يموتون، وكل نفس لا بد أن تذوق الموت. ثم ذكر مما يفعلونه في غفلتهم عن يوم حسابهم، أنهم كانوا حينما يرون النبي (ص) يقولون مستهزئين كما ورد في التنزيل: ﴿أَلَيْسَ الْأَوَّلُ بِالْأَوَّلِ﴾، فذكرهم بما فعلهم مما يُنْزَلُ عليهم من الذكر، مغشزين بإمهال الله لهم، مستعجلين ما اقترب من يوم حسابهم؛ ثم ذكر أن هذا الاستعجال شأن الإنسان، لأنه خلق من عجل، وأنه سيربهم آيات عذابه في وقت لا تتقدم عليه؛ ثم ذكر هذا الاستعجال المعلوم، وهو قولهم على سبيل الاستهزاء كما ورد في التنزيل: ﴿مَنْ هَذَا الَّذِي يُؤْذِيكُمْ﴾.

ولو يعلمون أنهم في ذلك اليوم، تحيط بهم النار من كل ناحية، لكفوا عن استعجالهم؛ ثم ذكر أنه إنما يندره بالوحي الذي لا يكذب، وأنهم إذا منتهى نفحة من العذاب الذي ينزلون

إليها سأل بعضهم بعضاً فمن فعل هذا بها، واتهموا إبراهيم فأحضره وسأله، كما ورد في التنازل: ﴿وَلَمَّا نَسَبْنَا لَكَ النَّسَبَ وَوَدَّعَاكَ وَرَدَّكَ عَلَيْهِمْ قَالُوا لَوْلَا إِبْرَاهِيمُ يُضِلُّهُمْ أَفَلا يَتَذَكَّرُونَ﴾ فقال لهم: ﴿قُلْ نَعْبُدُكُمْ هَذَا قُلُوبُكُمْ هَذَا فَتَتَّبِعُونَهُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ﴾، فكادوا يصدقونه، لأنه كان قد وضع فأساً بين يديه؛ ولكنهم عادوا فذكروا له أنها لا تنطق، فكيف يسألونها ممن كسرها؟ وهناك قامت له الحاجة عليهم بإقرارهم، فوثقهم على أنهم يعبدون ما لا ينفعهم شيئاً، ولا يضرهم؛ فعلموا أنه الذي كسرها، وأرسلوا له ناراً ليحرقوه فيها، فلما ألقوه فيها، يجعلها الله بزدأً وسلاماً عليه، ونجاةً ولو طأ ابن أخيه إلى أرض فلسطين، وذهب الله جلّ جلاله له إسحاق ويعقوب نازلة، وجعلهم صالحين؛ فكانوا أئمة يهدون بأمره تعالى، ويخلصون العبادة له.

ثم ذكر أنه أتى لوطاً (ع) جليماً، ونجاةً من القرية التي كانت تعمل الخبائث، وأدخله في رحمة لصالحه واستقامته.

ثم ذكر سبحانه أنه استجاب لنوح (ع) حينما نجاه وأهله من الغرق، ونصره على كفار قومه فأغرقهم أجمعين.

ثم ذكر أنه أتى قارّة وسليمان (ع)

العلم والفهم، وأن غنماً دخلت كرمًا فأثقلت، فشكا صاحب الكرم صاحب الغنم إلى داود، ففضى بالغنم لصاحب الكرم، لأنه لم يكن هناك تفاوت بين ثمنهما؛ وقضى سليمان بتسليم الغنم لصاحب الكرم، لينتفع بها إلى أن يصلح صاحبها كرمه؛ وكان هذا الحكم هو الأرق بهما؛ ثم ذكر أنه سخر لداود الجبال والطير، وعلمه صنعة الدروع، وسخر لسليمان الريح والشياطين.

ثم ذكر أنه استجاب لأيوب (ع) حين ناداه أنه قد مسّه الضر، فكشف عنه ضره، وآتاه أهله ومثلهم معهم.

ثم ذكر إسماعيل وإدريس وفا الكفل (ع) وأنهم كانوا من الصابرين، وذكر ذا النون (ع) وأنه ناداه وهو في بطن الحوت، فاستجاب له، ونجاه من الغم الذي كان فيه.

ثم ذكر زكريّا (ع) حينما شكا إليه، أنه لا ولد له، فوهب له يحيى (ع)، وأصلح له زوجه، لأنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعون زهباً وزهياً.

ثم ذكر مريم التي أحصنت فرجها، فنفخ فيها من روحه، وجعلها وابنتها آية للعالمين.

الخاتمة

الآيات (٩٢ - ١١٢)

فيها، إلى غير هذا مما ذكره في أحوال هذا اليوم.

ثم ذكر تعالى أنه كتب في الزبور من بُعد التوراة، أن الأرض يرثها عباده الصالحون، لينذر المشركين بتسليط المؤمنين عليهم في الدنيا، بعد أن انذروهم بسوء حالهم في الآخرة، فيكون ما اقترَب من حسابهم في الآخرة والدنيا معاً؛ ثم ذكر أن في هذا الإنذار كفاية لقوم عابدين، وأنه سبحانه لم يرسل النبي (ص) إلا رحمةً للعالمين، فلا بد من أن يظهر أمره لكيّن فيه رحمتهم وصلاحهم؛ ثم ختم السورة بإجمال ما ذكره فيها، فأمر النبي (ص) أن يذكر لهم أن إلههم إله واحد لا شريك له، فيجب أن يؤمنوا به، وأمره أن يؤمنهم يوم هدايتهم، إن أعرضوا عنه، وأن يخبرهم بأنه لا يلدّي أقرب أم بعيد ما يوعدون، لأنه سبحانه هو الذي يعلم كل شيء من جهر القول وما يكتمون؛ ثم ذكر أن تأخير ما يوعدهم به، إنما هو لفنة لهم ومناجاة إلى حين ﴿قُلْ رَبِّ انْصُرْ لِي وَلِأُولِي الْإِيمَانِ﴾. ثم ذكر سبحانه أن الذين يدخلون الجنة فيحلبون الحلب فيحلبون

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّبِعُونِ﴾. فذكر لهم سبحانه، أن ملئهم التي يدعوهم إليها، ملّة واحدة تتابع أولئك الأنبياء عليها، وأن ربه واحد يجب أن يعبدوه، وأنهم اتحرفوا عن تلك الملّة، فتفرقوا فرقة كثيرة، وأنه لا بُد من يوم يرجعون فيه إليه سبحانه، فلا ينجو منهم إلا من آمن به وعمل صالحاً. وأما من أهلكتهم من أهل القرى، فلا يمكن أن يرجعوا إلى دنياهم، ليستذكروا ما فاتهم؛ وإذا فُتحت ياجوج وماجوج، يكونون أول الناس حضوراً في محفل القيامة. وهنالك يتأدون بالويل، ويشهدون على أنفسهم، أنهم كانوا في غفلة من هذا اليوم، فيقال لهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَادُونَ﴾. ولو كانوا آلهة ما ساوردها، لأن الآلهة لا يصح تعذيبها. ثم ذكر سبحانه أن الذين سبق لهم منه العسى، لا يردون جهنم، وأنهم يدخلون الجنة فيحلبون



مرکز تحقیقات کتاب و اطلاع‌رسانی

أسرار ترتيب سورة «الأنبياء» (١٠)

وفيه أيضاً مناسبة لقوله تعالى هناك: ﴿وَلَا تَسْتَعِدَّ حَيَاتَكَ إِنَّ مَا سَعَدْنَا بِهِ أَلَدَّهَا مِّنْهُمْ﴾ [طه/١٣١]. فلأن قرب الساعة يقتضي الإعراض عن هذه الحياة الدنيا، لدنوها من الزوال والفساد؛ ولهذا ورد في الحديث: أنها لما نزلت قيل لبعض الصحابة: هلا سألت النبي (ص) عنها؟ فقال فنزلت اليوم سورة أفعلت من الدنيا»^(١).

ظهر لي من اتصالها بآخر «طه»، أنه سبحانه، لما قال في هذه: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ نَزَّيْتُ قَرِصًا﴾ [طه/١٣٥]. وقال قبله: ﴿وَلَوْلَا كُنْتُ مَبْقَىٰ مِنْ رَبِّي لَكَانَ إِرَامًا وَلَهْلَ تَسْتَكْ﴾ [طه]. وقال في مطلع هذه، أي في سورة الأنبياء: ﴿تَقَرَّبَ إِلَيْنِ حِكَايَتُهُمْ وَهُمْ فِي مَعَرَفٍ مُّشْرَبُونَ﴾ إشارة إلى قرب الأجل، ودنو الأمل المتظر.

(١٠) انتهى هذا المبحث من كتاب ١ أسرار ترتيب القرآن للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار «الاعتصام»، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١١) لم يثر على هذا الحديث في ما بين أيدينا من مصادر



سازمان اسناد و کتابخانه ملی
جمهوری اسلامی ایران

مكنونات سورة «الأنبياء» (١٠)

قيل: المقصود به: نمرود وقيل: رَجُلٌ مِنْ أَكْرَادِ فَارِسٍ، يسمي حَيَّزَن. أخرجه ابن أبي حاتم عن شعيب النخعي.
٤ - ﴿إِلَآءِ الْآلِهَةِ إِنِّي بِكَرْبِكُمْ خَائِفٌ﴾
[الأية ٧١].
قال السُّدِّي: هي الشام أخرجه ابن أبي حاتم (٣)
وقيل: مكَّة حكاه ابن عسَّكر (٤)

١ - ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِمِثْمِ إِلَآهِ﴾ [الأية ٢٩].
قال قتادة، والضحاك: هو إبليس. أخرجه ابن أبي حاتم (١).
٢ - ﴿وَنُفِخَ لِلنَّفْثِ﴾ [الأية ٤٧].
أخرج ابن جرير عن خُذَيْفَةَ اليماني (٢) قال: صاحب الميزان يوم القيامة: جبريل.
٣ - ﴿فَالْوَأْدُ حَقُّهُ﴾ [الأية ٦٨].

(١) انظر هذا المبحث من كتاب «مكتوبات الأئمة» في تهذيب القرآن للسيوطي، تطابق إمام خالد المتاح، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(٢) انظر التفسير الطبري ١٧/١٣.

(٣) لم يجد هذا الأثر في تفسير الطبري في هذا الموضع.

(٤) روى في أحاديث مرفوعة صحيحة، شُرِّجَتْ في السنن وغيرها، دعاء النبي (ص) للشام بالبركة، وأورد في فضائلها الحافظ أبو الحسن الرضي المتوفى سنة ١١٤٤هـ. وسند فضائل الشام ومشرق وطبعة مجمع اللغة العربية بمشق سنة ١٣٧٠هـ - ١٩٥٠م. بتعقيق الدكتور صلاح الدين المنجد مع ملاحق له وللشيخ ناصر الدين الألباني - انضج أحاديث فضائل الشام ومشرق للرغمي، لجنة في دمشق المكتب الإسلامي سنة ١٣٧٩هـ.

(٥) روى الحافظ عبد الله المنصفي في «الدرر المنصفي» (٢٨) عن أبي حمزة، في قوله تعالى ﴿إِنِّي أَنزِلُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ قال: من يركبها: أن كل عام طوبى يخرج من أصل صخرة بيت المقدس.

٥ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ صَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا
الْحُسُوفَ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾^(١).

قال (ص): هم عيسى، وعزير،
والملائكة.

أخرجه، هكلنا مختصراً، ابن أبي
حاتم من حديث أبي هريرة.

وأخرج عن ابن عباس، قال: نزلت
في عيسى، ومريم، وعزير^(١).

٦ - ﴿لَكُمْ آلاؤُنَا﴾ (آية ١٠٥).

قال ابن عباس أرض الجنة. أخرجه
ابن أبي حاتم.

(١) وأخرجه البراء، كما في «كشف الأسرار» (٢٢٢٤) بلفظ: «يعني عيسى بن مريم (ع) ونور كان معه» ربه
شرحيل بن سعد مولى الأنصار؛ وثقة ابن حبان، وشيخه المشهور، وبقية رجاله ثقات. قال الهيثمي في «المجمع
الرواة» ٦٨/٧.

لغة التنزيل في سورة «الأنبياء» (*)

والنقص في عصر القرآن، فجاء منه شيء قليل، والآية شاهد على ذلك.

٢ - وقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَتُحَنِّتُ أَطْنَمُ﴾ [الأنبياء ٥٠].

والمعنى: أن الكافرين قالوا: إن القرآن تخالط أحلام، رآها النبي (ص) في المنام؟

وأريد أن أفهم وقفة قصيرة على قول تعالى: ﴿أُتُنْتُ أَطْنَمُ﴾ فأقول: «أُتُنْتُ»: قبضة حشيش مختلطة الرطوب باليابس، وهذا يعني أن «أضغاث الأحلام» رؤيا لا يصح تأويلها، لاختلاطها.

والقول البليغ في هذا التركيب، إضافة الحادي إلى المحسوس. وهو

١ - وقال تعالى: ﴿وَأَسْرَأَ النَّحْوَى أَلْبَنَ طَفْوَى﴾ [الأنبياء ٣].

أقول: أَكْثَرَ النحويون في الكلام على هذه الآية فقالوا: «الواو» فاعل، و«اللين» بذل.

وقالوا: «اللين» فاعل، و«الواو» ليس ضميراً.

وقالوا: هي لغة.

أقول: القول إنها لغة مقبول، ولكني أقول أيضاً: إن هذه المسألة ليست «لغة» ومعنى ذلك أنها شيء خاص، بل ربما أشبه القول أشجاء حسناً، لو قلنا إن مجيء الفاعل اسماً ظاهراً، مع نحول الفعل «إشارة» أو «علامة» لهذا الفاعل في أنه مثلي أو جمع، أسلوب من أساليب العرب، أخذ في الزوال

(*) انتهى هذا المبحث من كتاب «سبع لغة التنزيل»، لإبراهيم السقزاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ

«الأضغاث» إلى المعنوي، وهو «الأحلام» بمعنى الرؤيا للشبه بينهما وهو الاختلاط.

٣ - وقال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا مَثَرِكِمْ ۖ﴾.

أريد به «قرية» أهل القرية، ومن أجل ذلك وصفت بأنها «ظالمة»، ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا مَثَرِكِمْ ۖ﴾.

أقول: ودلالة «القرية» على «أهلها» كثير في القرآن، ومنه:

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَفْلَكْنَهَا فَجَاءَهَا بُنَاتٌ يَتَذَكَّرْنَ أَنْهَنْ ۚ فَلَا يَأْتِيَنَّهَا رُسُلٌ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهَا﴾ [المراد].

وقوله: ﴿وَسَيَلَى الْقَرْيَةَ الْبَحْرُ طَوَّافًا﴾ [يوسف/٨٢].

وأنا دلالة القرية على المكان فكثير أيضاً، وقد ورد في آيات كثيرة.

٤ - وقال تعالى: ﴿لَا تَرْكَنُوا وَأْتِجِرُوا لَنْ مَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام/٤١٣].

والمراد: وارجعوا إلى ما نعمتم فيه من العيش الزايف، أي إلى نعمكم التي أترفقكم.

٥ - وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء/١١٨].

أي: أئنا ندحض الباطل بالحق، واستعار القنف والدمغ تصويراً لإبطاله، وإهداره، ومحقه.

وأصل الدمغ الشج، يقال دمغه حتى بلغت الشجة الدماغ.

أقول: واستعارة «الدمغ» في هذا الخصوص استعارة جميلة، لإحكام تصوير حقيقة محق الباطل بالحق.

٦ - وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ يَدَيْهِ لَا يَسْتَكْبِرُ عَنْ يَدَيْهِ وَلَا يُتَحَرَّكُ ۚ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَكْبِرُ ۚ﴾ أي لا يتفوّق، من فتاة والسُّنِّي.

وقيل: لا يَمَلُّون، وقيل: لا ينقطعون، مأخوذ من البحر الحَصِير، المقطع بالإحياء.

٧ - وقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيقَآ إِلَٰهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنعام/١٢٢].

أقول: الضمير في قوله تعالى: ﴿فِيقَآ﴾ ضمير الاثنين يعود إلى ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فسي الآية ١٩: ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

فقد حُدَّت «السموات» أحد جزأي المثنى نظير «الأرض» فجاء الضمير

كناية عنهما، ولم يُلْتَفِتْ إلى أن
«السموات» جمع.

ومثل هذه المسألة ما ورد في الآية
٣٠: من السورة نفسها، وهي:

﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾.

٨ - وقال تعالى: ﴿وَسَمَكًا فِي الْأَرْضِ
رَوَيْتَ أَنَّ تَبِيدَ بِهِمْ﴾ [الآية ٣١].

أي: كراهة أن تبيد بهم.

أقول: وحلف المصدر المبيِّن
للسبب، وهو المفعول له، ورد في لغة
القرآن التماساً للإيجاز، وهو مطلب من
مطالب البلاغة، وأنه يلمح في المعنى،
ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ فِي الْأَرْضِ رَوَايَعٌ أَنْ تَبِيدَ
بِهِمْ﴾ [الحج/ ١٥ والمائد/ ٤١].

أي: كراهة أن تبيد بهم.

وقوله تعالى: ﴿وَسَمَكًا عَلَى ظُهُورِهِمْ إِحْتَذَى
أَنْ يَغْتَمَوْا﴾ [الأنعام/ ٤٦].

والنقد كراهة أن يفقهوه.

٩ - وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ
النَّارَ وَالنَّارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ
يَسْبَحُونَ﴾ [الأنعام/ ١٠].

وفي قوله تعالى: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ [الأنعام/ ١٠].

إضافة فعل العقلاء إليها، سَوْغٌ مجيء
الواو والنون، كما قال سبحانه:
﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَاجِعَانِ إِلَى
مَكَانٍ مَعِينٍ﴾ [يس/ ٤٠].

١٠ - وقال تعالى: ﴿وَتَقَالُوا لَا مَبِيدَ
أَصْنَعُ﴾ [الأنعام/ ٥٧].

أي لأدبرون في بابهم تدبيراً خفياً
يسو لكم ذلك.

والفعل «كاد يكيد» فعل متعد، كما
في الآية: وقد يُطَوَّى المفعول به، كما
في قوله تعالى:

﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ لُوطٌ﴾ [مريم/ ٢٧].

﴿لَهُمْ يَكِيدُهُ كَيْدًا﴾ [الأنعام/ ١٠].

والكيد التلبيس بباطل أو حق.

والكيد الخبث والمكر.

١ - وقال تعالى: ﴿وَصَرَفَهُ مِنَ الشَّيْءِ
الَّذِي كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الأنعام/ ١٧].

«الشَّيْءُ»: بفتح الشين هو المصدر،
أما الاسم فهو الشؤء بالضم.

١٢ - وقال تعالى: ﴿وَيَاوَدَّ وَيَأْمُرُنَّ

لَا يَمَسُّكُمْ فِي أَلْفَرَقِ إِذْ تَفَرَّقْتُمْ بِهِ غَمٌّ
الْفَرَقِ ﴿[الآية ١٧٨].

وقوله تعالى: ﴿يَمَسُّكُمْ﴾ أي:
تفرقت ليلاً. وتَفَرَّقْتُمُ الغنم والإبل:
رَعَتْ لَيْلًا بِلَا رَاعٍ؛ وهذا معنى ما
للفعل «نَفَسَ»، لِأَنَّ النَفْسَ تَشْعِثُ
الشيء بأصابعك حتى يتشر.
والتَفَسَّ، بالتحريك، الصوف
والخضف.

١٣ - وقال تعالى: ﴿وَرَاكَ الْكَوْنُ لَا
ذَهَبَ مَظْنُونًا﴾ [الآية ٤٨٧].

أي: أله «مُضَاضِبُهُ» لقومه «فقد
أغضبهم بمفارقتهم، لخوفهم حلول
العقاب عليهم.

أقول: والمزيد «مُضَاضِبُهُ» بِمِثْلِهِم
يشير لي أن ألق عليه في خبر لغة
التنزيل.

١٤ - وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِنَّا
فُجِعَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ
حَدَبٍ يَنْبُلُونَ﴾ ﴿٣٣﴾.

الحَدَبُ: التَّشَرُّعُ مِنَ الْأَرْضِ، أي:
المرتفع.

وقوله تعالى: ﴿يَنْبُلُونَ﴾ ﴿٣٣﴾،
أي: يظهرون ويسرعون.

أقول: وفي لغة المعاصرين يقال:
جاءوا من كل حَدَبٍ وَصَوْبٍ، أي:
جاءوا من كلِّ جهة، وكثيراً ما يحفظون
فيستكون الدال من «حَدَب».

وكان أصل العبارة، أنها قابلت بين
«الحَدَب» وهو النشز المرتفع قليلاً،
وبين «الصَّوْب» الذي يدل على
الانصباب والاندثار، وهو ضد
التصعيد، وهو الإصابة والتصوُّب
أيضاً.

١٥ - وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْكُمُكُمْ وَإِنَّا
نَسُبُّكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَسْبَ مِهْنٍ
أُنْتَرُ لَهَا كَرَاهِيَةٌ﴾ ﴿٣٤﴾.

قلنا: قرأ ابن عباس: حَضَبُ جهنم
بمعنى «الحَضَب». وهو ما يُحَضَّبُ به،
أي يرمى كالحصى، وهو المحضوب
من باب قَعَلَ بمعنى مفعول مثل
الثَّلب، والخلْب ونحوهما.

وَقُرئ: «الحَضَب» بإسكان الضاد،
وهو من باب الوصف بالمصدر.
وَقُرئ: حَطَبُ بالطاء.

ومن المفيد أن نقول: إن «حَضَب»
بالضاد المعجمة، هو الحطب في لغة
اليمن.

المعاني اللغوية في سورة «الأنبياء» (*)

تري أنك تقول «الشايطين يَنْفُضُونَ» ولا تقول: «يَنْفُجِبِينَ» وإنما جمع ﴿يَنْفُضُونَ﴾ و﴿مَنْ﴾ في لفظ واحد لأن ﴿مَنْ﴾ في المعنى لجماعة. قال الشَّكَاكِرُ^(١) [من الكامل وهو الشاهد الثامن والأربعون بعد الميتين]:

لَشَا كَمَرُنْ جَعَلْتُ إِذَا دَرَقَا

تكررت تُنْظَرُ حَبْهَا أَنْ يُخْضَدَا^(٢)

وقال^(٣) [من المتقارب، وهو الشاهد التاسع والأربعون بعد الميتين]:

قال تعالى: ﴿وَأَسْرَأَ الْكَافِرَ﴾ (الآية ٢٣) كَأَنَّهُ قَالَ ﴿وَأَسْرَأَ﴾ ثم فسره بعد فقال: هم ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

وقال تعالى: ﴿تَتَلَوْنَهُمْ بَيْنَ حَكَاوَا يَطُفُونَ﴾ بتذكير الأصنام، وهي من الموات، لأنها كانت عندهم أَمْوَالٌ يعقل أو ينطق.

وقال تعالى: ﴿مَنْ أَتَتَّبِعُ مِنْ يَتُوسُونَ لَوْ﴾ (الآية ٨٢) بتذكير الشياطين، الذين لبسوا من الإنس، إلا أنهم مثلهم في الطاعة والمعصية. ألا

(٥) انظر هذا البحث من كتاب معاني القرآن للأخفش، تطبيق عبد الأمير محمد أمين الورود، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ

(١) هو الأخفش مسنون. حيزاته الفصح المعبر ٢١٥٤ واللسان أمسي. وتوكل هو المتلفس «الضاح» أمسي.

(٢) في الضاح واللسان، ومعني القرن ١/٢٨ و ٢٠٣ و ٢٥٦/٣ به «جئت» بدل «جئت» وفي المصاحف ٢/ ٤٠٢ و ٢٥٦/٣ به «ترقب» بدل «تنظر» وفي المصاحف ١٣/ ١٨٩ به «تمسح» بدل «تنظر» وفي المبرور «إلهة» و«تمسح»

(٣) نقله في البحر ٦/ ٢١٣، والجامع ١١/ ٢٨٩.

أَكُونُ بِهَا لَا أَرَى غَيْرَهَا
كَمَا طَافَ بِالْبَيْعَةِ الرَّاهِبُ
فجعل «الراهب» بدلاً من «ما» ،
كأنه قال «كالذي طاف» ويقول العرب:
«إِنَّ الْحَقَّ مَنْ صَدَّقَ اللَّهُ أَي: «الحقُّ
حَقٌّ مَنْ صَدَّقَ اللَّهُ».

وقال تعالى: ﴿يَلْقَى الْإِنْسُ مِنْ عَذَلٍ
سَأَلِيكُمْ بَأْتِيَ فَلَا تَمْتَلِكُونَ﴾^(١) يقول:
«من تعجيلي من الأمر، لأنه سبحانه
قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُيْنِ إِشْرَءُ إِذَا أَرْتَهُ أَر
مُؤَلَّاهُ كَى فَيَكُونُ﴾ [النمل/٤٠] فهذا
التعجل كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾
[النمل/ الآية الأولى] وقوله سبحانه ﴿فَلَا
تَسْتَعْجِلُونِ﴾^(٢) فإني «سَأَلِيكُمْ بَأْتِيَ»
[الآية ٣٧].

وقال تعالى: ﴿لَنْ أَلْسَنَتِي وَالْأَرْضَ
صَعَلًا رِفْعًا﴾ [الآية ٣٠] باعتبار أن
السموات والأرض صفان، كنحو قول
العرب^(٣) «فما لقاحان سوفان» وفي
كتاب الله عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُصَلِّفُ
الْأَشْيَاءَ وَالْأَرْضَ لَأُتَوَلَّى﴾ [طه/٤١]

وقال الشاعر [من الطويل وهو الشاهد
الخمسون بعد المتين].

رَأَوْا جَبَلًا فَرَّقَ الْجَبَالِ إِذَا أَلْتَقَتْ
رُؤُوسُ كَبِيرَتِهِمْ يَنْشَطِلُخَانِ^(١)
فقال «رؤوس» ثم قال «ينتطحان» وذا
نحو قول العرب «الجُزُرَات»
و«الطُرُقَات» فيجوز في ذا، أن تقول:
«طُرُقَانِ» للثنين و«جُزُرَانِ» للثنين.
وقال الشاعر^(٢) [من الكامل وهو
الشاهد الحادي والخمسون بعد
المتين]:

وإِذَا الرُّجَالُ رَأَوْا يَنْبِذَ زَائِبُهُمْ
خُضْعَ الرُّقَابِ نَوَاجِيسِي الْأَهْصَارِ
وَالسُّمَرِ تَقُولُ: «قَوَالِيَات»
و«ضَوَائِبَاتُ يَوْسَف» فهؤلاء قد كسروا
فجمعوا «ضواحب»، وهذا المذهب
يكون فيه المذكر «ضَوَاجِبُونَ» ونظيره
«نَوَاجِيسِي». وقال بعضهم «نَوَاجِيس» في
موضع جرّ، كما نقول «يَجْعَرُ قَبْ»
خَرِبَ.
وقال تعالى: ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغْنِبًا فَطَرَ

(١) نقله في إعراب القرآن ٢/٦٧١، والجامع ١١/٢٨٧.

(٢) ورد عجمي، في المحاصص ٢/٤٢٦، والمحرّك ٢/٢٠١ وورد بشابه في ٢٠٢ بلفظ «أَرَات» بدل «أَرَتْ»

(٣) هو الفرزدق مقام بن غالب، ديوانه ١/٢٧٦، والمرآة ١/٩٩، والكتاب، وتصحيف من الذهب ٢/٢٠٧

أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴿١٨٧﴾ الآية ١٨٧ أي: لن
 نقدر عليه العقوبة، لأنه قد أذنّب بتركه
 قومه، وإنما غاضب بقض الملوك،
 ولم يغازب ربه، كان بالله عز وجل،
 أعلم من ذلك^(١).



(١) قوله في إعراب القرآن ٢/٦٧٧، والجميع ١١/٣٣٠.



سازمان اسناد و کتابخانه ملی
جمهوری اسلامی ایران

لكل سؤال جواب في سورة «الأنبياء» (*)

حساب كل واحد في قبره إذا مات،
 ويؤيده قوله (ص) «من مات فقد قامت
 قيامته». الرابع: أن كل قَبْر قَرِيب،
 وإن طالت أوقات استقباله وشرقه،
 وإنما البعيد الذي وُجِدَ وانقرض،
 ولهذا يقول الناس إذا سافروا من بلد
 إلى بلد، بعدما جعلوا البلد الأول وراء
 ظهورهم: البلد الثاني أقرب، وإن كان
 أبعد مسافة.

فإن قيل: إثم قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُنْذِرٍ﴾ (الأنعام ٢) والذكر الآتي من الله تعالى هو القرآن، وهو قديم لا مُنْذِرٌ؟

قلنا: المراد أولاً مُخَذَّتْ إِنْ رَأَاهُ.
ثانياً: أَنَّ الْمَرَادَ بِهِ دُكْرُ يُكُونُ عَيْزُ
الْقُرْآنَ، مِنْ مَوَاقِعِ الرِّسُولِ (ص).

إن قيل: لم قال تعالى: ﴿اتَّقِبْ إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية الأولى، وصفه بالقرب، وقد مضى من وقت هذا الإخبار زمن طويل، ولم يَأْرِفْ يوم الحساب بعد؟

قلنا : معناه الأول : أنه قريب من الله تعالى ، وإن كان بعيداً عند الثاني . ثم قال تعالى : ﴿ وَنَمَّ يَوْمَهُدْ يَسِيْرًا ﴾ ورواه قزويني . [المعارج] وقال تعالى : ﴿ وَيَسْتَجِيبُكَ بِالْعَدَابِ وَلَنْ يُؤَلِّفَ اللَّهُ مَعَهُ أُولَئِكَ يَوْمَ جَزَاءٍ كَثِيْرٌ مِمَّا تَعْدُلُوْنَ ﴾ [الصح.] الثاني . معناه أنه قريب بالسب إلى ما مضى من الزمان .

كما قال (ص) «إن مثل ما بقي من الدنيا في جنب ما مضى، كمثل خيط في ثوب»، الثالث: أن المراد به قرب

(٥) انظر هذا البحث من كتاب «أسئلة الفروق السعيد وأجوبتي»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البني الطلي، القاهرة، غير مؤرخ.

وغيره؛ ونسب إلى الله تعالى لأن موعظة كل واحد بإلهامه وهدايته. ثالثاً: أن المراد بالذكر الذكور، وهو الرسول (ص)، وبؤيده قوله تعالى في سياق الآية ﴿هَلْ نَدَّبَا إِلَّا بَشَرًا يَنْتَلِخُمْ﴾ [البقرة: ٢٣]. وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا نَسْتَوِي﴾ الآية [٢] أي إلا استمعوا ذكره وموعظه.

فإن قيل: التجوى المساواة، فما معنى قوله تعالى ﴿وَأَسْرَأُ الْكَافِرِي﴾ الآية [٣]؟

قلنا: معناه بالغوا في إخفاء المساواة، بحيث لم يظن أحد لتباينهم ومساواتهم، تفصيلاً ولا إجمالاً؛ فإن الإنسان قد يرى اثنين يتساوان فيعلم من حيث الإجمال أنهما يتساوان، وإن لم يعلم تفصيلاً ما يتساوان به، وقد يتساوان في مكان لا يولهما أحد.

فإن قيل: لم قال تعال لمشركي مكة ﴿مَنْتَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [البقرة: ١٧] يعني فاسألوا أهل الكتاب عن مضي من الرسل، أكانوا بشراً أم ملائكة؟ مع أن المشركين قالوا، كما ورد في التنزيل: ﴿لَنْ تُؤْمِنُوا بِهِدَا الْفَرِيقَيْنِ وَلَا يُؤْمِنُ بِيَّ يَدِي﴾ [سبا: ٣١].

قلنا: هم وإن لم يؤمنوا بكتاب أهل

الكتاب، ولكن الثقل المتواتر من أهل الكتاب في القضية العقلية، يفيد العلم لمن يؤمن بكتابهم، ولمن لا يؤمن به.

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿وَلَا يَنْتَفِرُونَ﴾ [٤]، والاستحسان صالحة في الحسور وهو الإعياء؛ فكان الأبلغ في وصفهم، أن ينفي عنهم أدنى الحسور أو مُطْلَقَه، لا أقصاه؟

قلنا: إنما ذكر الاستحسان، إشارة إلى أن ما هم فيه، من التسيب الدائم، والمباداة المتصلة، يوجب غاية الحسور وأقصاه.

فإن قيل: قوله تعالى: في وصف الملائكة ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُمْ كُفْرَةٌ﴾ [٥]، إلى قوله تعالى: ﴿مُتَّقُونَ﴾ [٦]، يدل على أنهم لا يحصون الله ما أمرهم، فإذا كانوا لا يحصون الله تعالى، فليَم يخافون حتى قال سبحانه: ﴿وَقُمْ مِنْ حَتَّى يَخْشَوْا﴾ [٧]؟

قلنا: أولاً: لما رأوا ماجرى على إبليس وعلى هاروت وصاروت من الفضاء والقدر، خافوا من مثل ذلك. ثانياً: أن زيادة معرفتهم بالله، وقربهم في محل كرامته، يوجب مزيد خوفهم، ولهذا قال أهل التحقيق: من كان بالله أعرف، كان من الله أخوف؛ ومن كان

إلى الله أقرب، كان من الله أرحم.
وقال بعضهم ياعجبا من مطيع آمن،
ومن عاصي حائب.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ
الْبَرُّ كَذِبًا أَن أَرْسَلْنَا إِلَى الْأَرْضِ مَكَّاتًا
رَبَّنَا فَفَقَعْنَاهُمْ﴾ [الأنعام ٢٠] وهم لم يروا
ذلك؟

قلنا: معناه: أولم يعلموا ذلك
بأخبار مَنْ قَبْلَهُمْ، أو بوروده في القرآن
الذي هو معجزة في نفسه، ونظيره قوله
تعالى للنبي (ص): ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ
يُخَوِّضُ لَكَ مَن فِي الْأَشْجَارِ وَالْأَرْضِ﴾ [سودا
٤١] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزِيلُ
سَاءَ﴾ [سودا ٤٣]، ونظائره كثيرة.

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا
بَيْنَ الْمَاءِ كُلِّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ [الأنعام ٣٠] مع أن
الملائكة أحياء والجن أحياء، وليسوا
مخلوقين من الماء، بل من النور
والنار، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الْجِبَانَ
بَيْنَ مَآبِجٍ بَيْنَ ثُلُوجٍ﴾ [الرحمن] وكذا
أدم مخلوق من التراب، وناقصة صالح
مخلوقة من الحجر؟

قلنا: المراد به البعض، وهو
الحيوان، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْوَيْتَ
بَيْنَ سَكَلٍ مِّنْ مَّاءٍ﴾ [النمل ٢٣] وقوله
تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا بِرَبِّهِمْ كَلِمَةً﴾

[يونس ٢٢] ونظائره كثيرة. الثاني: أن
الكُلَّ مخلوقون من الماء، ولكن
البعض بواسطة، والبعض بغير واسطة.
ولهذا قيل إنه تعالى خلق الملائكة من
ريح خلقها من الماء، وخلق الجن من
نار خلقها من الماء، وخلق آدم من
تراب خلقه من الماء.

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿فَلَا
تَسْتَوُونَ﴾ [البقرة ٢٢٠] بعد قوله سبحانه:
﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ حَبْلٍ﴾ [الأنعام ٣٧]
وكانه تكليف بما لا يطاق؟

قلنا: هذا، لما ركب فيه الشهوة،
وأمر أن يغلها، لأنه أعطاه القدرة،
التي يستطيع بها فُتْحُ الشهوة، وتَرْكُ
العجلة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَلَا
يَسْمَعُ الْكُفْرُ الْكَلِمَةَ إِنَّمَا مَا
يُذَكَّرُ بِهَا﴾ [الأنعام ٢٥] مع أن الكفر لا يسمعون
الدعاء إذا ما يُبَشَّرُونَ أَيْضًا؟

قلنا: اللام في الضم إشارة للمذنبين
السابق ذكرهم، بقوله تعالى: ﴿قُلْ
إِنَّمَا أُذَكِّرُكُمْ بِالْوَيْتِ﴾ [الأنعام ١٥] فهي
لام العهد، لا لام الجنس.

فإن قيل: لِمَ قال إبراهيم صلوات الله
عليه، كما ورد في التنزيل: ﴿قُلْ لَعَلَّكُمْ

كَرِيمٌ هَذَا ﴿٧٠﴾ الآية (٧٣) أَحَالَ كَسْر
الأصام على الصنم الكبير، وكان
إبراهيم هو الكاسر لها؟

قلنا: أولاً: قاله على طريق
الاستهزاء، والتهكم بهم، لا على طريق
الجد. ثانياً: أنه لما كان الحامل له
على كسرها، اغتياباً من رؤيتها
مصوفة مرتبة للعبادة، مبتلة معظمة،
وكان اغتيابها من كبيرها أعظم، لمزيد
تعظيمهم له، أسند إلى سببه، وإلى الحامل عليه.
ثالثاً: أنه أسند إليه معلقاً بشرط متب،
لا مطلقاً، فقهره: فعلة كبيرهم هذا،
إن كانوا ينطقون. فإن قيل: لِمَ إخطب
تعالى النار، بقوله: ﴿يَنكُرُ كُرِّيَ بَرًا
وَمَلَأَ عَنْ إِزْهِيَةٍ﴾ (الخطاب،
إنما يكون لِيُشْرَ يعقل؟

قلنا: خطاب التحويل والتكوين لا
يختص بمن يعقل، قال الله تعالى
﴿يَنبِئُكَ أُولَىٰ مَمَرٍ﴾ (سجاء/١٠) وقال
تعالى: ﴿مَنْ لَّمَّا وَلَلَّذِينَ تَنَزَّلُوا أَوْ
كُرْهُا﴾ (فصلت/١١) وقال تعالى:
﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلُيْ مَكَدَكَ فَاسْكَنْكَ
أَتَيْنِ﴾ (الحرد/١٢).

فإن قيل: لِمَ وصف الله تعالى
الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بكونهم

من الصالحين، بقوله تعالى ﴿وَلَيْسَ كِبَرُ
وَلَدِيٍّ وَكَأَ الْكِبَرِ﴾ (الآية ٨٥)، مع أن
أكثر المؤمنين صالحون، خصوصاً في
الزمن الأول؟

قلنا: معناه أنهم من الصالحين
للإدخال في الرحمة، التي أريد بها
النبوة على ما فسرهم مقاتل، أو الجنة
على ما فسره ابن عباس رضي الله
عنهما؛ ويؤيد ذلك قول سليمان
صلوات الله عليه، كما ورد في
التنزيل: ﴿وَلَأَيُّبِي بِرَحْمَتِكَ فِي يَوْمِكَ
الْكَلِيمِ﴾ (السل) أي الصالحين
للعمل المرضي، الذي سبق سؤاله.

فإن قيل: لم قال تعالى هنا ﴿وَلَأَيُّبِي
أَنصَحْتَ فَرَجَهَا فَمَعَا يَهَا مِنْ
رُوحَا﴾ (الآية ٩١) وقال في سورة
التحريم ﴿وَمَرَّ أَمَّتْ يَمْرُكُ أَلَّتْ أَنصَحْتَ
فَرَجَهَا فَمَعَا يَهُ مِنْ رُوحَا﴾
(التحريم/١٢).

قلنا: حيث آتت أراد النفخ في
ذاتها، وإن كان مبدأ النفخ من الفرج
الذي هو مخرج الولد، أو جيب درعها
على اختلاف القولين، لأنه فُرْجَة،
وكل فُرْجَة بين شيتين تسمى فُرْجاً في
اللغة، وهذا أبلغ في الثناء عليها؛ لأنها
إذا منعت جيب درعها ممّا لا يحل،

كانت لنفسها أمنع، وحيث ذكرَ
مظاهر.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿وَحَرَّمْ عَلَىٰ قُرْبَىٰكَ أَهْلَكَهَا أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٥٠) يدل على أنه يجب أن يرجعوا، لأن كل ما حُرِّمَ أن لا يوجد، وجب أن يوجد، فما معنى الآية؟

قلنا: معناه: واجب على أهل قرية، عزمنا على إهلاكهم، أو قتلنا إهلاكهم، أنهم لا يرجعون على الكفر إلى الإيمان، أو أنهم لا يرجعون بعد إهلاكهم إلى الدنيا، فالحرام هنا بمعنى الواجب، كذا قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ويؤيده قول الشاعر:

لَبِئْسَ خَرَاباً لَا أَرَى الْفُحْرَ بِكَيًّا
عَلَى شَجَرَةٍ إِلَّا بُكِّيتُ عَلَى غَمْرٍ
وقيل لفظ الحرام على ظاهره، وهـ لا زائدة، والمعنى ماسبق ذكره، والحرمة هنا بمعنى المنع، كما في قوله تعالى: ﴿وَحَرِّمْنَا عَلَى الْمُرَاضِعِ مِنْ قَبْلِ﴾^(١٢) [الفصم] وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَآتٍ حَرِّمُكَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(١٣) [الأمرء].

فإن قيل: قوله تعالى ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ سَكَنَتْ لَهُمْ مِنَّا الصُّلُوكُ أُولَئِكَ صَبَّاحٌ مَعْدُودٌ﴾^(١٤) وفال في موضع آخر.

﴿وَلَا تَنْكُرْهُ إِلَّا وَأَرْحَمُهُ﴾ [إبراهيم ٧١]
وواردها ليكون قريباً منها لا بعيداً.

قلنا معناه مُبْعَدُونَ عن ألمها وعذابها، مع كونهم وارديها، أو معناه مُبْعَدُونَ عنها بعد ورودها، بالإنباء المذكور بعد الورد، فلا تنافي بينهما.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١٥) مع أن النبي (ص) لم يكن رحمة للكافرين، الذين ماتوا على كفرهم، لأنه لولا إرساله إليهم، لما عذبوا بكفرهم، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾^(١٦) كُنْتُ رَسُولًا^(١٧) [الإسراء].

قلنا: أولاً: بل كان رحمة للكافرين أيضاً، من حيث أن عذاب الاستئصال أَخْرَجَهُمْ بِهِ. ثانياً: أنه كان رحمة عامة، من حيث أنه جاء بما يُسعدهم إن اتبعوه، ومن لم يتبعه فهو الذي قُصِرَ في حق نفسه، وضُيْعَ نصيبه من الرحمة، وَمَثَلُهُ (ص) كمثل عين ماء حليلة، فجبرها الله تعالى، فسقى ناساً زروعهم ومواشيهم منها فأملحوا! وفرط ناس في السقي منها، فصيموا! فالعين في نفسها نعمة من الله تعالى للفرقيين ورحمة، وإن قُصِرَ البعض وفرطوا. ثالثاً: أن المراد بالرحمة

الرحيم، وهو (ص) كان وحيداً للفرقين، ألا ترى أنهم لما شجّوه يوم أحد، وكسروا ريعيته حتى خزّ مفتحاً عليه، فلمّا أفاق قال اللهم اغدِ قومي فإنهم لا يعلمون؟

فإن قيل لمّ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا أَتَتْكُمْ آلُكُمْ أَوْ بَوَيْدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ مع إخباره تعالى إليّهم يقرب الساعة، بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَتَرُكُمْ أَفْوَ﴾ [النمل/ الآية الأولى] وقوله تعالى: ﴿الْفَتْرَةِ كَالسَّاعَةِ﴾ [النمل/ الآية الأولى] ونحوهما.

قلنا: معناه ما أدري أنّ العذاب الذي توعدونه وتهّدون به، ينزل بكم إجماعاً أو أجلاً، وليس المراد به قيام الساعة، ويردّ على هذا الجواب، أنّه قريب على كل تقدير؛ لأنّه إن كان قبل قيام الساعة، فظاهر، وإن كان بعد قيام الساعة، فهو كالمتمصل بها، لسرعة زمن الحساب، فيكون قريباً أيضاً.

فإن قيل: إذا كان المؤمنون يعتقدون أنّ الله تعالى لا يُحكم إلاّ بالحقّ، فما فائدة الأمر والإخبار المتملّق بهما، بقوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة/ الآية ١١٢]؟

قلنا: أولاً ليس المراد بالحق هنا ما هو نقيض الباطل؛ بل المراد به ما وعده الله تعالى إياه، من نصر المؤمنين وخذلان الكافرين، وَوَعْدُهُ لا يكون إلاّ حقّاً. فكان السّياق: سجّل لنا وعدك وأنجزه. ونظيره قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف/ السّاتس: أنّه يأكّد لما في التصريح بالصفة من المبالغة، وإن كانت لازمة للفعل، ونظيره في عكسه من صفة اللّم، قوله تعالى: ﴿وَيُلْقُونَ الْأَنْبَاءَ يُفَوِّسُ﴾ [الاحزاب/ الآية ١١٢].

المعاني المجازية في سورة «الأنبياء» (*)

قوله سبحانه: ﴿وَكَمْ قَصَصْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ [الأنبياء ١١] وحقيقة القصص، كسر الشيء الصلب. وجعل هنا مستعاراً، للتعبير عن إهلاك الجبابرة من أهل القرى، أضل ما كانوا عيدين، وأمنع أركاناً.

وقوله سبحانه: ﴿فَمَا رَأَتْ يَقَعَنَّ دَعْوَتُهُمْ عَنِ جَعَلْنَاهُمْ حَيْرَانًا﴾ [١٥]. وفيه هله الآية استعارتان: لأنه سبحانه جعل القوم الذين أهلكهم بعنابه، بمنزلة النبات المحصور، الذي أيسم بعد قيامه، وأعيد بعد اشتطاطه واهتزازه.

والاستعارة الأخرى قوله تعالى: ﴿حَيْرَانًا﴾ [١٦]. والخمود من صفات النار، كما كان الحصيد من صفات

النبات. فكانه سبحانه، شبه همود أجسامهم بعد خراكتها، بخمود النار بعد اشتعالها. وقد يجوز أيضاً، والله أعلم، أن يكون المراد تشبيههم بالنبات، الذي حصد، ثم أحرق. فيكون ذلك أبلغ في صفتهم بالهلاك واليهوان، وإشعاع المعالم والآثار، لاجتماع صفتي الحصد والإحراق. وقال سبحانه: ﴿حَيْرَانًا حَيْرَانًا﴾ [١٧]. ولم يقل خامداً، كما قال تعالى: ﴿مَلَكَ أَصْفَهُمْ لَمَّا حَسِبْنَاهُمْ﴾ [١٨]. ولم يقل خاضعة. لأنه، سبحانه، رذ معنى خاضعين على أصحاب الأعناق. وكذلك يجوز رذ معنى خامدين على القوم الذين

(*) انتهى هذا المبحث من كتاب «تلخيص البيان في معاني القرآن الكريم» للشيخ محمد عبد المحي حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، شهر مؤرخ.

أهلكوا، لا على النبات الذي به
شبهوا.

وقيل معنى قوله تعالى: ﴿حَقَّ
جَمَلَتُهُمْ حَيِّدًا﴾ أي سَلَطْنَا عَلَيْهِم
السيف يختليهم، كما تحتل الروع
بالمحل. وقد جاء في الكلام: جعله
الله حصيد سيفك، وأسير خوفك.

وقوله سبحانه: ﴿بَلْ قَدِيقٌ لَّيَالِي عَلَى
الْبَيْتِ قَدِمْتُمْ لَكَا هُوَ رَاقٍ وَلَكُمْ الْوَالِدُ
يَمَّا تَمُوتُونَ ۝﴾. وهذه استعارة. لأن
حقيقة القذف من صفات الأشياء
الثقيلة، التي يُزجَم بها، كالجبنارة
وغيرها. فجعل سبحانه، لإبراهيم الحق
على الباطل، بمنزلة الخنجر الثقيل،
الذي يرض ماضك، ويدمغ ما منته.
ولما بدأ تعالى بذكر قذف الحق على
الباطل، ولَّى الاستعارة حَقًّا، وأعطاهما
واجبها، فقال سبحانه: ﴿قَدِمْتُمْ ۝﴾
ولم يقل فيذهب ويطله. لأن التمع إنما
يكون من وقوع الأشياء الثقال، وعلى
طريق الغلبة والاستعلاء. فكان الحق
أصاب دماغ الباطل فأهلكه. والدماغ
مقتل. ولذلك قال سبحانه من بعد:

﴿يَا هُوَ رَاقٍ﴾ والراقي: الهالك.

وقوله سبحانه: ﴿لَوْ لَرَّ بَرَّ النَّيِّ كَرَّيَا
لَنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كَلَّا رَنَّا
فَفَتَقْنَهُمَا ۝﴾ [الآية ١٣٠]. وهذه استعارة.
لأن الرشق هو شدَّ خصاصة الشيء.
ويقال: رَشَقَ فلان الفشق، إذا شُدَّ.
ومنه قيل للسرقة: رَشَقَاء، إذا كان
موضع قرها من الذَّكر ملتصقا. وأصل
ذلك مأخوذة من قولهم: رَشَقَ فشق الخباء
والفُسطاط وما يجري مجراهما، إذا
خاطه. فكان السموات والأرض كانتا
كالشيء المتخيط المتلتصق بعضه
ببعض، ففتقهما سبحانه، بأن صدَّع ما
بينهما بالهواء الرقيق، والجو الفسيح.

وروي عن أمير المؤمنين علي بن
أبي طالب، عليه السلام، معنى أن
السموات كانت لا تمطر، والأرض
لا تنبت، ففتق الله سبحانه السماء
بالأمطار، والأرض بالنبات^(١).

وقوله سبحانه: ﴿وَصَحَلَا أُنَمَّا
سَقًا مَحْمُوطًا ۝﴾ [الآية ١٣٢] وهذه
استعارة. لأن حقيقة السقف ما أظَلَّ
الإنسان، من علو بيت أو خاء، أو ما

(١) سب الشريف الرضي الكلام للإمام علي بن أبي طالب. وهذا التصير صوب لابن عباس رضي الله عنهما؛
انظر صحت المرفوع في علوم القرآن للقرطبي ج ٦ ص ٤٨٣. ورواية الإمام الشيباني في «الإصابة» تزيد قولنا،
انظر ص ١٨٧ ج ٢ من كتاب «الإصابة» في علوم القرآن للسيوطي.

يجري مجرى ذلك. فلما كانت السماء تُبْلَى مِنْ تَحْتِهَا، وتعلو على أرضها، حَسُنَ أَنْ تَسْمَى سَفْعاً لَذَلِكَ. ومعنى «محموظاً»: أي تُخَفِظُ، مما لا يمكن أَنْ تُخَفِظَ مِنْ مثله سائر السقوف، من الانسراج والانهدام والتشُّث والاستمرام. وقد قيل: معنى ذلك، حَفِظَ السَّمَاءُ مِنْ مَسَارِقِ السَّمَحِ، وتحصينها بمقاذف الشَّهَبِ.

وقوله سبحانه: ﴿وَعَوَّ الْيَبَىٰ خَلَقَ الْبَلَّ وَالنَّهَارَ وَاللَّيْلَ وَالنَّجْمَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾. وهذه استعارة، لأن أصل السَّبح هو التَّغْلِبُ والانتشار في الأرض. ومنه السَّباحة في الماء. ولا يكون ذلك إِلَّا مِنْ حَيَوَانَ يَتَصَرَّفُ. ولكنَّ الله سبحانه، لَمَّا جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالْقَمَرَ وَالشَّمْسَ مَسْجُورَةً لِلتَّغْلِبِ فِي هَذَا الْفَلَكَ الدَّائِرِ وَالصَّفِيحِ السَّائِرِ، تَنَعَّاقِبَ فِيهِ وَتَتَفَايَرُ تَتَقَارِبُ وَتَتَبَاعَدُ، حَسُنَ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْهَا بِمَا يُعَبَّرُ بِهِ عَنْ الْحَيَوَانَ الْمُتَصَرِّفِ، وَزِيدَتْ عَلَى ذَلِكَ شَيْئاً، فَعَبَّرَ عَنْهَا بِمَا يُعَبَّرُ بِهِ عَنْ الْحَيَوَانَ الْمُمَيَّزِ. فـقِيلَ: «يسبحون»، ولم يقل: تسبح، لأنها، في الجري على الترتيب الثمّن والتقدير المحكم، أقوى تصرفاً من الحيوان غير المميّز.

ولأن الله سبحانه أضاف إليها الفعل على تدبير ما يعقل، فَحَسُنَ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْهَا بِمَا يَعْقِلُ، مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ رَأَيْتَ أَنَّ عَيْنَ عِزَّتِكَ رُكُودًا وَالنَّجْمَ وَالْقَمَرَ وَالْأَنْبِيَاءَ فِي سَجْدَتِكَ﴾ (يوسف). ومثل قوله سبحانه: ﴿فَأَنزَلْنَا سَلَكًا يَكُنَّ فِيهَا النَّجْمُ لِأَكْفَلُوا مَنَاسِكَكُمْ﴾ (السل/١٨) فقال سبحانه: ﴿أَنزَلْنَا﴾ ولم يقل انْزَلْنَا. لأن خطابها لَنَا خرج على مخرج خطاب من يعقل، كان الأمر لها على مثال أمر من يعقل. وقد مضى الكلام على ذلك فيما تقدّم.

وكوله سبحانه: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (الآية ٣٧). وهذه استعارة. والمراد أَنَّ الْإِنْسَانَ خَلَقَ مُسْتَعِجلاً يَطْلُبُ مَا يُوَثِّرُهُ، وَاسْتَطْرَافَ مَا يَحْدِرُهُ. والله سبحانه إِنَّمَا يَعْطِيهِ مَا يَطْلُبُ، وَيَصْرِفُ عَنْهُ مَا رَهَبَ، عَلَى حَسَبِ مَا يَعْلَمُهُ مِنْ مَصَالِحِهِ، لَا عَلَى حَسَبِ مَا يَسْنَحُ مِنْ مَآرِبِهِ.

وقيل ذلك على طريق المبالغة في وصف الإنسان بالمجلة، كما يقال في الرجل الذكي: إِنَّمَا هُوَ نَارٌ تَتَوَقَّدُ، وَلِلْإِنْسَانِ الْبَلِيدِ: إِنَّمَا هُوَ حَجَرٌ جَامِدٌ.

فَأَمَّا مَنْ قَالَ مِنْ أَصْحَابِ التفسير: إِنَّ الْعَجَلَ هُنَا اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الطَّيْنِ،

وأورد عليه شاهداً من الشعر، فلا اعتبار بقوله، ولا التعمات إلى شاعره، فإنه شعر مؤلّد وقول قاصد^(١).

وقوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا تَسْتَنْهَرُ نَفْعًا مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ تَبْهَتُ أَنْ يَقُولَ إِنَّا وَكُنَّا عَلَيْهِمْ عَنِينًا﴾. ولفظ النفعة ههنا مستعار. والمراد بها، إصابه الشيء اليسير من العذاب.

يقال: نفع فلان فلاناً بيده. ونفع الفرس فلاناً بحافره. إذا أصابه إصابة خفيفة، ولم يبلغ في إيلاسه الغاية، فكان النفعة ههنا قدر يسير من العذاب، يدلّ واقعه على عظيم متوقّعه، وشاعره على قطع غايته.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ لِيُسْأَلْ عَنْ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطَلِقُونَ﴾. وهذه استعارة. والمراد بها وصف مالحقهم من الخضوع والاستكانة والإطراق، عند لزوم الحقّة، فكانهم شَبَّهُوا بالمتزدي على رأسه، تدويحاً بنصوع البيان، وإيلاسا حد وضوح البرهان.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَحْيِيَنَّ مِنْ قَرْيَةٍ بَلَدًا لَمَّا كَانَتْ تُغْمَلُ لَقَبَكُوتُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْرٍ فَتَيْقِينَ﴾. ولفظ القرية ههنا مستعار. والمراد به، الجماعة التي كانت تعمل الخبائث، من أهل القرية. وكشف سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْرٍ فَتَيْقِينَ﴾. وفي هذا الكلام خبر عجيب، لأنّ تعالى جعل ما يلي لفظ القرية مؤنثاً، إذ كانت مؤنثة، فقال: ﴿الَّتِي كَانَتْ تُغْمَلُ لَقَبَكُوتُ﴾. وجعل بقية الكلام مذكراً، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْرٍ فَتَيْقِينَ﴾. لأنّ المراد به مذكراً، نصار الكلام في الآية على قسمين، قسم عائد إلى اللفظ، وقسم عائد إلى المعنى، وهذا من عجائب القرآن.

وقوله سبحانه: ﴿وَسَحَّرْنَا مَعَ قَاوُدَ الْجَبَالَ يُسَبِّحُونَ وَالْكَلِيدَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾. ونسج ههنا استعارة. وقد مضى من الكلام في الزعده على قوله تعالى: ﴿وَيَسْبِغُ الرِّعْدُ بِحَمِيمٍ﴾. [الزعدة/١٣] ما هو بعينه تأويل تسبيح

(١) أما الشعر الذي أشدّوه، ليشبّوا به أن القليل هو الكثير، فهو قول الشاعر

والسبح في الضخمة الصغرى منقبة والقليل ينبت بين الماء والفضيل

نظر طبعناج لأحكام الحركة للقرطبي ج ١١ ص ٢٨٩.

الجبال ههنا. وقد قيل في ذلك وجه آخر، يخرج به الكلام من حد الاستعارة. وهو أن يكون قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ﴾ ههنا مأخوذاً من التسبيح، وهو الإبعاد في السير، والتصرف في الأرض. لا من التسبيح المعروف. فكانه تعالى قال: وسخرنا مع داود الجبال يسبحن في الأرض معه، ويتصرفن على أمره، طاعة له. ونظير ذلك قوله سبحانه في «سبا»: ﴿يَسْبِيحُ أُولَىٰ نَعْمَ وَالْأُولَىٰ﴾ (سبا: ١٠) أي يسري معه. والتأويل السير.

وإنما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ﴾ عبارة عنها، بتكثير الفعل من السبح.

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ لَكَ فِي آتِكِ مَكَا طُولًا﴾ (المزمل: ١) أي تصرفاً ومتسماً، ومجالاً ومُنْتَسِماً.

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِي أَتَمَمَّتْ قَرْنَهَا فَفَتَحْنَا بِهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ [الأنعام: ٩١]. وهذه استعارة. والمراد ههنا بالروح: إجراء روح المسيح (ع)، في مريم (ع)، كما يجري الهواء بالنفخ. لأنه حصل معها من غير علوق من ذكر، ولا انتقال من طبق إلى طبق.

وأضاف تعالى الروح إلى نفسه، لِمَرْيَمَ الاختصاص بالتعظيم، والاصطفاء بالتكريم. إذ كان خلفه المسيح (ع)، من غير توسط مناكحة، ولا تقدم علامة.

وقوله سبحانه: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَرْحَمَ بَيْنَهُمْ كَلًّا لِأَنَّكُمْ رَجُومًا﴾. وهذه استعارة. والمراد بها: أنهم تفرقوا في الأهواء، واختلفوا في الآراء، وتقسمتهم المذاهب، وتشعبت بهم الولائج^(١). ومع ذلك فجميعهم راجعون إلى الله سبحانه، على أحد وجهين: إما أن يكون ذلك رجوعاً في الدنيا، فيكون المعنى: أنهم، وإن اختلفوا في الاعتقادات، صالُّون إلى الإقرار بأن الله سبحانه خالقهم ورازقهم، ومُضَرِّئهم ومُدَبِّرهم. أو يكون ذلك رجوعاً في الآخرة، فيكون المعنى: أنهم راجعون إلى الدار التي جعلها الله تعالى مكان الجزاء على الأعمال، ومَوْفَى الثواب والعقاب؛ وإلى حيث لا يَخْطَأُ فيهم، ولا يملِك أَمْرهم، إلا الله سبحانه.

وَسَيِّئُهُ نَخَالَفُكُمْ فِي الْمَذَاهِبِ،

(١) الولائج جمع رليجة، وهي طائفة الإنسان، ومن يخلط معتقداً عليه من غير اهله

وتفرقهم في الطرائق، مع أن أصلهم واحد، وخالفهم واحد، يقوم كانت بينهم وسائل متناسجة، وعلائق متشاككة، ثم تباعدوا تباعداً فطُغ تلك العلائق، وشذَّب تلك الوسائل، مضاروا أخياراً^(١) مختلفين، وأوزاعاً^(٢) مفترقين.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتَر لَهَا كَرْدُونَ﴾^(٣) هذه استعارة، لأن الحَصَب هو ما يُرمى به من الحصباء، وهي الحصى الصغيرة يقال: حَصَب فلان فلاناً، إذا قذفه بالحصى. ويقولون: حَصَبًا آلَ جَسَّارٍ أي قذفنا فيها بالحصباء، فشبهه سبحانه، فذُفِّهم في نار جهنم، بالحصباء التي يرمى بها من ذُلِّ مَنَافِئِهِمْ، وغَواضِ مطارحِهِمْ.

وفي ذلك أيضاً معنى لطيف، وهو أنه سبحانه لما قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ والمراد مُهِنًا، والله أعلم، به ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾: الأصنام، والأغلب عليها أن تكون من الحجارة، حَسَنَ أن يسمَّى

الرمي بها في نار جهنم حَصَبًا، وتسميتها حَصَبًا إذ كانت حجارة، ومن جنس الحصباء، وجاز أن يسمَّى قذف العابدين لها في النار أيضاً بذلك، حَصَلًا على حكمها، وإدخالاً في جملة.

والفائدة في قُذِفَ الأصنام مع عابديها في نار جهنم، أن يكون من زيادات عقابهم، ورجحانات عذابهم، لأنهم إذا كثرت مشاهدتهم لها في أحوال العذاب، كان ذلك أعظم لحسرتهم على عبادتها، وتذمهم على الذمَّاء إليها.

وقد قول أيضاً: إنها إذا حُميت بِوَقُودِ النَّارِ سَبَّحُوا بِاللهِ منها، لُحِثَتْ بأجسامهم، فكانت من أقوى أسباب الإيلام لهم. وعلى هذا التأويل، حُثِلَ جماعة من المفسرين، قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَقُودُوا أَنفُسَ وَأَلْمَانَةً أَتَيْتَ الْكَافِرِينَ﴾^(٤) [البقرة].

وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ نَقُورُ الْكَفَّاءَ كُلِّي السَّيِّئِ لِلْكَثِيرِ﴾^(٥) [الأنعام: ١٠٤]. وهذه استعارة والمراد بها على أحد

(١) الأخيار: المختلرون. يقال هم إخوة أسيف، أي لهم واحدة والآية شتى

(٢) الأوزاع: الجماعات. ولا واحد لها

القولين: إبطال السماء ونقض بُيُوتِهَا، وإعدام جملتها. من قولهم: طوى الدهر آل فلان، إذا أهلكهم وعنى أثارهم. وعلى القول الآخر، يكون الطيُّ مُهنا على حقيقته فيكون المعنى: إِنَّ عَرْشَ السَّمَوَاتِ يَطْوِي حتى يجتمع بعد اتسارده، ويتقارب بعد تباعد أقطاره. فبصير كالسَّجَلِ المطوي؛ وهو ما يُكتب فيه من جلد أو قرطاس، أو

ثوب، أو ما يجري مجرى ذلك. والكتاب، هُنا، مصدر، نقول: كتبت كِتَابَةً، وكتاباً، وكُتِّبَ، فيكون المعنى يوم نطوي السماء كطيَّ السَّجَلِ ليكتب فيه، فكأنه تعالى قال: كطيَّ السَّجَلِ للكتابة، لأنَّ الأهلِبَ في هذه الأشياء التي أومأنا إليها أن تُطوى، قبل أن تقع الكتابة فيها؛ لأنَّ ذلك الطيُّ أبلغ في التمكن منها.



سازمان اسناد و کتابخانه ملی
جمهوری اسلامی ایران

الفهرس

سورة النحل

المبحث الأول

- ٣ أهداف سورة «النحل»
٣ عرض إجمالي للسورة
٥ التوحيد في السورة
٥ يَمُحُ الله
٧ وحدة الأنوحية
٩ أدلة الوجدانية
٩ اسم السورة
١٠ مظاهر القدرة الإلهية
١١ الأوامر والنواهي
١٢ ختام سورة النحل

المبحث الثاني

- ١٥ ترابط الآيات في سورة «النحل»
١٥ تاريخ نزولها ووجه تسميتها
١٥ الغرض منها وترتيبها
١٦ إبطال الشرك
١٦ رد شبهة لهم على القرآن

- ١٧ _____ عود الى إبطال شركهم
- ١٨ _____ رد شبهة لهم على البعث
- ١٨ _____ رد شبهة لهم على النبوة
- ١٨ _____ عود الى إبطال أنواع من الشرك
- ٢١ _____ عود الى رد شبهتهم على القرآن
- ٢٢ _____ الخاتمة

المبحث الثالث

- ٢٥ _____ أسرار ترتيب سورة «النحل»

المبحث الرابع

- ٢٧ _____ مكنونات سورة «النحل»

المبحث الخامس

- ٢٩ _____ لفظة التنزيل في سورة «النحل»

المبحث السادس

- ٣٥ _____ المعاني اللغوية في سورة «النحل»

المبحث السابع

- ٣٩ _____ لكل سؤال جواب في سورة «النحل»

المبحث الثامن

- ٥١ _____ المعاني المجازية في سورة «النحل»

سورة الإسراء

المبحث الأول

- ٦١ _____ أهداف سورة «الإسراء»

- ٦١ _____ الإسراء

٦٣ وعد الله لبني إسرائيل

٦٥ أوامم المشركين، وجميع القرآن الكريم

٦٧ من أسرار الإعجاز في سورة الإسراء

المبحث الثاني

٦٩ ترابط الآيات في سورة «الإسراء»

٦٩ تاريخ نزولها ووجه تسميتها

٦٩ العرض منها وترتيبها

٧٠ إثبات الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى

٧٠ الموازنة بين كتابي المسجلين

٧٢ بيان حكمه الإسراء

٧٤ عود إلى بيان فضل القرآن

المبحث الثالث

٧٧ أسرار ترتيب سورة «الإسراء»

المبحث الرابع

٧٩ مكتونات سورة «الإسراء»

المبحث الخامس

٨٣ لغة التنزيل في سورة «الإسراء»

المبحث السادس

٨٧ المعاني اللفوية في سورة «الإسراء»

المبحث السابع

٩١ لكل سؤال جواب في سورة «الإسراء»

المبحث الثامن

١٠٥ المعاني المجازية في سورة «الإسراء»

سورة الكهف

المبحث الأول

- ١١٣ أهداف سورة «الكهف»
١١٣ سورة مكية
١١٤ القصص في سورة الكهف
١١٤ قصة أصحاب الكهف
١١٥ قصة موسى والخضر
١١٧ قصة ذي القرنين
١١٩ أهداف سورة الكهف

المبحث الثاني

- ١٢٥ ترابط الآيات في سورة «الكهف»
١٢٥ تاريخ نزولها ووجه تسميتها
١٢٥ الغرض منها وترتيبها
١٢٦ المقدمة
١٢٦ قصة أصحاب الكهف
١٣١ قصة ذي القرنين
١٣٢ الخاتمة الآيات

المبحث الثالث

- ١٣٥ أسرار ترتيب سورة «الكهف»

المبحث الرابع

- ١٣٧ مكنونات سورة «الكهف»

المبحث الخامس

- ١٤٣ لغة التنزيل في سورة «الكهف»

المبحث السادس

المعاني اللغوية في سورة «الكهف» ١٤٩

المبحث السابع

لكل سؤال جواب في سورة «الكهف» ١٥٣

المبحث الثامن

المعاني المجازية في سورة «الكهف» ١٦٥

سورة مريم

المبحث الأول

أهداف سورة «مريم» ١٧٩

أهداف السورة ١٧٩

القصص في سورة مريم ١٨٠

حكمة خلق عيسى (ع) ١٨٢

قصة ميلاد عيسى (ع) ١٨٣

أسلوب القرآن ١٨٥

المعالم الرئيسة في السورة ١٨٦

المبحث الثاني

ترابط الآيات في سورة «مريم» ١٨٩

تاريخ نزولها ووجه تسميتها ١٨٩

الغرض منها وترتيبها ١٨٩

نصف من قصص بعض الرسل ١٨٩

انحراف خلقهم عن سُنتهم ١٩٠

المبحث الثالث

أسرار ترتيب سورة «مريم» ١٩٣

المبحث الرابع

- ١٩٥ _____ مكنونات سورة «مريم»
المبحث الخامس
- ١٩٧ _____ لغة التنزيل في سورة «مريم»
المبحث السادس
- ٢٠٣ _____ المعاني اللغوية في سورة «مريم»
المبحث السابع
- ٢٠٧ _____ لكل سؤال جواب في سورة «مريم»
المبحث الثامن
- ٢١٧ _____ المعاني المجازية في سورة «مريم»

سورة طه

المبحث الأول

- ٢٢١ _____ أهداف سورة «طه»
- ٢٢١ _____ معنى طه
- ٢٢٢ _____ أهداف السورة
- ٢٢٢ _____ من أهداف سورة طه:
- ٢٢٣ _____ قصة موسى (ع) في القرآن
- ٢٢٤ _____ قصة موسى في سورة طه
- ٢٢٦ _____ أدلة موسى (ع) على وجود الله تعالى
- ٢٢٧ _____ موسى والسحرة
- ٢٢٨ _____ غرق فرعون ونجاة موسى
- ٢٢٨ _____ موسى والسامري
- ٢٢٩ _____ مشاهد القيامة وحتم السورة

المبحث الثاني

- ترابط الآيات في سورة «طه» ٢٣١
- تاريخ نزولها ووجه تسميتها ٢٣١
- الفرص منها وترتيبها ٢٣١
- الحث على الصبر ٢٣٢
- قصة موسى ٢٣٢
- قصة آدم ٢٣٤
- الخاتمة ٢٣٥

المبحث الثالث

- أصناف ترتيب سورة «طه» ٢٣٧

المبحث الرابع

- مكتوبات سورة «طه» ٢٣٩

المبحث الخامس

- لغة التنزيل في سورة «طه» ٢٤١

المبحث السادس

- المعاني اللغوية في سورة «طه» ٢٤٥

المبحث السابع

- لكل سؤال جواب في سورة «طه» ٢٤٩

المبحث الثامن

- المعاني المجازية في سورة «طه» ٢٥٧

سورة الأنبياء

المبحث الأول

- ٢٦٥ أهداف سورة «الأنبياء»
٢٦٥ الغرض منها وترتيبها
٢٦٧ نظم السورة
٢٦٨ أشواط أربعة
٢٦٨ الشوط الأول
٢٦٨ الشوط الثاني
٢٦٩ الشوط الثالث
٢٦٩ الشوط الرابع

المبحث الثاني

- ٢٧١ تروابط الآيات في سورة «الأنبياء»
٢٧١ تاريخ نزولها ووجه تسميتها
٢٧١ الغرض منها وترتيبها
٢٧١ إنذارهم باقتراب حسابهم
٢٧٣ قصص الأنبياء
٢٧٥ الخاتمة

المبحث الثالث

- ٢٧٧ أسرار ترتيب سورة «الأنبياء»

المبحث الرابع

- ٢٧٩ مكنونات سورة «الأنبياء»

المبحث الخامس

- ٢٨١ لغة التنزيل في سورة «الأنبياء»

المبحث السادس

المعاني اللغوية في سورة «الأنبياء» ٢٨٥

المبحث السابع

لكل سؤال جواب في سورة «الأنبياء» ٢٨٩

المبحث الثامن

المعاني المجازية في سورة «الأنبياء» ٢٩٥



مركز بحوث القرآن الكريم



مرکز تحقیقات و پژوهش‌های اسلامی

